



سلسلة مؤلفات
فضيلة الشيخ

١٠٣

التعليق على
القول على السنان
المتعلقة بتفسير القرآن

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
رحمته الله تعالى والوالدين والمسئولين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

التعليق على
القول على الحسب
المتعلقة بتفسير القرآن

٣ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن. / محمد بن صالح العثيمين

- ط ٥ - عنيزة، ١٤٤٢هـ

٣٢٧ ص: ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين: ١٠٣)

ردمك: ١-٢٣-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مناهج التفسير

١ - العنوان

١٤٤٢/٧٩٦٥

ديوي ٢٢٧.١

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧٩٦٥

ردمك: ١-٢٣-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ
إِلا أن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الخامسة

١٤٤٢هـ

يُطلب الكتاب من:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات: ٠٥٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة.

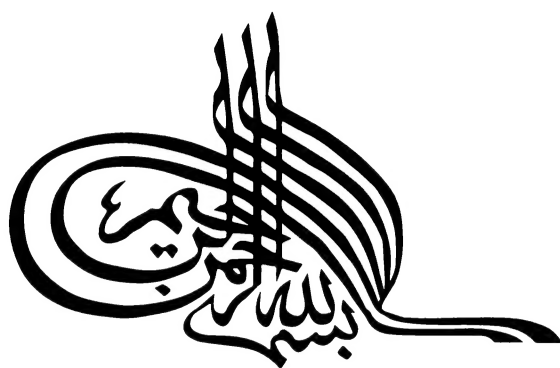
هاتف و فاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٠٣)

التعليق على
القول في العلم الحسن
المتعلقة بتفسير القرآن

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه والمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَلَقَدْ كَانَ مِنْ تَوْجِيهَاتِ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْعَلَامَةِ شَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَطْلَابِ الْعِلْمِ، أَنْ يُيَادِرُوا بِالْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ، وَالسَّعْيِ الْحَثِيثِ لِإِدْرَاكِ حَصِيلَةِ وَافِرَةٍ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْكُلِّيَّةِ لِلْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأُصُولِهَا الْجَامِعَةِ، وَضَوَابِطِهَا الْعَامَّةِ الَّتِي قَرَّرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، لِتَجْمَعَ الشُّوَارِدُ، وَتُبْنَى عَلَيْهَا الْمَسَائِلُ، وَتُعَيَّنَ عَلَى فَهْمِ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ، قَرَّرَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَلَقَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ تَدْرِيسَ الْعَدِيدِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْأُصُولِ وَالْقَوَاعِدِ، وَقَدْ كَانَ مِنْهَا هَذَا الْكِتَابُ (الْقَوَاعِدُ الْحَسَنُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) الَّذِي أَلْفَهُ عَامَ ١٣٦٥ هـ شَيْخُهُ الْأَوَّلُ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ، تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِوِاسِعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَسْكَنَهُ فَيْسَحَ جَنَاتِهِ، وَجَزَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

وَقَدْ جَاءَ هَذَا التَّعْلِيقُ عَلَى الْكِتَابِ عَامَ ١٤٠٧ هـ، ضِمْنَ الدُّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي سُجِّلَتْ صَوْتِيًّا، وَكَانَ يَعْقِدُهَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جَامِعِهِ بَعُيْزَةَ.

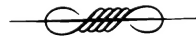
وَسَعْيًا لِتَعْمِيمِ النَّفْعِ بِهَذَا التَّعْلِيقِ، وَإِنْفَاذًا لِلقَوَاعِدِ وَالتَّوْجِیْهَاتِ الَّتِي قَرَّرَهَا
فَضِيلَتُهُ لِإِخْرَاجِ ثَرَاثِهِ الْعِلْمِيِّ، صَدَرَتْ الطَّبْعَةُ الْأُولَى عَامَ ١٤٣١ هـ، وَتَتَوَالَى طَبْعَاتُهُ
بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يُجْزِيَ
فَضِيلَةَ شَيْخِنَا خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الْمَثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ؛
إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ
الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ
لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

القِسْمُ الْعِلْمِيُّ فِي

مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

٢٢ شَعْبَانَ ١٤٤٢ هـ



نُبذة مُختصرة عَنْ

فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ

١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلَدُهُ:

هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ، الْفَقِيهَ الْمَفْسِّرُ، الْوَرَعَ الزَّاهِدُ،
مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ عُثَيْمِينَ مِنَ الْوَهْبَةِ مِنْ بَنِي
تَمِيمٍ.

وُلِدَ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، عَامَ (١٣٤٧ هـ) فِي
عُنَيْزَةٍ - إِحْدَى مُحَافَظَاتِ الْقَصِيمِ - فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

نَشَأَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

أَلْحَقَهُ وَالِدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لِيَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَ جَدِّهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ
مُعَلِّمِ الْقُرْآنِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدَّامِغِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، ثُمَّ تَعَلَّمَ
الْكِتَابَةَ، وَشَيْئًا مِنَ الْحِسَابِ، وَالنُّصُوصَ الْأَدَبِيَّةَ؛ فِي مَدْرَسَةِ الْأُسْتَاذِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ
صَالِحِ الدَّامِغِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِمَدْرَسَةِ مُعَلِّمِ الْقُرْآنِ الشَّيْخِ
عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّحِيحَانِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَيْثُ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَهُ عَنْ
ظَهْرِ قَلْبٍ وَلَمَّا يَتَجَاوَزُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ بَعْدُ.

وَبَتَوَجُّهِهِ مِنْ وَالِدِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَكَانَ

فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(١) - رحمه الله تعالى - يُدرّس العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بمُنيّة، وقد رَتَّب اثْنَيْنِ مِنْ طَلَبَتِهِ الْكِبَارِ^(٢) لتدريس المُبتدئين مِنَ الطَّلَبَةِ، فانضمَّ الشَّيْخُ إِلَى حَلَقَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَطْوَعِ - رحمه الله تعالى - حَتَّى أَذْرَكَ مِنَ الْعِلْمِ - فِي التَّوْحِيدِ، وَالْفِقْهِ، وَالنَّحْوِ - مَا أَذْرَكَ.

ثُمَّ جَلَسَ فِي حَلَقَةِ شَيْخِهِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رحمه الله تعالى -، فدرّس عليه فِي التَّفْسِيرِ، وَالْحَدِيثِ، وَالسَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، وَالْفِقْهِ، وَالْأُصُولِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالنَّحْوِ، وَحَفِظَ مُحْتَصِرَاتِ الْمُتُونِ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ. وَيُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رحمه الله تعالى -

(١) ترجم له الكثيرون، وقد كان على جانب كبير من العلم الغزير والأخلاق الفاضلة وسعة الأفق والعناية البالغة بالتدريس والتأليف، فألف في التوحيد، والتفسير، والفقه، والحديث، والأصول، والآداب، وغيرها، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٣٧٦هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ٢١٨-٢٧٣)، روضة الناظرين للقاضي (١/ ٢١٩).

(٢) هما الشيخان:

١ - الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَطْوَعِ.
لازم شيخه عبد الرحمن السعدي ملازمةً طويلةً، حتى صار أكبر تلامذته، وتولى القضاء بعينزة، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٣٨٧هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٦/ ٧٨)، روضة الناظرين للقاضي (٢/ ٢٩١).

٢ - الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ حَمْدٍ الصَّالِحِي.
لما رأى شيخه عبد الرحمن السعدي منه المثابرة في التحصيل، أمره أن يجلس لتدريس الصغار من الطلبة، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٤١٥هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٥/ ١٨٠).

هُوَ شَيْخُهُ الْأَوَّلُ؛ إِذْ أَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ -مَعْرِفَةً وَطَرِيقَةً- أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَ عَنْ غَيْرِهِ، وَتَأَثَّرَ بِمَنْهَجِهِ وَتَأَصَّلَ بِهِ، وَطَرِيقَةَ تَدْرِيسِهِ، وَاتَّبَاعِهِ لِلدَّلِيلِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عودان^(١) -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَاضِيًا فِي عُنْيَةِ قَرَأَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ، كَمَا قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيْفِي^(٢) -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ أَثْنَاءَ وُجُودِهِ مُدْرِّسًا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ.

وَلَمَّا فُتِحَ الْمَعْهَدُ الْعِلْمِيُّ فِي الرِّيَاضِ أَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ إِخْوَانِهِ^(٣) أَنْ يُلْتَحَقَ بِهِ، فَاسْتَأْذَنَ شَيْخَهُ الْعَلَّامَةَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، وَالتَّحَقَّقَ بِالْمَعْهَدِ عَامِي (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

وَلَقَدْ انْتَفَعَ -خِلَالَ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ انْتَضَمَ فِيهِمَا فِي مَعْهَدِ الرِّيَاضِ الْعِلْمِيِّ- بِالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُدْرِّسُونَ فِيهِ حِينَئِذٍ، وَمِنْهُمْ: الْعَلَّامَةُ الْمُفَسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ^(٤)، وَالشَّيْخُ الْفَقِيهَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ نَاصِرِ بْنِ رَشِيدٍ^(٥)، وَالشَّيْخُ

(١) توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٤هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ١٣٠)، روضة الناظرين للقاضي (٢١٥/٢).

(٢) ولد في مصر، وتلقى تعليمه في الجامع الأزهر، وقدم إلى المملكة عام (١٣٦٨هـ)، ودُرِّسَ في مناطق شتَّى من المملكة، ثم اختير عضوًا بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤١٥هـ). انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ٢٧٥).

(٣) هو الشَّيْخُ عَلِيٌّ بْنُ هَمْدٍ الصَّالِحِي -رحمه الله تعالى-.

(٤) نشأ وتعلَّم في شَنْقِيطٍ من بلاد موريتانيا، ثم قدم إلى المملكة للحج عام (١٣٦٧هـ)، وتولَّى التدريس في المعهد العلمي بالرياض، ثم بالمسجد النبوي والجامعة الإسلامية، واختير عضوًا بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٩٣هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٦/ ٣٧١).

(٥) نشأ في الرَّسِّ إحدى محافظات القصيم، ثم انتقل إلى الرياض، ودُرِّسَ بالمعهد العلمي، وتوجه

المُحَدَّث عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْإِفْرِيقِيُّ^(١) - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى -.

وفي أثناء ذلك اتَّصَلَ بِسَاحَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، فَقَرَأَ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ: مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَمِنْ رَسَائِلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ؛ وَانْتَفَعَ بِهِ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَالنَّظَرِ فِي آرَاءِ فُقَهَاءِ الْمَذَاهِبِ وَالْمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا، وَيُعَدُّ سَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هُوَ شَيْخُهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى عُنْزَةِ عَامٍ (١٣٧٤هـ)، وَصَارَ يَدْرُسُ عَلَى شَيْخِهِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ، وَيَتَابِعُ دِرَاسَتَهُ انْتِسَابًا فِي كُتَيْبَةِ الشَّرِيعَةِ بِالرِّيَاضِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى نَالَ الشَّهَادَةَ الْعَالِيَةَ.

= للوعظ والإرشاد والتدريس بالمسجد الحرام والمعهد العلمي بمكة المكرمة، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٤٠٨هـ).

انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ٥٣١).

(١) نشأ في بلاد مالي بأفريقيا، ثم قدم للحج، وجاور بمكة والمدينة، وطلب العلم على علماء المسجد النبوي، ودرَسَ بدار الحديث بالمدينة النبوية، وعُيِّن مُدَرِّسًا بِهَا، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٣٧٧هـ).

(٢) ترجم له الكثيرون، وأفردوا ترجمته في مؤلفات عديدة، تولى قضاء الخرج، ثم انتقل إلى الرياض للتدريس في المعهد العلمي ثم كلية الشريعة، إلى أن عُيِّن نَائِبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ثم رئيسًا لها، ثم مفتيًا عامًا للمملكة العربية السعودية، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، توفي - رحمه الله تعالى - عام (١٤٢٠هـ).

انظر ترجمته في: روضة الناظرين للقاضي (٣/ ١٤٤).

تَدْرِيسُهُ :

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - النَّجَابَةَ
وَسُرْعَةَ التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ فَشَجَّعَهُ عَلَى التَّدْرِيسِ وَهُوَ مَا زَالَ طَالِبًا فِي حَلَقَتِهِ، فَبَدَأَ
التَّدْرِيسَ عَامَ (١٣٧٠هـ) فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ بَعْنِيزَةَ.

وَلَمَّا تَخَرَّجَ فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ فِي الرِّيَاضِ عَيَّنَ مُدَرِّسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ بَعْنِيزَةَ
عَامَ (١٣٧٤هـ).

وَفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوفِّيَ شَيْخُهُ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ
- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَتَوَلَّى بَعْدَهُ إِمَامَةَ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وَإِمَامَةَ الْعِيدَيْنِ فِيهَا،
وَالتَّدْرِيسَ فِي مَكْتَبَةِ عُنَيْزَةَ الْوَطَنِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْجَامِعِ؛ وَهِيَ الَّتِي أَسَّسَهَا شَيْخُهُ
- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَمَّا كَثُرَ الطُّلُبَةُ، وَصَارَتِ الْمَكْتَبَةُ لَا تَكْفِيهِمْ؛ بَدَأَ فَضِيلَتُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -
يُدْرُسُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ نَفْسِهِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَّابُ وَتَوَافَدُوا مِنَ الْمَمْلَكَةِ
وغيرها؛ حَتَّى كَانُوا يَبْلُغُونَ الْمِائَاتِ فِي بَعْضِ الدُّرُوسِ، وَهَؤُلَاءِ يَدْرُسُونَ دِرَاسَةً
جَادَّةً بِهَدَفِ التَّحْصِيلِ الْعِلْمِيِّ، وَلَيْسَ لِمُجَرَّدِ الِاسْتِمَاعِ. وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ - إِمَامًا
وَخَطِيبًا وَمُدَرِّسًا - حَتَّى وَفَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدَرِّسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ مِنْ عَامِ (١٣٧٤هـ) إِلَى عَامِ (١٣٩٨هـ)
عِنْدَمَا انْتَقَلَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ بِالْقَصِيمِ، التَّابِعَةِ
لِلْجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَظَلَّ أَسْتَاذًا فِيهَا حَتَّى وَفَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى -.

وكان يُدرّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي، في مواسم الحجّ ورمضان والإجازات الصيفية، منذ عام (١٤٠٢هـ) حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

وللشيخ -رحمه الله تعالى- أسلوبٌ تعليميٌّ فريدٌ في جودته ونجاحه، فهو يُناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدُّروس والمحاضرات بهمة عالية ونفسٍ مُطمئنة واثقة، مُبتَهجاً بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثاره العلميّة:

ظَهَرَتْ جُهودُهُ العَظيمةُ -رحمه الله تعالى- خِلالَ أَكثَرِ مِن خَمسينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذلِ في نَشْرِ العِلْمِ والتَّدريسِ والوعْظِ والإِرشادِ والتَّوجيهِ وإِلقاءِ المُحاضراتِ والدَّعوةِ إلى الله سُبْحانَهُ وتَعَالَى.

ولقد اهتمَّ بالتَّأليفِ، وتَحْريِرِ الفِتاوَى والأجوبة، التي تَمَيَّزَتْ بالتَّأصيلِ العِلْمِيِّ الرَّصينِ، وصَدَرَتْ لَهُ العَشْرَاتُ مِنَ الكُتُبِ والرِّسائِلِ والمُحاضراتِ والفِتاوَى والخطَبِ واللقاءاتِ والمَقالاتِ، كما صَدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوتِيَّةِ التي سَجَلَتْ مُحاضراتِهِ وخطبُهُ ولقاءاتِهِ وبرامجُهُ الإذاعيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ؛ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، والشُّروحاتِ المُتميِّزةِ لِلحَدِيثِ الشَّريفِ والسَّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، والمُتونِ والمنظُوماتِ في العُلُومِ الشَّرعيَّةِ والنَّحويَّةِ.

وإنفاذاً لِلقَواعِدِ والصُّوابِ والتَّوجيهِاتِ التي قَرَّرها فَضيلَتُهُ -رحمه الله تعالى- لِنَشْرِ مُؤلَفاتِهِ، ورِسائِلِهِ، ودُرُوسِهِ، ومُحاضراتِهِ، وخطبِهِ، وفِتاوَاهُ، ولقاءاتِهِ؛ تَقُومُ مُؤَسَّسَةُ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بْنِ صالِحِ العُثَيمِينِ الحَثيريَّةُ -بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى وتَوْفيقِهِ- بِوَاجِبٍ وَشَرَفٍ المَسْئُوليَّةِ لِإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وَبِنَاءً عَلَى تَوْجِيهَاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوْقِعٌ خَاصٌّ عَلَى شَبَكَةِ الْمَعْلُومَاتِ الدَّوْلِيَّةِ^(١)، مِنْ أَجْلِ تَعْمِيمِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ -بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وَتَقْدِيمِ جَمِيعِ آثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ مِنَ الْمَوْلاَفَاتِ وَالتَّسْجِيلَاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وَجُهودُهُ الأُخْرَى:

إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْجُهودِ الْمُثْمِرَةِ فِي مَجَالَاتِ التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِمَامَةِ وَالْحَقَاطَبَةِ وَالْإِفْتَاءِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كَانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ مُوَفِّقَةٌ مِنْهَا:

- عَضُوءًا فِي هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، مِنْ عَامِ (١٤٠٧هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ.
- عَضُوءًا فِي الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ بِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي الْعَامَيْنِ الدَّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عَضُوءًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ، بِفَرْعِ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْقَصِيمِ، وَرَئِيسًا لِقِسْمِ الْعَقِيدَةِ فِيهَا.
- وَفِي آخِرِ فِتْرَةِ تَدْرِيسِهِ بِالْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ شَارَكَ فِي عَضُوءِيَّةِ لَجْنَةِ الْخِطَطِ وَالْمَنَاهِجِ لِلْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَلَّفَ عَدَدًا مِنْ الْكُتُبِ الْمَقْرَرَةِ فِيهَا.
- عَضُوءًا فِي لَجْنَةِ التَّوَعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، مِنْ عَامِ (١٣٩٢هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حَيْثُ كَانَ يُلْقِي دُرُوسًا وَمُحَاضَرَاتٍ فِي مَكَّةَ وَالْمَشَاعِرِ، وَيُقِيتِي فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

- تَرَأَسَ جَمْعِيَّةٌ تَحْفِظُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الْحَيَرِيَّةَ فِي عُنْيَةٍ مُنْذُ تَأْسِيسِهَا عَامَ (١٤٠٥ هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ.
- أَلْقَى مُحَاضِرَاتٍ عَدِيدَةً دَاخِلَ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ عَلَى فِئَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ النَّاسِ، كَمَا أَلْقَى مُحَاضِرَاتٍ عَبْرَ الْهَاتِفِ عَلَى تَجْمُعاتٍ وَمَرَاكِزِ إِسْلَامِيَّةٍ فِي جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعَالَمِ.
- مِنْ عُلَمَاءِ الْمَمْلَكَةِ الْكِبَارِ الَّذِينَ يُجِيبُونَ عَلَى أَسْئَلَةِ الْمُسْتَفْسِرِينَ عَنِ الْأَحْكَامِ وَالْمَسَائِلِ؛ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَسُلُوكًا، وَذَلِكَ عَبْرَ الْبَرَامِجِ الْإِذَاعِيَّةِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، وَأَشْهَرُهَا بَرْنَامِجُ (نُورٌ عَلَى الدَّرَبِ) مِنْ إِذَاعَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْإِجَابَةِ عَلَى أَسْئَلَةِ السَّائِلِينَ؛ مُهَاتِفَةً وَمُكَاتَبَةً وَمُشَافَهَةً.
- رَتَّبَ لِقَاءَاتٍ عِلْمِيَّةً مُجْدُولَةً، أُسْبُوعِيَّةً وَشَهْرِيَّةً وَسَنَوِيَّةً.
- شَارَكَ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤْتَمَرَاتِ الَّتِي عُقِدَتْ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.
- وَلَأنَّهُ يَهْتَمُّ بِالسُّلُوكِ التَّرْبَوِيِّ وَالْجَانِبِ الْوَعْظِيِّ اعْتَنَى بِتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى سُلُوكِ الْمَنْهَجِ الْجَادِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، وَعَمِلَ عَلَى اسْتِقْطَائِهِمْ وَالصَّبْرِ عَلَى تَعْلِيمِهِمْ وَتَحْمُلِ أَسْئَلَتِهِمْ الْكَثِيرَةَ الْمُتَنَوِّعَةَ، وَالْإِهْتِمَامِ بِأُمُورِهِمْ.
- وَلِلشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَعْمَالٌ عَدِيدَةٌ فِي مَيَادِينِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِ الْبِرِّ وَمَجَالَاتِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّعْيِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَكِتَابَةِ الْوَثَائِقِ وَالْعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وَإِسْدَاءِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ بِصَدَقٍ وَإِخْلَاصٍ.

مَكَاتُتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ- تَأْصِيلاً وَمَلَكَ عَظِيمَةً فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ وَاتِّبَاعِهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسَبَرِ أَغْوَارِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَانِي وَإِعْرَابًا وَبَلَاغَةً.

وَلَمَّا تَحَلَّى بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْعُلَمَاءِ الْجَلِيلَةِ، وَأَخْلَاقِهِمُ الْحَمِيدَةِ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحَبَّةً عَظِيمَةً، وَقَدَّرَهُ الْجَمِيعُ كُلَّ التَّقْدِيرِ، وَرَزَقَهُ اللهُ الْقَبُولَ لَدَيْهِمْ، وَاطْمَأْنَنُوا لِاخْتِيَارَاتِهِ الْفَقْهِيَّةِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وَفَتَاوَاهُ وَأَثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ وَمَوَاعِظِهِ.

وَقَدْ مُنِحَ جَائِزَةُ الْمَلِكِ فَيَصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الْعَالَمِيَّةُ لِحُدُومَةِ الْإِسْلَامِ عَامَ (١٤١٤ هـ)، وَجَاءَ فِي الْحَيْثِيَّاتِ الَّتِي أَبَدَتْهَا لَجَنَةُ الْإِخْتِيَارِ لِمُنْحِهِ الْجَائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحَلُّيهِ بِأَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي مِنْ أَبْرَزِهَا: الْوَرَعُ، وَرَحَابَةُ الصَّدْرِ، وَقَوْلُ الْحَقِّ، وَالْعَمَلُ لِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالنُّصْحُ لِحَاقِصَتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ.
- ثَانِيًا: انْتِفَاعُ الْكَثِيرِينَ بِعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وَإِفْتَاءً وَتَأْلِيفًا.
- ثَالِثًا: إِلْقَاؤُهُ الْمَحَاضِرَاتِ الْعَامَّةَ النَّافِعَةَ فِي مُخْتَلَفِ مَنَاطِقِ الْمَمْلَكَةِ.
- رَابِعًا: مُشَارَكَتُهُ الْمَفِيدَةَ فِي مُؤْتَمَرَاتِ إِسْلَامِيَّةٍ كَثِيرَةٍ.
- خَامِسًا: اتِّبَاعُهُ أَسْلُوبًا مُتَمِيزًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وَسُلُوكًا.

عَقِبُهُ :

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الْبَنِينَ، وَثَلَاثٌ مِنَ الْبَنَاتِ، وَبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ،
وإِبْرَاهِيمُ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ، وَعَبْدُ الرَّحِيمِ.

وَفَاتَهُ :

تُوِّفِيَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي مَدِينَةِ جَدَّةَ، قَبِيلَ مَغْرِبِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ، الْخَامِسَ
عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ، عَامَ (١٤٢١ هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَعْدَ
صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلْكَ الْأَلْفُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَالْحُشُودِ الْعَظِيمَةِ فِي مَشَاهِدَ
مُؤَثَّرَةٍ، وَدُفِنَ فِي مَقْبَرَةِ الْعَدْلِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ.

وَبَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ مِنَ الْيَوْمِ التَّالِي صُلِّيَ عَلَيْهِ صَلَاةُ الْغَائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ
الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

رَحِمَ اللَّهُ شَيْخَنَا رَحْمَةً الْأَبْرَارِ، وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَمَنْ عَلَيْهِ بِمَغْفِرَتِهِ
وَرِضْوَانِهِ، وَجَزَاهُ عَمَّا قَدَّمَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

الْقِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ



بسم الله الرحمن الرحيم

اِنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ كُلُّ حَيْبٍ رَّبَّنَا يُرِضِي وَاشْهَدُ اَنْ لَا اِلَهَ اِلَّا اَسَدُ وَعْدُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَيْفَ فَنُفِخُ الْاَوَّلَى وَاشْهَدُ اَنْ مُحَمَّدًا وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفَى وَغُلِيْلُهُ الْمُجْتَبَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَاصْحَابِهِ وَمَنْ يَهْدِهِمْ اَهْدَى وَسَلَّمَ قَسْلًا كَثِيرًا .

أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشرا الأمور محدثاتها . وعيها لأن خير الحديث كتاب الله فإن فهمه وتدبره والعمل به تصديقا للأخبار وعملها بالأحكام أنفس ما يزيل المرء فيه (أنفاسه) وأنفع ما أفضى فيه أوقاته . ولهذا كان علم تفسير كلام الله تعالى أهم العلوم وأفضلها . ولأن العاصية رضى الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيه من العلم والعمل فتعلموا به لئلا يتركوا العلم والعمل جميعا .

ولما كان الرجوع الى أصول العلم وقواعده يسير لطالب العلم الموصول
الى فروعه وجزئياته وينفع له آفاقا واسعة في التطبيق والتخرج وأدراك ذلك
شيخنا الجليل ابن ناصر بن محمدي رحمه الله كتب ما يتيسر من قولنا التقدير
ما بلغ إحدى وسبعين قاعدة اشتملت على قواعد مهمة وفوائد جمة ينظر ذلك
لمن قرأها بتدبر وتمهل . والله أسأل أن ينفع به مؤلفها وقارئها ومن شاء أن
يعمل نشرها لم نذكره .

کتبہ : مرکز الصالح العیثین

[Handwritten signature]

خاتمة الكتاب محررة بقلم المؤلف (فضيلة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي) رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَأَشْهَدُ
أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفَى، وَخَلِيلُهُ الْمُجْتَبَى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ
وَمَنْ يَهْدَاهُمْ اهْتَدَى، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرُّ الْأُمُورِ
مُحَدَّثَاتُهَا. وَحَيْثُ كَانَ خَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ فَإِنَّ فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ وَالْعَمَلُ بِهِ تَصَدِيقًا
لِلْأَخْبَارِ وَعَمَلًا بِالْأَحْكَامِ أَنْفُسُ مَا بَدَلَ الْمَرْءُ فِيهِ أَنْفَاسَهُ، وَأَنْفَعُ مَا أَمْضَى فِيهِ أَوْقَاتُهُ؛
وَلِهَذَا كَانَ عِلْمُ تَفْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَهَمَّ الْعُلُومِ وَأَفْضَلَهَا، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى يَتَعَلَّمُوها وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ،
فَتَعَلَّمُوا بِذَلِكَ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا.

وَلَمَّا كَانَ الرَّجُوعُ إِلَى أَصُولِ الْعِلْمِ وَقَوَاعِدِهِ يُسَرُّ لَطَالِبِ الْعِلْمِ الْوُصُولُ إِلَى
فُرُوعِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَيَفْتَحُ لَهُ آفَاقًا وَاسِعَةً فِي التَّطْبِيقِ وَالتَّخْرِيجِ، وَأَدْرَكَ ذَلِكَ شَيْخُنَا
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ بْنِ سَعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَتَبَ مَا تيسَّرَ مِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ مَا بَلَغَ
إِحْدَى وَسَبْعِينَ قَاعِدَةً، اشْتَمَلَتْ عَلَى قَوَاعِدَ مُهِمَّةٍ، وَفَوَائِدَ جَمَّةٍ، يَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ قَرَأَهَا
بِتَدَبُّرٍ وَتَمَهُّلٍ. وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا مُؤَلِّفَهَا وَقَارِئَهَا وَمَنْ أَعَانَ عَلَى نَشْرِهَا؛ إِنَّهُ جَوَادٌ
كَرِيمٌ.

كُتِبَ مُحَمَّدُ الصَّالِحُ الْعُثَيْمِيُّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الْمُؤَلِّفُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ: (الْقَوَاعِدُ الْحَسَنُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) ^(١).

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذِهِ أَصُولٌ وَقَوَاعِدُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، جَلِيلَةِ الْمِقْدَارِ، عَظِيمَةِ النَّفْعِ، تُعِينُ قَارِئَهَا وَمُتَأَمِّلَهَا عَلَى فَهْمِ كَلَامِ اللَّهِ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِهِ، وَمُخْبَرُهَا أَجَلَ مَنْ وَضَفَهَا؛ فَإِنَّهَا تَفْتَحُ لِلْعَبْدِ مِنْ طُرُقِ التَّفْسِيرِ وَمِنْهَاجِ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ مَا يُعِينُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ التَّفَاسِيرِ الْحَالِيَّةِ فِي هَذِهِ الْبُحُوثِ النَّافِعَةِ.

أَرْجُو اللَّهُ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُتِمَّ مَا قَصَدْنَا إِيرَادَهُ، وَيَفْتَحَ لَنَا مِنْ خَزَائِنِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْهُدَى الْكَامِلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ التَّفْسِيرِ أَجَلُ الْعُلُومِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَأَفْضَلُهَا، وَأَوْجَبُهَا، وَأَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِتَدْبِيرِ كِتَابِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِآيَاتِهِ، وَأَثْنَى عَلَى الْقَائِمِينَ بِذَلِكَ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَوَعَدَهُمْ أَسْنَى الْمَوَاهِبِ، فَلَوْ أَنْفَقَ الْعَبْدُ

(١) طبقاً للطبعة المعتمدة من أبناء المؤلف الصادرة بعناية الشيخ خالد بن عثمان السبت، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ.

جواهرِ عُمرِهِ فِي هَذَا الْفَنِّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي جَنْبِ مَا هُوَ أَفْضَلُ الْمَطَالِبِ،
وَأَعْظَمُ الْمَقَاصِدِ، وَأَصْلُ الْأُصُولِ كُلِّهَا، وَقَاعِدَةُ أَسَاسَاتِ الدِّينِ، وَصَلَاحُ أُمُورِ
الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَتْ حَيَاةُ الْعَبْدِ زَاهِرَةً بِالْهُدَى وَالْحَيَرِ وَالرَّحْمَةِ، وَطِيبِ
الْحَيَاةِ، وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ.

فَلَنَشْرَعَ الْآنَ بِذِكْرِ الْقَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ
الْمَقْصُودُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْفَتَحَ لِلْعَبْدِ الْبَابُ، وَتَمَهَّدَتْ عِنْدَهُ الْقَاعِدَةُ، وَتَدَرَّبَ مِنْهَا بَعْدَةٌ
أَمْثَلَةٌ تَوْضُّحُهَا، وَتُبَيَّنَ طَرِيقُهَا وَمَنْهَجُهَا - لَمْ يَخْتَجِ إِلَى زِيَادَةِ الْبَسْطِ، وَكَثْرَةِ
التَّفَاصِيلِ.

وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُمِدَّنَا بِعَوْنِهِ وَلُطْفِهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ بِمَنِّهِ
وَكَرَمِهِ.

السَّابِقُ

قَالَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا
مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَخَذَ الْمُؤَلِّفُ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً
وَاسِعَةً وَأَسْكَنَةً فَسَيَّحَ جَنَاتِهِ - هَذِهِ الْقَوَاعِدَ فِي رَمَضَانَ، وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ - كَمَا يَظْهَرُ -
ابْتِدَاءً مِنْ أَوَّلِ رَمَضَانَ إِلَى سَادِسِ شَوَّالٍ، فِي أَيَّامِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَأَيَّامِ الصَّوْمِ. ثُمَّ إِنَّ
ثَنَاءَهُ عَلَيْهَا لَيْسَ بِغَرِيبٍ؛ لِأَنَّ ثَنَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى مُؤَلِّفَاتِهِمْ لَا يَقْصِدُونَ بِهِ الْفَخْرَ
أَوْ التَّفَاخُرَ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ شَدَّ النَّاسِ إِلَى قِرَاءَتِهَا وَالْإِتِّفَاقَ حَوْلَهَا.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَنَالَهُ الْإِبِلُ أَعْلَمَ بِكِتَابِ
 اللَّهِ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ ^(١). فَهُوَ لَمْ يَقْصِدْ مَدْحَ نَفْسِهِ، لَكِنَّهُ قَصَدَ حَثَّ النَّاسِ عَلَى
 أَخْذِ الْعِلْمِ مِنْهُ، وَعَلَى تَمَسُّكِهِمْ بِطَلَبِ الْعِلْمِ. وَابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَثْنَى عَلَى أَلْفِيَّتِهِ،
 فَقَالَ:

تَقَرَّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزٍ وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجِزٍ
 وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطٍ فَأَثَقَةَ أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِي ^(٢)

الْمِهْمُ أَنَّ شَيْخَنَا -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- حِينَئِذَا أَثْنَى عَلَى هَذَا الْكِتَابِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ
 أَنْ يَفْتَخَرَ بِهِ عَلَى النَّاسِ، وَأَنَا أَعْرِفُهُ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، فَهُوَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَوَاضَعًا،
 وَلَكِنَّهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَرَادَ أَنْ يَشُدَّ النَّاسَ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ؛ لِيَنْتَفِعُوا بِهِ. وَنَسَأَلُ
 اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُحَقِّقَ لَهُ مَا يَرْجُوهُ، وَأَنْ يُجْزِلَ لَهُ الْمَثُوبَةَ وَالْأَجْرَ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم:

كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٦٣)، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ٩).

القاعدة الأولى:

في كيفية تلقي التفسير

كُلُّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا، وَعَمِلَ عَمَلًا، وَأَتَاهُ مِنْ أَبْوَابِهِ وَطُرُقِهِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُفْلَحَ وَيُنْجَحَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وَكُلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ تَأَكَّدَ هَذَا الْأَمْرُ، وَتَعَيَّنَ الْبَحْثُ النَّامُ عَنْ أُمْتَلٍ وَأَحْسَنِ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ هُوَ أَهَمُّ الْأُمُورِ وَأَجَلُّهَا وَأَصْلُهَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ لِهَدَايَةِ الْخَلْقِ وَإِزْشَادِهِمْ، وَأَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَانٍ يُرْشِدُ إِلَى أَهْدَى الْأُمُورِ وَأَقْوَمِهَا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. فَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَلَقَّوْا مَعْنَى كَلَامِ اللَّهِ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَرَأُوا عَشْرَ آيَاتٍ، أَوْ أَقَلَّ، أَوْ أَكْثَرَ، لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَعْرِفُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَيُنْزِلُونَهَا عَلَى الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ، فَيَعْتَقِدُونَ مَا اخْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَيَنْقَادُونَ لِأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَيُدْخِلُونَ فِيهَا جَمِيعَ مَا يَشْهَدُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْمَوْجُودَةِ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ، وَيُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ: هَلْ هُمْ قَائِمُونَ بِهَا أَوْ مُخِلُّونَ؟ وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْأُمُورِ النَّافِعَةِ وَإِيجَادِ مَا نَقَصَ مِنْهَا؟ وَكَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنَ الْأُمُورِ الضَّارَّةِ؟ فَيَهْتَدُونَ بِعُلُومِهِ، وَيَتَخَلَّقُونَ بِأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ خِطَابٌ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، مُوجَّهٌ إِلَيْهِمْ، وَمُطَالَبُونَ بِمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ.

فَمَنْ سَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكَوهُ، وَجَدَ وَاجْتَهَدَ فِي تَدَبُّرِ كَلَامِ اللَّهِ، انْتَفَحَ لَهُ الْبَابُ الْأَعْظَمُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَقَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ، وَازْدَادَتْ بَصِيرَتُهُ، وَاسْتَعْنَى بِهِذِهِ الطَّرِيقَةَ عَنْ كَثْرَةِ التَّكَلُّفَاتِ، وَعَنِ الْبُحُوثِ الْخَارِجِيَّةِ، وَخُصُوصًا إِذَا كَانَ قَدْ أَخَذَ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ جَانِبًا قَوِيًّا، وَكَانَ لَهُ الْإِمَامُ وَاهْتِمَامُ بَسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْوَالِهِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى هَذَا الْمَطْلَبِ.

وَمَتَى عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ كَفِيلٌ بِجَمِيعِ الْمَصَالِحِ، مُبَيِّنٌ لَهَا، حَاطٌّ عَلَيْهَا، زَاجِرٌ عَنِ الْمَضَارِّ كُلِّهَا، وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ نُصْبَ عَيْنِهِ، وَنَزَّلَهَا عَلَى كُلِّ وَاقِعٍ وَحَادِثٍ سَابِقٍ أَوْ لَاحِقٍ -ظَهَرَ لَهُ عِظَمُ مَوْقِعِهَا، وَكَثْرَةُ فَوَائِدِهَا وَثَمَرَتِهَا.

التعاليق

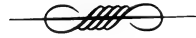
خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَمَتَى آمَنَّا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَسْلُكَ الطَّرِيقَ الَّذِي تُوَصِّلُنَا لِمَعْرِفَةِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِهِ. وَلِنَعْلَمَ أَنَّنَا إِذَا سَلَكَنَا هَذِهِ الطَّرِيقَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَارِكُ لَنَا فِيْمَا قَصَدْنَا، وَفِيْمَا أَرَدْنَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِتُدْرِكُ الْأُمَّةَ وَتُنْذِرَ الْكَافِرَ لِكُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [ص: ٢٩].

وَكُلَّمَا تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَتَذَكَّرَ بِمَا فِيهِ، فَإِنَّهُ تَحْصُلُ لَهُ بَرَكَتُهُ عَلَيْهِ فِي عُمُرِهِ، وَفِي عَمَلِهِ، وَفِي يَقِينِهِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ شَاهِدًا عَلَى هَذَا فَاَنْظُرْ إِلَى أَعْمَارِ مَنْ سَبَقَنَا مِنْ سَلَفٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَيْفَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الْعَظِيمِ؟! وَنَتَعَجَّبُ كَيْفَ يَكْتُبُونَ هَذَا الشَّيْءَ وَكَيْفَ يَعْمَلُونَ هَذَا الشَّيْءَ،

فَضْلًا عَنِ الْإِعْدَادِ لَهُ، وَمَا يَسْبِقُهُ مِنْ تَهَيُّةٍ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، كُلُّ هَذَا بَرَكَةٌ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

فَعَلَيْكَ أَنْ تَشُدَّ يَدَيْكَ بِهِ، وَأَنْ تَعَضَّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِدِ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ مَتَى عَمِلْتَ بِهِ فِي مَا وَجَّهَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ تَدَبُّرِ آيَاتِهِ وَتَذَكُّرِهِ، فَإِنَّكَ سَتَنَالُ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَؤُلَاءِ سَلَفُنَا الْكَرَامُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -الصَّحَابَةُ- لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشَرَ آيَاتٍ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ لَفْظًا وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا؛ وَلِهَذَا كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِيهِمْ، أَيْ: صَارَ عَظِيمًا مُحْتَرَمًا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْرَأُونَ كَمَا نَقْرَأُ نَحْنُ، مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ نُمَرِّرُهَا عَلَى اللِّسَانِ وَلَا تَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ أَحْيَانًا، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ بِتَدَبُّرٍ وَتَذَكُّرٍ وَاتِّعَاطٍ. وَالَّذِي نَزَعَ الْبَرَكَةَ مِنْ عِلْمِنَا أَنَّنَا لَا نَعْمَلُ بِهِ وَلَا نَتَذَكَّرُ.

فَهَذَا هُوَ خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَأَنَّهُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَعَلَيْنَا أَنْ نَصِلَ إِلَى هَذَا الْجَوْهَرِ الثَّمِينِ، وَهُوَ الْهُدَى وَالْبَيَانُ وَالتَّذَكُّرُ؛ حَتَّى تَحْصُلَ لَنَا الْبَرَكَةُ فِي أَعْمَالِنَا وَأَعْمَارِنَا. وَيَلْتَحِقُ بِهِذِهِ الْقَاعِدَةُ:



القاعدة الثانية:

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه قاعدة نافعة جداً، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعت القاعدة السابقة، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هي أمثلة توضح الألفاظ، ليست الألفاظ مقصورة عليها، فقولهم: «نزلت في كذا، وفي كذا» معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراؤها؛ فإنه - كما تقدم - إنما أنزل القرآن لهداية أول الأمة وآخرها، والله تعالى قد أمرنا بالتفكير والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة - فلا ي شئ نخرج بعض هذه المعاني، مع إدخالنا ما هو مثلها ونظيرها؟!

التعاليق

وعلى هذا: فإذا ادعى شخص خروج فرد من أفراد العموم من لفظه، قلنا له: أين الدليل؟ لأن الأصل: أن العام شامل لجميع أفرادِهِ. قال العلماء: وصورة السبب قطعية الدخول وما عداها فدخولها ظني، العام يشمل صوراً متعددة، فمثلاً قضية المرأة^(١) التي اشتكت إلى الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - زوجها،

(١) أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨)، والنسائي: كتاب الطلاق،

هَذِهِ قَطْعِيَّةُ الدُّخُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣] وَظَهَارُ زَيْدٍ وَعَمْرُو بَعْدَ ذَلِكَ ظَنِّيَّةُ الدُّخُولِ؛ لَا خِتَالِ أَنْ لَا يُرَادَ بِالْعُمُومِ جَمِيعَ أَفْرَادِهِ، لَكِنْ الْحُكْمُ يَشْمَلُهَا، إِمَّا بِالْعُمُومِ اللَّفْظِيِّ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، وَإِمَّا بِالْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ، وَهُوَ الْقِيَاسُ لِعَدَمِ الْفَارِقِ.



وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَزْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ إِمَّا خَيْرٌ تَوَمُّرٌ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ»^(١).

فَمَتَى مَرَّ بِكَ خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ، وَعَمَّا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْكَمَالِ، وَمَا يَنْزَرُهُ عَنْهُ مِنَ النَّقْصِ، فَأَثْبِتْ جَمِيعَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْكَامِلِ الَّذِي أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَنَزَّهَهُ عَنْ كُلِّ مَا نَزَّهُ نَفْسُهُ عَنْهُ.

وكَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ عَنْ رُسُلِهِ، وَكُتِبِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَعَنْ جَمِيعِ الْأُمُورِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ، جَزَمْتَ جَزْماً لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، بَلْ هُوَ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وَ﴿حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وَإِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ نَظَرْتَ إِلَى مَعْنَاهُ، وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ وَمَا لَا يَدْخُلُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُوجَّهٌ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ. وَكَذَلِكَ فِي النَّهْيِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ مَعْرِفَةُ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ

= باب الظهار، رقم (٣٤٦٠) ورواه البخاري تعليقا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، قبل حديث رقم (٧٣٨٦)، وأحمد (٤٦/٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦)، وسعيد بن منصور (٥٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠)، والبيهقي في الشعب (١٨٨٦)، وفي سنده انقطاع.

أَصْلَ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، وَالْجَهْلُ بِذَلِكَ أَصْلَ الشَّرِّ وَالْجَفَاءِ، فَمُرَاعَاةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَكْبَرُ
 عَوْنٍ عَلَى مَعْرِفَةِ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْقُرْآنُ قَدْ جَمَعَ أَجَلَ الْمَعَانِي وَأَنْفَعَهَا
 وَأَصْدَقَهَا بِأَوْضَحِ الْأَلْفَاظِ وَأَحْسَنِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ
 بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] يُوضِّحُ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُهُ وَيُنْهَجُ طَرِيقَهُ:



القاعدةُ الثَّالِثَةُ:

الْأَلِفُ وَاللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى الْأَوْصَافِ، وَأَسْمَاءُ الْأَجْنَاسِ،
تُفِيدُ الْاسْتِغْرَاقَ بِحَسَبِ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ

وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ الْأُصُولِ، وَأَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ، وَاتَّفَقَ عَلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ أَهْلُ
الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

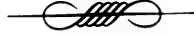
فَمَثَلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إِلَى
قَوْلِهِ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] أَدْخَلَ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ
كُلَّ مَا تَنَاوَلَهُ مِنْ مَعَانِي الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْقُنُوتِ، وَالصَّدَقِ، إِلَى آخِرِهَا. وَأَنَّ
بِكَمَالِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ يَكْمُلُ لِمُصَاحِبِهَا مَا رُتِّبَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ،
وَبِنُقْصَانِهَا يَنْقُصُ، وَبِعَدَمِهَا يُفْقَدُ.

وَهَكَذَا كُلُّ وَصْفٍ رُتِّبَ عَلَيْهِ خَيْرٌ وَأَجْرٌ وَثَوَابٌ، وَكَذَلِكَ مَا يُقَابِلُ ذَلِكَ:
كُلُّ وَصْفٍ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَرُتِّبَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُتَّصِفِ بِهِ عُقُوبَةٌ، وَشَرٌّ، وَنُقْصَا، يَكُونُ
لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنَ الْوَصْفِ الْمَذْكُورِ.

التفصيل

الْحُكْمُ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ أَزْدَادَ بَرِيَادَةَ ذَلِكَ الْوَصْفِ وَنَقَصَ بِنُقْصِهِ؛ لِأَنَّ
الْحُكْمَ الْمُعْلَقَ عَلَى وَصْفٍ يَدُلُّ عَلَى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، وَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا
وَعَدَمًا، وَقُوَّةً وَضَعْفًا.

الْحُكْمُ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ فَإِنَّهُ يَقْوَى بِقُوَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ، وَيَضَعُفُ بِضَعْفِهِ،
فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، فَكُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ قَوِيَ الْأَجْرُ، وَكُلَّمَا ضَعُفَ
ضَعُفَ الْأَجْرُ.



وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ ١٩﴾
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿عَامٌّ بِجِنْسِ الْإِنْسَانِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ هَذَا وَصْفُهُ، إِلَّا مَنْ اسْتَشَى
اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمُصْلِحِينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] إِلَى آخِرِهَا.

كما أن قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿[العصر: ١-٢] أَي: كُلُّ إِنْسَانٍ
مُتَّصِفٌ بِالْخُسَارِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

التعاليق

هَذَا الْجِنْسُ؛ لِأَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ الْوَصْفَ وَالْجِنْسَ، وَهَذَا مِثَالُ اسْمِ
الْجِنْسِ.



وَأَعْظَمُ مَا تُعْتَبَرُ بِهِ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ: فِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ فَإِنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا
شَيْئًا كَثِيرًا، وَهِيَ أَجَلُ عُلُومِ الْقُرْآنِ، فَمَثَلًا يُخْبِرُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُ الْمَلِكُ،
وَالْعَلِيمُ، وَالْحَكِيمُ، وَالْعَزِيزُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْقُدُّوسُ السَّلَامُ، وَالْحَمِيدُ الْمَجِيدُ، فَ(اللَّهُ)
هُوَ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الْأَلُوهِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤَلَّهَ لِأَجْلِهَا، وَهِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ
كُلُّهَا، وَالْمَحَامِدُ كُلُّهَا، وَالْفَضْلُ كُلُّهُ، وَالْإِحْسَانُ كُلُّهُ، وَأَنَّهُ لَا يُشَارِكُ اللَّهُ أَحَدٌ فِي

مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْأُلُوْهِيَّةِ، لَا بَشَرٌ، وَلَا مَلَكٌ، بَلْ هُمْ جَمِيعًا مُتَأَلِّهُونَ مُتَعَبِّدُونَ لِرَبِّهِمْ، خَاضِعُونَ لَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَأَنَّهُ الْمَلِكُ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الْمَلِكِ، وَهُوَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ، وَالتَّصَرُّفُ النَّافِذُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مَمَالِكُ اللَّهِ، عَبِيدٌ تَحْتَ أَحْكَامِ مُلْكِهِ الْقَدَرِيَّةِ، وَالشَّرْعِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ. وَأَنَّهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ...

التعاليق

قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الْأَحْكَامَ قَدَرِيَّةً وَشَّرْعِيَّةً وَجَزَائِيَّةً. وَنَحْنُ نَقُولُ دَائِمًا: إِنَّ الْأَحْكَامَ شَّرْعِيَّةً وَكُونِيَّةً، أَوْ قَدَرِيَّةً؛ لِأَنَّ الْجَزَائِيَّةَ دَاخِلَةٌ فِي الْقَدَرِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا بِمَا قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ، لَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَسْطِ.



...، الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالْبَوَاطِنِ، وَالظَّوَاهِرِ، وَالْحَقِيقَاتِ، وَالْجَلِيَّاتِ، وَالْوَاجِبَاتِ، وَالْمُسْتَحِيلَاتِ، وَالْجَائِزَاتِ، وَالْأُمُورِ السَّابِقَةِ، وَاللَّاحِقَةِ، وَالْعَالَمِ الْعُلُويِّ، وَالسُّفْلِيِّ، وَالْكُلِّيَّاتِ، وَالْجُزْئِيَّاتِ، وَمَا يَعْلَمُ الْخَلْقُ، وَمَا لَا يَعْلَمُونَ.

التعاليق

كَيْفَ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُسْتَحِيلَاتِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] هَذَا تَعْلِيلٌ بِشَيْءٍ مُسْتَحِيلٍ، يَعْنِي: مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ. أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي هَذَا الْكَوْنِ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَأَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ لَا يُمَكِّنُ وُجُودَهُ.

... وَأَنَّهُ الْحَكِيمُ، الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ النَّامَةُ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ مَا قَضَاهُ، وَقَدَّرَهُ، وَخَلَقَهُ، وَجَمِيعِ مَا شَرَعَهُ، لَا يَخْرُجُ عَنْ حِكْمَتِهِ مَخْلُوقٌ، وَلَا مَشْرُوعٌ.

وَأَنَّهُ الْعَزِيزُ، الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الْعِزَّةِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ النَّامِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ: عِزَّةُ الْقُوَّةِ، وَعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ وَالْعَلَبَةِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي غَايَةِ الدُّلِّ، وَنَهَايَةِ الْفَقْرِ، وَمُنْتَهَى الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ إِلَى رَبِّهِمْ.

وَأَنَّهُ الرَّحِيمُ، الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الرَّحْمَةِ، الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَحُلْ مَخْلُوقٌ مِنْ إِحْسَانِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَوَصَلَتْ رَحْمَتُهُ حَيْثُ وَصَلَ عِلْمُهُ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وَأَنَّهُ الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُعَظَّمُ، الْمُتَزَّهِ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ وَنَقْصٍ، وَعَنْ ثُمَالَةٍ أَحَدٍ، وَعَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَدٌّ مِنْ خَلْقِهِ.

وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى اعْتَبَرَهَا بِهِذِهِ الْقَاعِدَةُ الْجَلِيلَةُ يَنْفَتِحُ لَكَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، بَلْ أَصْلُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعْرِفَةٌ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، بِحَسَبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، وَإِلَّا فَلَا يَبْلُغُ عِلْمُ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا يُحْصِي أَحَدٌ ثَنَاءً عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَفَوْقَ مَا يُثْنِي عَلَيْهِ عِبَادُهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فَالْبِرُّ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ. وَتَشْمَلُ التَّقْوَىٰ: جَمِيعَ مَا يَجِبُ اتَّقَاؤُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالْمَحْرَمَاتِ.

وَالْإِلْمُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُؤْتِمُّ وَيُوقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ، كَمَا أَنَّ الْعُدْوَانَ اسْمٌ جَامِعٌ يَدْخُلُ فِيهِ التَّعَدِّيُّ عَلَى النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْأَعْرَاضِ.

والمَعْرُوفُ فِي الْقُرْآنِ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ حُسْنُهُ شَرْعًا وَعَقْلًا، وَعَكْسُهُ الْمُنْكَرُ.

وَقَدْ نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى اعْتِبَارِهَا فِي قَوْلِهِ فِي التَّشَهُّدِ فِي الصَّلَاةِ فِي قَوْلِ الْمُصَلِّينَ: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ» فَقَالَ: «فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١) وَأُمِثِلْتَهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةً جِدًّا.

التعليق

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْمُفْرَدَ الْمُحَلَّ بِأَلٍ يَعْصَمُ، سَوَاءً دَخَلَ عَلَى وَضْفٍ أَوْ دَخَلَ عَلَى اسْمٍ جِنْسٍ. ثُمَّ عَادَ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ وَاسْتَطَرَّدَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ (أَلٍ) فِيهَا لِلِاسْتِغْرَاقِ، فَمَثَلًا: السَّمِيعُ: لَاسْتِغْرَاقٍ كُلِّ مَا يُمَكِّنُ مِنْ سَمْعٍ؛ وَلِهَذَا مَا مِنْ مَسْمُوعٍ إِلَّا وَيَسْمَعُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ. الْبَصِيرُ: لَاسْتِغْرَاقٍ كُلِّ مَا يُمَكِّنُ مِنْ بَصَرٍ. الْبَرُّ: لَاسْتِغْرَاقٍ كُلِّ مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَهَكَذَا.



(١) أخرجه البخاري: أبواب العلم في الصلاة، باب من سمى قوما، أو سلم في الصلاة على غيره مواجهة، وهو لا يعلم، رقم (١٢٠٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القاعدةُ الرَّابِعَةُ:

إِذَا وَقَعَتِ النَّكْرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، أَوِ النَّهْيِ، أَوِ الشَّرْطِ، أَوِ الِاسْتِفْهَامِ،
دَلَّتْ عَلَى الْعُمُومِ

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

فَإِنَّهُ نَهَى عَنِ الشَّرْكِ بِهِ فِي النِّيَّاتِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ، وَعَنِ الشَّرْكِ الْكَثِيرِ،
وَالْأَصْغَرِ، وَالْحَفِيِّ، وَالْجَلِيِّ، فَلَا يَجْعَلُ الْعَبْدَ لِلَّهِ نِدًّا وَمُشَارِكًا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَنَظِيرُهَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾
[الانفطار: ١٩] يَعْمُ كُلَّ نَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ، لَا إِيصَالَ الْمَنَافِعِ، وَلَا دَفْعَ
الْمَضَارِّ.

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ
بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] فَكُلُّ ضُرٍّ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ
مِنَ الْخَلْقِ كَشْفُهُ بَوَاجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَنِهَايَةُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُ مِنَ الْأَسْبَابِ
وَالْأَدْوِيَةِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ كَثِيرَةٍ دَاخِلَةٍ فِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ
بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] يَشْمَلُ كُلَّ خَيْرٍ فِي الْعَبْدِ

وَيُصِيبُ الْعَبْدَ، وَكُلَّ نِعْمَةٍ فِيهَا حُصُولٌ مَحْبُوبٍ أَوْ دَفْعُ مَكْرُوهٍ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ
بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

[فاطر: ٣].

وَإِذَا دَخَلَتْ (مِنْ) صَارَتْ نَصًّا فِي الْعُمُومِ، كَهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ

حَاجِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] و [هود: ٥٠، ٦١،

٨٤] و [المؤمنون: ٢٣، ٣٢] وَلَهَا أَمْثَلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا.



القاعدة الخامسة:

المفردُ المضافُ يُفيدُ العمومَ، كما يُفيدُ ذلك اسمُ الجمعِ

فكما أنَّ قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها،
يشملُ كلَّ أمٍّ انتسبت إليها وإن علَّت، وكلَّ بنتٍ انتسبت إليك وإن نزلت، إلى آخرِ
المذكوراتِ...

التعاليق

وفيها أيضًا فائدةٌ ثانية: أنَّ الأمَّ تشملُ كلَّ من انتسبت إليها، والبنتُ تشملُ
كلَّ من انتسبت إليك، سواءً من قبلِ الأبِ أو الأمِّ، كذلك خالةُ الإنسانِ خالةٌ له
ولذرَّيته من بعده إلى يومِ القيامةِ، وعمَّةُ الإنسانِ عمَّةٌ له ولذرَّيته إلى يومِ القيامةِ،
ولو كان من رِضاعةٍ، فعمَّتكَ عمَّةٌ لك ولأولادِكَ وبناتِكَ وبناتِ بناتِكَ... إلخ،
وكذلك خالتُكَ.

...، فكَذلكَ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فإنَّها تشملُ
النِّعمَ الدِّنيَّةَ والدُّنيويَّةَ.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فإنَّها تعمُّ
الصَّلواتِ كُلَّها، والأنساك كُلَّها، وجميعَ ما العبدُ فيه وعليه في حياته ومماته، الجميعُ
قد أوقعته وأخلصته لله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ: أَنَّهُ يَشْمَلُ جَمِيعَ مَقَامَاتِهِ فِي مَشَاعِرِ الْحَجِّ، اتَّخِذُوهُ مَعْبَدًا.

وَأَصْرَحَ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وَهَذَا شَامِلٌ لِكُلِّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْقِيَامِ بِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ.

وَأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَشْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ مُصَلًّى﴾ [الأنعام: ٩٠] فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِجَمِيعِ مَا عَلَيْهِ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْهُدَى، الَّذِي هُوَ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ، وَالْأَخْلَاقُ الزَّائِكَةُ، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، وَالْهُدَى الْمُسْتَقِيمُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَحَدُ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْأَصْلِ الْمَعْرُوفِ: «أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَرِدْ شَرْعُنَا بِخِلَافِهِ» وَشَرْعُ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ هُوَ هُدَاهُمْ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ مَا شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ: فِعْلًا، وَتَرْكًا، اعْتِقَادًا، وَانْقِيَادًا. وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِكُونِهِ الَّذِي نَصَبَهُ لِعِبَادِهِ، كَمَا أَضَافَهُ إِلَى الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] لِكُونِهِمْ هُمُ السَّالِكُونَ لَهُ. فَصِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالصَّادِقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ: مَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنَ الْعُلُومِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالْأَوْصَافِ، وَالْأَعْمَالِ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الْعِبَادَاتِ، الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الْعِبَادَاتُ الِاعْتِقَادِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ.

كَمَا أَنَّ وَصَفَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِالْعُبُودِيَّةِ الْمُضَافَةِ إِلَى اللَّهِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَفَّى جَمِيعَ مَقَامَاتِ الْعُبُودِيَّةِ؛ حَيْثُ نَالَ أَشْرَفَ الْمَقَامَاتِ بِتَوْفِيقِهِ لِجَمِيعِ مَقَامَاتِ الْعُبُودِيَّاتِ.

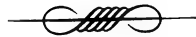
وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَقْوَمَ بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ كَانَتْ كِفَايَةُ اللَّهِ لَهُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ، وَمَا نَقَصَ مِنْهَا نَقَصٌ مِنَ الْكِفَايَةِ بِحَسَبِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] يَشْمَلُ جَمِيعَ أَوَامِرِهِ الْقَدِيرَةِ وَالْكُونِيَّةِ، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

التفصيل

المُفْرَدُ المُضَافُ يُفِيدُ الْعُمُومَ، وَالْجَمْعُ المُضَافُ أَيْضًا يُفِيدُ الْعُمُومَ، أَمَّا الْجَمْعُ فَهُوَ يُفِيدُ الْعُمُومَ بِصِغَتِهِ وَإِضَافَتِهِ، وَالْمُفْرَدُ يُفِيدُ الْعُمُومَ بِالْإِضَافَةِ فَقَطْ، فَلَوْ نَظَرْنَا إِلَيْهِ لَكُنْهِ مُفْرَدًا مَا دَلَّ عَلَى الْعُمُومِ، لَكِنْ بِالْإِضَافَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَوْ قَالَ: أَمْرَأَتِي طَالِقٌ، طُلِّقَتْ جَمِيعُ نِسَائِهِ مَا لَمْ يَرِدْ وَاحِدَةً مُعَيَّنَةً. وَلَوْ قَالَ: دَارِي وَقَفْتُ وَلَهُ ثَلَاثَةُ دُورٍ صَارَتْ جَمِيعُ الدُّورِ وَقْفًا؛ لِأَنَّ الْمُفْرَدَ المُضَافَ يَعْمُّ. وَلَوْ قَالَ: غُلَامِي حُرٌّ، عَتَقَ جَمِيعُ غُلَامَانِهِ، مَا لَمْ يَنْوِ.



القاعدة السادسة:

فِي طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ ضِدِّهِ

يَكَادُ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ لَتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، وَنَفْيِ ضِدِّهِ، وَأَكْثَرُ الْآيَاتِ يُقَرِّرُ اللَّهُ فِيهَا تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،...

التعليق

هَذَا الْبَحْثُ مِنْ أَهَمِّ الْبُحُوثِ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُوَحِّدًا فِي الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ، فِي الْقَصْدِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ، فِي الْعَمَلِ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذَيْنِ التَّوْحِيدَيْنِ: تَوْحِيدُ الْقَصْدِ وَهُوَ الْإِخْلَاصُ، وَتَوْحِيدُ الْإِتِّبَاعِ أَوْ الْعَمَلِ وَهُوَ الْإِتِّبَاعُ لِلرَّسُولِ، فَإِذَا تَحَقَّقَ التَّوْحِيدَانِ صَحَّتِ الْأَعْمَالُ، وَإِذَا اخْتَلَّ أَحَدُهُمَا فَإِنَّهُ يَخْتَلُّ مِنْ عَمَلِهِ بِقَدَرِ مَا اخْتَلَّ مِنْ تَوْحِيدِهِ.

... وَيُخْبِرُ أَنْ جَمِيعَ الرُّسُلِ تَدْعُو قَوْمَهَا إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِيَعْبُدُوهُ،...

التعليق

لِمَاذَا لَمْ يَكُنْ تَقْرِيرُ الْأَنْبِيَاءِ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؟ لِأَنَّ أَقْوَامَهُمْ كَانُوا مُقَرَّرِينَ بِهِ لَا يُنْكِرُونَهُ، وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ أَبَدًا إِلَّا مُكَابِرَةً، وَلَا هُنَاكَ أَحَدٌ

يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْكَوْنَ خَلَقَ نَفْسَهُ أَبَدًا، حَتَّى الْمَجُوسُ الْوَثْنِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ لِلْعَالَمِ خَالِقِينَ، وَمَعَ هَذَا يَرَوْنَ أَنَّ أَحَدَ الْخَالِقِينَ أَكْمَلُ مِنَ الثَّانِي.

نَعَمْ، يَرَوْنَ أَنَّ النُّورَ يَخْلُقُ الْحَيَرَ، وَالظُّلْمَةَ تَخْلُقُ الشَّرَّ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ النُّورَ إِلَهٌ خَيْرٌ نَافِعٌ، وَالظُّلْمَةَ إِلَهٌ شَرِّيرٌ. وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ أَيْضًا: إِنَّ هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَادِثَةٌ بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ بِخِلَافِ النُّورِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: مَا تَحِدُّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْعَالَمَ خُلِقَ بِدُونِ خَالِقٍ أَبَدًا، إِلَّا مُكَابِرًا.

أَمَّا تَوْحِيدُ الْأُلُوْهِيَّةِ: فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الزَّعَاوُ وَالْجِدَالُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأُمَمِهِمْ مُكَابِرَةً مِنْهُمْ، وَلَوْ رَجَعْتَ إِلَى قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ لَكَانَ قَالِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].



... وَأَنَّ الْكُتُبَ وَالرُّسُلَ اتَّفَقَتْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْأَصُولِ كُلِّهَا، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَدْنُ بِهَذَا الدِّينِ -الَّذِي هُوَ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ- فَعَمَلُهُ بَاطِلٌ ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وَيَدْعُو الْعِبَادَ إِلَى مَا تَقَرَّرَ فِي فِطْرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ مِنْ أَنَّ الْمُتَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالْمُتَفَرَّدَ بِالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ سَائِرَ الْخَلْقِ لَيْسَ عَنْدهُمْ خَلْقٌ، وَلَا نَفْعٌ، وَلَا دَفْعٌ، وَلَنْ يُغْنُوا عَنْ أَحَدٍ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَدْعُوهُمْ أَيْضًا إِلَى هَذَا الْأَصْلِ بِمَا يَتَمَدَّحُ بِهِ وَيُثْنِي عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، مِنْ تَفَرُّدِهِ بِصِفَاتِ الْعِظَمَةِ، وَالْمَجْدِ، وَالْجَلَالِ، وَالْكَمَالِ، وَأَنَّ مَنْ لَهُ هَذَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الَّذِي

لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ أَحَقُّ مَنْ أُخْلِصَتْ لَهُ الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، وَيُقَرَّرُ هَذَا التَّوْحِيدَ بِأَنَّهُ هُوَ الْحَاكِمُ وَحْدَهُ، فَلَا يَحْكُمُ غَيْرُهُ شَرْعًا وَلَا جَزَاءً ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

التعليق

هُنَا مَا قَالَ: وَلَا قَدَرًا؛ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ تَقْرِيرِ الْأُلُوْهِيَّةِ، وَإِلَّا فَلَا يَحْكُمُ غَيْرُهُ، لَا قَدَرًا وَلَا شَرْعًا وَلَا جَزَاءً، وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ.



وَتَارَةً يُقَرَّرُ هَذَا بِذِكْرِ مَحَاسِنِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الدِّينُ الْوَاحِدُ الْوَاجِبُ شَرْعًا، وَنَفْلًا، وَفِطْرَةً، عَلَى جَمِيعِ الْعَبِيدِ، وَيَذْكُرُ مَسَاوِيَّ الشُّرْكِ، وَقُبْحَهُ، وَاخْتِلَالَ عُقُولِ أَصْحَابِهِ بَعْدَ اخْتِلَالِ أَذْيَانِهِمْ، وَتَقْلِيلِ أَفْعَدَتِهِمْ، وَكُوفِهِمْ فِي شَكٍّ وَأَمْرِ مَرِيحٍ.

وَتَارَةً يَدْعُو إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَزَاءِ الْحَسَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدُّوْرِ الثَّلَاثِ، وَمَا رَتَّبَ عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَكَيْفَ كَانَتْ عَوَاقِبُهُمْ أَسْوَأَ الْعَوَاقِبِ وَشَرَّهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَكُلُّ خَيْرٍ عَاجِلٍ وَآجِلٍ فَإِنَّهُ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ، وَكُلُّ شَرٍّ عَاجِلٍ وَآجِلٍ فَإِنَّهُ مِنْ ثَمَرَاتِ ضِدِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعليق

مَعْنَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقَرَّرُ تَوْحِيدَ الْأُلُوْهِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ إِمَّا بِكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَإِمَّا بِتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّتِهِ؛ وَلِهَذَا يَسْتَدِلُّ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلْأُلُوْهِيَّةِ

بِالرُّبُوبِيَّةِ؛ إِذْ أَنَّهُ يُلْزَمُهُمْ إِذَا أَقْرَأُوا أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِجَمِيعِ
الْأُمُورِ يُلْزَمُهُمْ أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ:

إِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ، هِيَ: أَنْ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ مُسْتَلْزِمٌ لِتَوْحِيدِ
الْأُلُوْهِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ
مِنْ تَمَامِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ صِفَاتِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



القاعدة السابعة:

فِي طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

هَذَا الْأَصْلُ الْكَبِيرُ قَرَّرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ بِالطَّرِيقِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا كَمَالُ صِدْقِهِ ﷺ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ صَدَقَ الْمُرْسَلِينَ، وَدَعَا إِلَى مَا دَعَوْا إِلَيْهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ الَّتِي فِي الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا نُزُّهُوا عَنْهُ مِنَ النَّوَاقِصِ وَالْعُيُوبِ فَمُحَمَّدٌ أَوْلَاهُمْ وَأَحَقُّهُمْ بِهَذَا التَّنْزِيهِ، وَأَنَّ شَرِيعَتَهُ مُهَيِّمَةٌ عَلَى جَمِيعِ الشَّرَائِعِ، وَكِتَابُهُ مُهَيِّمٌ عَلَى كُلِّ الْكُتُبِ، فَجَمِيعُ مَحَاسِنِ الْأَذْيَانِ وَالْكِتَابِ قَدْ جَمَعَهَا هَذَا الْكِتَابُ وَهَذَا الدِّينُ، وَفَاقَ عَلَيْهَا بِمَحَاسِنَ وَأَوْصَافٍ لَمْ تُوجَدِ فِي غَيْرِهِ، وَقَرَّرَ نُبُوَّتَهُ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ، وَلَا جَالَسَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ السَّابِقَةِ، بَلْ لَمْ يُفَاجَأِ النَّاسُ حَتَّى جَاءَهُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ، الَّذِي لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ مَا أَتَوْا، وَلَا قَدَرُوا، وَلَا هُوَ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، وَأَنَّهُ مُحَالٌ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، أَوْ مُتَقَوُّلٍ، أَوْ مُتَوَهَّمٍ فِيمَا جَاءَ بِهِ.

وَأَعَادَ فِي الْقُرْآنِ وَأَبْدَى فِي هَذَا النَّوعِ، وَقَرَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُخْبِرُ بِقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مُطَوَّلَةً عَلَى الْوَجْهِ الْوَاقِعِ، الَّذِي لَا يَسْتَرِيبُ فِيهِ أَحَدٌ. ثُمَّ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ وَلَا وُصُولٌ إِلَى هَذَا إِلَّا بِمَا أَتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ، كِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى مُطَوَّلَةً: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦] ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] وَكَمَا فِي

فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَالْإِخْبَارَاتُ الْمُفَصَّلَةُ الَّتِي يُفَصِّلُهَا نَفْصِيلاً - لَمْ يَتِمَّ كُنْ أَهْلُ
الْكِتَابِ الَّذِينَ فِي وَقْتِهِ وَلَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ تَكْذِيبِهِ فِيهَا وَلَا مُعَارَضَتِهِ - مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ
عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا.

وَكَذَلِكَ نَضْرُؤُهَا بُيُوتًا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ هُمْ أَقْوَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ آيَاتِ رِسَالَتِهِ، وَأَدِلَّةِ تَوْحِيدِهِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ لِلْمُتَأَمِّلِينَ.

وَتَارَةً يُقَرِّرُهَا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، وَبِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ،
إِمَّا بِاسْمِهِ الْعَلَمِ، أَوْ بِأَوْصَافِهِ الْجَلِيلَةِ، وَأَوْصَافِ أُمَّتِهِ، وَأَوْصَافِ دِينِهِ.

وَتَارَةً يُقَرَّرُ رِسَالَتُهُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْعُيُوبِ الْمَاضِيَةِ، وَالْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، الَّتِي وَقَعَتْ فِي زَمَانِهِ، وَالَّتِي لَا تَزَالُ تَقَعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ فَلَوْلَا الْوَحْيُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ شَيْءٌ

مِنْ هَذَا، وَلَا لَهُ وَلَا لغيرِهِ طَرِيقٌ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ.

وَتَارَةً يُقَرِّرُهَا بِحِفْظِهِ إِيَّاهُ، وَعِصْمَتِهِ لَهُ مِنَ الْخَلْقِ، مَعَ تَكَالُبِ الْأَعْدَاءِ وَضَغْطِهِمْ، وَجِدْهِمُ التَّامِّ فِي الْإِيقَاعِ بِهِ بِكُلِّ مَا فِي وَسْعِهِمْ، وَاللَّهُ يُعْصِمُهُ، وَيَمْنَعُهُ، وَيَنْصُرُهُ!! وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ.

وَتَارَةً يُقَرِّرُ رِسَالَتَهُ بِذِكْرِ عَظَمَةِ مَا جَاءَ بِهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وَتَحْدَى أَعْدَاءَهُ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَعَجَزُوا، وَنَكَصُوا، وَبَاؤُوا بِالْحَقِيْبَةِ وَالْفَشْلِ!! وَهَذَا الْقُرْآنُ أَكْبَرُ أُدْلَةٍ رِسَالَتِهِ، وَأَجْلُهَا، وَأَعْمُهَا.

وَتَارَةً يُقَرِّرُ رِسَالَتَهُ بِمَا أَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ، وَمَا أَجْرَى لَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْكَرَامَاتِ الدَّالَّةِ -كُلُّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ مِنْهَا فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ؟!- عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى.

وَتَارَةً يُقَرِّرُهَا بِعَظِيمِ شَفَقَتِهِ عَلَى الْخَلْقِ، وَخُنُوهِ الْكَامِلِ عَلَى أُمَّتِهِ، وَأَنَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْوْفٌ رَحِيمٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ، وَلَنْ يُوجَدْ، أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ أَعْظَمَ شَفَقَةً، وَبِرًّا، وَإِحْسَانًا، إِلَى الْخَلْقِ مِنْهُ، وَآثَارُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ لِلنَّاظِرِينَ.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَالطَّرِيقُ قَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ مِنْ ذِكْرِهَا فِي كِتَابِهِ، وَقَرَّرَهَا بِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَمَعَانٍ مُفْصَلَةٍ، وَأَسَالِيبَ عَجِيبَةٍ، وَأُمْلِئْتُهَا تَفُوقُ الْعَدَّ وَالْإِحْصَاءَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



القاعدة الثامنة:

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرُّسُل والشرائع كلها: التَّوْحِيدُ، والرَّسَالَةُ، وأمرُ المعادِ، وحشرُ العبادِ.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرَّره بطرقٍ مُتَنَوِّعةٍ:

منها: إخباره، وهو أصدق القائلين، ومع إكثارِ الله من ذكره، فقد أقسمَ عليه في ثلاثة مواضع من كتابه.

ومنها: الإخبارُ بكمالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، ونُفُودِ مَشِيئَتِهِ، وأنه لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فإعادةُ العبادِ بعد موتهم فردٍّ من أفرادِ آثارِ قُدْرَتِهِ.

ومنها: تذكيره العبادَ بالنَّشْأَةِ الْأُولَى،...

التعابن

المؤلف - رحمه الله تعالى - يقول: إِنَّهُ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهٖ أَنْ يُقْسِمَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْإِقْسَامَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ، أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ، لَكِنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهٖ أَنْ يُقْسِمَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ:

فِي سُورَةِ يُنُسْ: ﴿وَيَسْتَنشِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وفي

سَيِّئًا: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣] وفي التَّغَابُنِ: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ﴾ [التغابن: ٧].

... وَأَنَّ الَّذِي أَوْجَدَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا لَا بُدَّ أَنْ يُعِيدَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ.
وَأَعَادَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، بِأَسَالِيبَ مُتَنَوِّعَةٍ.

وَمِنْهَا: إِحْيَاؤُهُ الْأَرْضَ الْهَامِدَةَ الْمَيِّتَةَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا سَيُحْيِي الْمَوْتَى. وَقَرَّرَ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ، فَمَتَى أَثَبَّتَ الْمُنْكَرُونَ لَذَلِكَ - وَلَنْ يَقْدِرُوا عَلَى إنْكَارِهِ - فَلَا يَشَيْءٌ يَسْتَبْعِدُونَ إِحْيَاءَهُ الْمَوْتَى؟

وَقَرَّرَ ذَلِكَ بِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَتْرَكَ خَلْقَهُ سُدًى مُهْمَلِينَ، لَا يُؤْمَرُونَ، وَلَا يُنْهَوْنَ، وَلَا يُثَابُونَ، وَلَا يُعَاقَبُونَ!! وَهَذَا طَرِيقُ قَرَرٍ بِهِ النُّبُوَّةَ وَأَمْرَ الْمَعَادِ.

وَمِمَّا قَرَّرَ بِهِ الْبَعْثَ، وَمُجَازَاةَ الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِمْ، وَالْمُسِيئِينَ بِإِسَاءَتِهِمْ: مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَيَّامِهِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْغَابِرَةِ، وَكَيْفَ نَجَّى الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ، وَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ، وَنَوَّعَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَاتِ، وَأَحْلَ بِهِنَّ الْمُثَلَّاتِ، فَهَذَا جَزَاءٌ مُعَجَّلٌ، وَنُمُودَجٌ مِنْ جَزَاءِ الْآخِرَةِ أَرَاهُ اللَّهُ عِبَادَهُ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَرَى اللَّهُ عِبَادَهُ مِنْ إِحْيَائِهِ الْأَمْوَاتِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْ صَاحِبِ الْبَقَرَةِ، وَالْأُلُوفِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَقِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَالطُّيُورِ، وَإِحْيَاءِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لِلْأَمْوَاتِ، وَغَيْرَهَا بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَوِيٌّ ذُو اقْتِدَارٍ، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا بُدَّ أَنْ يَرِدُوا دَارَ الْقَرَارِ، إِمَّا الْجَنَّةَ أَوْ النَّارَ. وَهَذِهِ الْمَعَانِي أَبْدَاهَا اللَّهُ وَأَعَادَهَا فِي مَحَالٍّ كَثِيرَةٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعاليق

وإنما أبدى الله سبحانه وتعالى وأعاد لسببين:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: قُوَّةُ الْمُنَازَعِ وَالْمُكَابِرِ وَالْمُعَانِدِ وَالْمُنْكَرِ، وَكُلُّمَا قَوِيَ الْإِنْكَارُ وَكَثُرَ الْمُعَانِدُ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُكَرَّرَ الْأَمْرُ؛ رَدْعًا لَهُ، وَإِثْبَاتًا لِلْحَقِّ.

وَالثَّانِي: لِأَهَمِّيَّةِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَنْ يَعْمَلَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ يَقُولُ: مَا تَمَّ بَعْثٌ وَلَا جَزَاءٌ وَلَا حِسَابٌ، فَهُوَ كَنْ يَعْمَلُ. مَا دَامَ يَقُولُ: أَنَا إِنْ فَعَلْتُ الْخَطِيئَةَ، أَوْ فَعَلْتُ حَسَنَةً، فَهُوَ عَلَيَّ سَوَاءٌ، فَلَنْ يَعْمَلَ؛ فَلِهَذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ لَهُ، وَالْإِقْسَامِ عَلَى ثُبُوتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِهَذَا السَّبَبِ.



القاعدة التاسعة:

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْدُّعَاءِ إِلَى سَبِيلِهِ بِالنِّبْيَةِ هِيَ أَحْسَنُ، أَيْ: بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ مُوَصَّلٍ لِلْمَقْصُودِ، مُحْصَلٍ لِلْمَطْلُوبِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَهَا اللَّهُ فِي خِطَابِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ أَحْسَنُهَا وَأَقْرَبُهَا، فَأَكْثَرَ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ بِالْوَصْفِ الَّذِي مَنْ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ؛ فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَفْعَلُوا كَذَا، وَاتْرُكُوا كَذَا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ دَعْوَةً لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الْحَثِّ عَلَى الْقِيَامِ بِلَوَازِمِ الْإِيمَانِ، وَشُرُوطِهِ، وَمُكَمَّلَاتِهِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُومُوا بِمَا يَفْتَضِيهِ إِيْمَانُكُمْ، مِنْ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَالتَّحَلُّقِ بِكُلِّ خُلُقٍ حَمِيدٍ، وَالتَّجَنُّبِ لِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْحَقِيقِيَّ هَكَذَا يَفْتَضِي؛ وَلِهَذَا أَجْمَعَ السَّلَفُ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ جَمِيعَ شَرَائِعِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَوَازِمِهِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْأَدِلَّةُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهَذَا أَحَدُهَا؛ حَيْثُ يُصَدِّرُ اللَّهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَوْ يُعَلِّقُ فِعْلَ ذَلِكَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِذَلِكَ الْمَذْكُورِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ يَدْعُوهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَفْعَلُوا كَذَا، أَوْ اتْرُكُوا كَذَا. أَوْ يُعَلِّقُ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ، يَدْعُوهُمْ بِمَنْتِهِ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْمَنَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلٌ

الْمِنِّ، أَي: يَا مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ قَوْمُوا بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ بِفِعْلِ كَذَا وَتَرْكِ كَذَا.

التعاليق

يَقُولُ رَحْمَةُ اللَّهِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الْحَثِّ عَلَى الْقِيَامِ بِلَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَشُرُوطِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَدْعُوهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ افْعَلُوا كَذَا وَاتْرَكُوا كَذَا، أَوْ يُعَلِّقُ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ، يَدْعُوهُمْ بِمِنْتِهِ عَلَيْهِمْ بِهِذِهِ الْمِنَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُ الْمِنِّ، وَمُنَادَاتُهُمْ بِـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لِأَجْلِ إِغْرَائِهِمْ وَحَثِّهِمْ عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا وَأَنْ ذَلِكَ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ. الثَّانِي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إِشْعَارٌ لَهُمْ بِمِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ، يَعْنِي: هَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي أَنْعَمْتُ بِهَا عَلَيْكُمْ، وَهِيَ الْإِيمَانُ الَّذِي نَادَيْتُكُمْ بِهِ.



فَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ: دَعْوَةٌ لَهُمْ أَنْ يُتِمُّوا إِيْمَانَهُمْ وَيُكَمِّلُوهُ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: دَعْوَةٌ لَهُمْ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ بَبَيَانِ تَفْصِيلِ هَذَا الشُّكْرِ، وَهُوَ الْإِنْقِيَادُ التَّامُّ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَتَارَةً يَدْعُو الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْحَيْرِ، وَيُنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ، بِذِكْرِ آثَارِ الْحَيْرِ، وَعَوَاقِبِهِ الْحَمِيدَةِ، الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَبِذِكْرِ آثَارِ الشَّرِّ، وَعَوَاقِبِهِ الْوَحِيمَةِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِذِكْرِ نِعَمِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَآلَائِهِ الْجَزِيلَةِ، وَأَنَّ النِّعْمَ تَقْتَضِي مِنْهُمْ الْقِيَامَ بِشُكْرِهَا، وَشُكْرُهَا هُوَ الْقِيَامُ بِحُقُوقِ الْإِيمَانِ.

وتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِالرَّغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَبِذِكْرِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِينَ مِنَ الثَّوَابِ، وَمَا لَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ.

وتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِذِكْرِ مَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَمَا لَهُ مِنَ الْحَقِّ الْعَظِيمِ عَلَى عِبَادِهِ، وَأَنَّ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِعُبُودِيَّتِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيَتَعَبَّدُوا لَهُ وَيَدْعُوهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ؛ فَالْعِبَادَاتُ كُلُّهَا تَعْظِيمٌ وَتَكْبِيرٌ لِلَّهِ، وَإِجْلَالٌ وَإِكْرَامٌ، وَتَوَدُّدٌ إِلَيْهِ، وَتَقَرُّبٌ مِنْهُ.

وتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ يَتَّخِذُوهُ وَحْدَهُ وَلِيًّا، وَمَلَجَأً، وَمَلَاذًا، وَمَعَاذًا، وَمَفْزَعًا إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا هُوَ أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَصَلَاحِهِ وَفَلَاحِهِ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ وَتَوَلَّيْهِ الْخَاصَّ تَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ الَّذِي يُرِيدُ لَهُ الشَّرَّ وَالشَّقَاءَ، وَيُمْنِيهِ وَيَعْرِهُ حَتَّى يُفَوِّتَهُ الْمَنَافِعَ وَالْمَصَالِحَ، وَيُوقِعَهُ فِي الْمَهَالِكِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَبْسُوطٌ فِي الْقُرْآنِ بِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

وتَارَةً يُخَبِّرُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الْغَفْلَةِ، وَالْإِعْرَاضِ، وَالْأَذْيَانِ الْمُبَدَّلَةِ؛ لئَلَّا يَلْحَقَهُمْ مِنَ اللَّوْمِ مَا لَحِقَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥] ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.



القاعدة العاشرة:

فِي الطَّرِيقِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ لِدَعْوَةِ الْكُفَّارِ
عَلَى اخْتِلَافٍ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ

يَدْعُوهُمْ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا يَصِفُهُ مِنْ مَحَاسِنِ شَرِّهِ
وَدِينِهِ، وَمَا يَذْكُرُهُ مِنْ بَرَاهِينِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَهْتَدِيَ مَنْ قَصَدَهُ الْحَقُّ وَالْإِنصَافُ،
وَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى الْمَعَانِدِ. وَهَذِهِ أَعْظَمُ طَرِيقٍ يُدْعَى بِهَا جَمِيعُ الْمُخَالَفِينَ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِ،
فَإِنَّ مَحَاسِنَ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَمَحَاسِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَيَاتِهِ، وَبَرَاهِينَهُ، فِيهَا كِفَايَةٌ تَامَّةٌ
لِلدَّعْوَةِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ إِبْطَالِ شُبُهِهِمْ، وَمَا يَحْتَجُّونَ بِهِ، فَإِنَّ الْحَقَّ إِذَا اتَّضَحَ عُلِمَ
أَنَّ مَا خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ ضَلَالٌ.

وَيَدْعُوهُمْ بِمَا يُخَوِّفُهُمْ مِنْ أَخَذَاتِ الْأُمَمِ، وَعُقُوبَاتِ الدُّنْيَا، وَعُقُوبَاتِ الْآخِرَةِ،
وَبِمَا فِي الْأَذْيَانِ الْبَاطِلَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ، وَالْعَوَاقِبِ الْحَبِيثَةِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ طَاعَةِ
رُؤَسَاءِ الشَّرِّ، وَدُعَاةِ النَّارِ، وَأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَنْقَطَعَ نَفُوسُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ حَسَرَاتٍ،
وَأَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ أَطَاعُوا الرَّسُولَ وَلَمْ يُطِيعُوا السَّادَةَ وَالرُّؤَسَاءَ، وَأَنَّ مَوَدَّتَهُمْ
وَصِدَاقَتَهُمْ سَتَتَبَدَّلُ بَغَضًا وَعَدَاوَةً.

وَيَدْعُوهُمْ أَيْضًا بَنَحْوِ مَا يَدْعُو الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ آيَاتِهِ وَنِعَمِهِ، وَأَنَّ الْمُتَفَرِّدَ بِالْحَلْقِ
وَالْتَدْبِيرِ وَالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ هُوَ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتُهُ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ،
وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ.

وَيَدْعُوهُمْ أَيْضًا بِشَرْحِ مَا فِي أَدْيَانِهِمُ الْبَاطِلَةَ، وَمَا اخْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْقُبْحِ،
وَالْمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِيَتَبَيَّنَ وَيَتَّضِحَ مَا يَجِبُ إِثَارُهُ وَمَا يَتَعَيَّنُ اخْتِيَارُهُ.
وَيَدْعُوهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا وَصَلَتْ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ
الظَّاهِرَةِ تَوَعَّدَهُمُ بِالْعُقُوبَاتِ الصَّوَارِمِ، وَبَيَّنَ لِلنَّاسِ طَرِيقَتَهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَأَنَّهُمْ
لَمْ يُخَالِفُوا الدِّينَ جَهْلًا وَضَلَالًا، أَوْ لِقِيَامِ شُبْهَةٍ أَوْجَبَتْ لَهُمُ التَّوَقُّفَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ
جُحُودٌ وَمُكَابَرَةٌ وَعِنَادٌ، وَبَيَّنَّ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْبَابَ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ مِنْ مُتَابَعَةِ الْهُدَى،
وَأَنَّهَا رِيَاسَاتٌ وَأَغْرَاضٌ نَفْسِيَّةٌ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا أَثَرُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ،
وُخِّتَمَ عَلَيْهَا، وَسُدَّ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْهُدَى؛ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ، وَتَوَلَّيَهُمْ
لِلشَّيْطَانِ، وَتَخَلَّيَهُمْ مِنْ وَلَايَةِ الرَّحْمَنِ، وَأَنَّهُ وَلَاهُمْ مَا تَوَلَّوْا لِأَنفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي
الْجَزِئِلَةُ مَبْسُوطَةٌ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، فَتَأَمَّلْ وَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ تَجِدْهَا وَاضِحَةً
جَلِيلَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



القاعدة الحادية عشرة:

كَمَا أَنَّ الْمُفَسِّرَ لِلْقُرْآنِ يُرَاعِي مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْفَاطَةُ مُطَابَقَةً،
وَمَا دَخَلَ فِي ضَمْنِهَا، فَعَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ لَوَازِمَ تِلْكَ الْمَعَانِي،
وَمَا تَسْتَدْعِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَمْ يُصَرِّحِ اللَّفْظُ بِذِكْرِهَا

التعليق

فَتَحَ لَنَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَبْوَابَ الدَّلَالَةِ، وَأَتَمَّا ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:
دَلَالَةٌ مُطَابَقَةٍ، وَدَلَالَةٌ تَضْمُنٍ، وَدَلَالَةٌ التَّزَامِ. فَدَلَالَةُ الْمُطَابَقَةِ هِيَ: دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى
بَجْمَعِ مَعْنَاهُ. وَدَلَالَةُ التَّضْمُنِ: دَلَالَتُهُ عَلَى جُزْءٍ مِنْ مَعْنَاهُ. وَدَلَالَةُ الْإِتِّزَامِ: دَلَالَتُهُ عَلَى
لَازِمِ مَعْنَاهُ، وَدَلَالَةُ اللَّازِمِ عَلَى أَمْرٍ خَارِجٍ.

مِثَالُ ذَلِكَ إِذَا قُلْتَ: هَذِهِ دَارٌ، فَدَلَالَةُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى مَا فِي الدَّارِ مِنَ الْغُرَفِ
وَالْحَجَرِ وَالْفَسَحَاتِ وَالْحَمَّامَاتِ وَمَا أَشَبَّهَهَا دَلَالَةٌ مُطَابَقَةٍ، وَدَلَالَتُهَا عَلَى كُلِّ غُرْفَةٍ
بِمُفْرَدِهَا دَلَالَةٌ تَضْمُنٍ، وَدَلَالَتُهَا عَلَى أَنَّ لِهَذِهِ الدَّارِ بَانِيًا دَلَالَةُ الْإِتِّزَامِ.

هَذِهِ أَنْوَاعُ الدَّلَالَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ إِذَا فَتَحَ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةَ
هَذِهِ الدَّلَالَاتِ فَإِنَّهُ يُحْصِلُ عِلْمًا كَثِيرًا بِأَدَلَّةٍ قَلِيلَةٍ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَسْتَنْبِطُ
مِنَ الْآيَةِ أَحْكَامًا كَثِيرَةً، وَآخَرِينَ لَا يَسْتَنْبِطُونَ مِنْهَا إِلَّا بَعْضَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ، كُلُّ
ذَلِكَ بِمَا يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْفَهْمِ فِي أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ.

وهذه القاعدة من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد؛ فإن الذي أنزله هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تحتوي عليه القلوب، وما تضمنه المعاني، وما يتبعها ويتقدمها وتتوقف هي عليه؛ ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهما جيدا ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يرتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، ولا تزال تفكر في هذه الأمور حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة؛ فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع على الحق حق. فمن وفق لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقا ونورا، انفتحت له العلوم النافعة، والمعارف الجليلة.

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسمائه الحسنى (الرحمن الرحيم) فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمة، وسعة رحمته، فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة أحد هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يحل أحد من رحمته طرفة عين، عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته؛ لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدلت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة؛ ولهذا يعلل تعالى كثيرا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه؛ لأنها من مقتضاه وأثره.

ومنها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] فَإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ كُلِّهَا إِلَى
أَهْلِهَا اسْتَدْلَلْتَ بِذَلِكَ عَلَىٰ وَجُوبِ حِفْظِ الْأَمَانَاتِ، وَعَدَمِ إِضَاعَتِهَا وَالتَّقْرِيطِ
والتَّعَدِّي فِيهَا، وَأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الْأَدَاءُ لِأَهْلِهَا إِلَّا بِذَلِكَ...

التعاليق

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ هَذَا أَمْرٌ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ
يَسْتَلْزِمُ أَنْ نَحْفَظَهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الْأَدَاءُ إِلَّا بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا لَوْ أُعْطِيتَنِي أَمَانَةٌ وَوَضَعْتُهَا
عَلَى الْعَتَبَةِ عِنْدَ الْبَابِ، فَإِنِّي مَا أَدَيْتُهَا طَبْعًا.

فَإِنْ قِيلَ: مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ وَجُوبِ حِفْظِ الْأَمَانَةِ فِي حِرْزِ مِثْلِهَا وَعَدَمِ التَّعَدِّي
فِيهَا وَعَدَمِ التَّقْرِيطِ؟

قُلْنَا: الدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ لِأَنَّهُ
لَا يَتِمُّ الْأَدَاءُ إِلَّا بِذَلِكَ. وَهَذِهِ دَلَالَةُ التِّزَامِ.



... وَإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ اسْتَدْلَلْتَ بِذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ
كُلَّ حَاكِمٍ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْأُمُورِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَا يَحْكُمُ بِهِ، فَإِنْ
كَانَ حَاكِمًا عَامًّا فَلَا بُدَّ أَنْ يُحْصَلَ مِنَ الْعِلْمِ مَا يُؤْهِلُهُ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ حَاكِمًا بَعْضِ
الْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ كَالشَّقَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ - حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ نَبْعَثَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا
مِنْ أَهْلِهَا - فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِهِذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَحْكُمَ بِهَا، وَيَعْرِفَ الطَّرِيقَ
الَّتِي تُوصِلُهُ إِلَيْهَا.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد؛ فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة، ومن المعلوم أن أمثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفته وعلمه، فكيف يتصور أن يمثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه، أو يدع الأمر الذي يعرفه؟!

وكذلك أمره لعباده أن يأمرُوا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر؛ ليأمر بهذا، وينهى عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب؛ فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبداً.

التعاليق

كل هذه الأمثلة التزام، إذا أمرنا الله بالصلاة فهو أمر بها، وبما لا يتم إلا بها. إذا أمرنا بالزكاة، فهو أمر بها وبما لا يتم إلا بها، فهذا الرجل الذي عنده مال يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة، والذي ما عنده مال لا يجب عليه إلا إذا كان من باب فروض الكفاية.

والإنسان الذي يجب عليه الحج يجب عليه أن يتعلم أحكام الحج بخلاف الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن أن يأمر وينهى إلا وهو عالم بالحكم الشرعي، وعالم بالمعروف وعالم بالمنكر.

وعلى كل حال: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهذه القاعدة الفقهية الأصولية هي من هذا الباب، دلالتها دلالة التزام، فهو وجوب التزام.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِالْجِهَادِ، وَالْحَثُّ عَلَيْهِ، مِنْ لَازِمِ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِكُلِّ مَا لَا يَتِمُّ الْجِهَادُ إِلَّا بِهِ، مِنْ تَعَلُّمِ الرَّمْيِ، وَالرُّكُوبِ، وَعَمَلِ آلَاتِهِ وَصِنَاعَاتِهِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ دَاخِلٌ دُخُولَ مُطَابَقَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فَإِنَّهَا تَتَنَاوَلُ كُلَّ قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، وَبَدَنِيَّةٍ، وَسِيَاسِيَّةٍ، وَنَحْوَهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ اسْتَشْهَدَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى تَوْحِيدِهِ، وَقَرَنَ شَهَادَتَهُمْ بِشَهَادَتِهِ وَشَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَدَالَتِهِمْ، وَأَتَمُّ حُجَّةٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنْ كَذَّبَ، بِمَنْزِلَةِ آيَاتِهِ وَأَدِلَّتِهِ.

التعاليق

وهذا واضح؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ فِيمَا عِلِمُوا. أَمَّا الْجَاهِلُ فَلَا؛ وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْهَدَ إِلَّا بِمَا عِلِمَ، فَلَا يَشْهَدُ بِمَا ظَنَّ، إِلَّا أَنْ يَشْهَدَ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ، فَيَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ أَتَى مَا تَدُلُّ الْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ كَذَا.

الْحَاصِلُ أَنَّ الشَّهَادَةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ عِلْمٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] أَي: شَهِدُوا. أَمَّا الْجَاهِلُ فَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْهَدَ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ تَسْتَفْتِيَ إِلَّا مَنْ تَعَلَّمَ أَنَّهُ عَالِمٌ، أَوْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ عَالِمٌ، فَإِذَا أَتَيْتَ بَلَدًا لَا تَعْرِفُ أَهْلَهَا وَلَا تَعْرِفُ مَنْ هُوَ الْعَالِمُ فِيهَا ثُمَّ رَأَيْتَ رَجُلًا يَأْتِيهِ النَّاسُ وَيَسْتَفْتُونَهُ وَهُوَ يُفْتِيهِمْ، غَلَبَ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ عَالِمٌ. فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ.



وَمِنْ ذَلِكَ: سُؤَالُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ رَبِّهِمْ أَنْ يَجْعَلَهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا يَقْتَضِي سُؤَالَهُمُ اللَّهَ جَمِيعَ مَا تَتِمُّ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ بِهِ، مِنْ عُلُومٍ، وَمَعَارِفَ جَلِيلَةٍ، وَأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَأَخْلَاقٍ فَاضِلَةٍ؛ لِأَنَّ سُؤَالَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ شَيْئًا سُؤَالٌ لَهُ وَلَهَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، كَمَا إِذَا سَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَاسْتَعَاذَ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّهُ يَقْتَضِي سُؤَالَ كُلِّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى هَذِهِ وَيُبْعِدُ مِنْ هَذِهِ.

التعاليق

وَمِثْلُهُ أَيْضًا: لَوْ قَالَ الطَّالِبُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النِّجَاحَ، يَتَضَمَّنُ وَسَائِلَ الْمَذَاكِرَةِ وَالْمَرَاجَعَةِ.



وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَأَثْنَى عَلَى الْمُصْلِحِينَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، فَيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ فِيهِ صَلاَحٌ لِلْعِبَادِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَكُلَّ أَمْرٍ يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَتَرْغِيهِ، وَأَنَّ كُلَّ فَسَادٍ وَضَرَرٍ وَشَرٍّ، فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي نَهْيِهِ وَالتَّحْذِيرِ عَنْهُ، وَأَنَّهُ يَجِبُ مُحْصِيلُ كُلِّ مَا يَعُودُ إِلَى الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَةِ الْعَبْدِ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] و﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] يَقْتَضِي الْأَمْرَ بِكُلِّ مَا لَا تَتِمُّ الْبِشَارَةُ إِلَّا بِهِ، وَالْأَمْرَ بِكُلِّ مَا فِيهِ حَثٌّ وَتَحْرِيطٌ، وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَّبِعُهُ مِنَ الاسْتِعْدَادِ وَالتَّمَرُّنِ عَلَى أَسْبَابِ الشَّجَاعَةِ وَالسَّعْيِ فِي الْقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ مِنَ التَّأَلُّفِ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِتَبْلِيغِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّذْكِيرِ بِهَا وَتَعْلِيمِهَا، فَإِنَّ كُلَّ أَمْرٍ يَخْصُلُ بِهِ التَّبْلِيغُ وَإِصَالُ الْأَحْكَامِ إِلَى الْمُكَلَّفِينَ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ إِذَا ثَبَّتَ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، وَوُجِدَتْ أَسْبَابُهَا، وَكَانَتْ تَخْفَى عَادَةً عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ، كَثُبُوتِ الْأَهْلَةِ -بِالصَّيَامِ وَالْفِطْرِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِهِ- إِبْلَاغُهَا بِالْأَصْوَاتِ، وَالرَّمْيِ، وَإِبْلَاغُهَا بِمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، كَالْبَرْقِيَّاتِ وَنَحْوِهَا، وَكَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا أَعَانَ عَلَى إِصَالِ الْأَصْوَاتِ إِلَى السَّامِعِينَ مِنَ الْآلَاتِ الْحَادِثَةِ، فَحُدُوثُهَا لَا يَفْتَضِي مَنَعَهَا، ...

التعليق

شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ دَقِيقٌ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ، وَلَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ الْمُخْتَرَعَاتِ الْعَصْرِيَّةِ، بَيْنَمَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ فِي وَقْتِهِ يُنْكِرُونَ أَنْ تُثَبَّتَ الْأَهْلَةُ بِالْإِذَاعَةِ أَوْ بِالْبَرْقِيَّاتِ أَوْ مَا أَشَبَّهَ ذَلِكَ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِنَّ هَذِهِ الْبَرْقِيَّاتِ سِحْرٌ أَوْ شَيَاطِينُ تَنْقُلُ الصَّوْتَ. لَكِنِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَيْسَ عَلَى هَذَا.

وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْإِذَاعَةُ، وَقَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْمَدَافِعُ يَمْشُونَ بِالْأَسْوَاقِ وَيَرْمُونَ بِالْبَنَادِقِ، فَهَذِهِ وَسَائِلُ لَا يُقَالُ عَنْهَا بِدْعَةٌ، كَمَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فَقَالُوا: هَذِهِ الْوَسِيلَةُ لَيْسَتْ مَوْجُودَةً فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. وَقَالُوا: وَسِيلَةُ حِفْظِ الْعِلْمِ بِالْأَشْرَاطِ لَيْسَتْ مَوْجُودَةً فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَهِيَ إِذَنْ بِدْعَةٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(١) فَتَسْجِيْلَاتُكُمْ وَأَشْرَاطُهَا كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ لِأَنَّهَا بِدْعَةٌ!

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، والنسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨) واللفظ له، من حديث جابر رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ وَسِيلَةٌ، أَنَا لَمْ أَتَعَبَّدَ لِلَّهِ بِأَنِّي أَضْعُهَا فِي الْمُسَجَّلِ
وَأَجْعَلُهَا عِبَادَةً، إِنَّمَا هِيَ وَسِيلَةٌ، كَالْأَقْلَامِ مِنْ عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ فَقَدْ كَانُوا يَكْتُبُونَ
بِالْعِيدَانِ وَالْقَصَبِ وَمَا أَشْبَهَهَا. أَمَّا الْآنَ: فَاخْتَلَفَتِ الْأَحْوَالُ. وَكَذَلِكَ الْوَرَقُ كَانَ
نَادِرًا، فَكَانُوا يَكْتُبُونَ عَلَى الْعِظَامِ وَالْحَصَا وَاللِّخَافِ وَمَا أَشْبَهَهَا.

فَالْمِهُمُّ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَسِيلَةِ وَبَيْنَ الْقَصْدِ أَوِ الْغَايَةِ، فَوَسَائِلُ
الْمَشْرُوعِ مَشْرُوعَةٌ؛ فَالْبِدْعَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيمَا قُصِدَ لِدَاتِهِ. أَمَّا مَا كَانَ وَسِيلَةً لْغَيْرِهِ
فَلَا.

وَالْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ، وَلَيْسَ قَوْلُنَا: إِنَّ الْوَسَائِلَ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ
مِثْلَ قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ: إِنَّ الْغَايَةَ تُبَرِّرُ الْوَسِيلَةَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَخِيرَةَ مَقُولَةٌ خَبِيثَةٌ،
اسْتَحْدَمَهَا الشُّيُوعِيُّونَ لِأَغْرَاضِهِمْ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ غَايَتِهِمْ حَمِيدَةٌ، فِيهِ تَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِّ،
لَكِنْ قَدْ تَوَدَّى إِلَى بَاطِلٍ.

أَنَا مَا أَسْتَمِعُ لِلْمُسَجَّلِ لِلتَّعَبُّدِ بِالِاسْتِمَاعِ، إِنَّمَا أَسْتَمِعُ لِلْمُسَجَّلِ لَضَبْطِ الْقُرْآنِ
فَقَطْ. لَوْ قَالَ أَحَدٌ: بَدَلْ أَنْ نَجْعَلَ وَاحِدًا يَقْرَأُ وَنَسْتَمِعُ، نَجْعَلَ هَذَا الْمُسَجَّلَ يَقْرَأُ
وَنَسْتَمِعُ! قَدْ نَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمُسَجَّلَ مَا يَنَالُ الْأَجْرَ، وَإِلَّا لَقُلْنَا:
إِنَّهُ يَصْلُحُ أَنْ نَجْعَلَهُ عِنْدَ الْمَيَكْرُوفُونَ وَيُؤَذَّنَ بَدَلِ الْمُؤَذِّنِ، كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ،
وَسَمِعْتُ أَنَّهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَجْعَلُونَ مُسَجَّلًا عَلَى السَّاعَةِ، فَإِذَا وَصَلَتِ
السَّاعَةُ إِلَى الْوَقْتِ انْفَتَحَ الْمُسَجَّلُ بِالْأَذَانِ، وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ الْأَذَانَ عِبَادَةٌ، وَهَذَا
الْمُسَجَّلُ جَمَادٌ لَا يَتَعَبَّدُ.

لَكِنْ الْاسْتِمَاعُ لِلتَّلَاوَةِ مِنَ الْمُسَجَّلِ لَا شَيْءَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ لِلتَّلَاوَةِ

وَالضَّبْطُ فَقَطْ، وَكَمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي وَرَقِ الْمُصْحَفِ، كَذَلِكَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأَجْرُ بِمَا يَقُومُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخُشُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَتَدَبُّرِ الْمَعْنَى كَمَا لَوْ سَمِعَ أَحَدًا يَتْلُو.

فَالْمُسَجَّلُ لَا يُسْتَمِعُ إِلَيْهِ تَعَبُّدًا، وَمَا يَحْصُلُ فِي قَلْبِهِ مِنْ خُشُوعٍ وَتَدَبُّرٍ يُؤْجِرُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ. لَكِنْ لَيْسَ كَمَا لَوْ قَرَأَ عِنْدَهُ إِنْسَانٌ، أَوْ اتَّفَقَ وَإِيَّاهُ عَلَى أَنْ يَقْرَأَ؛ لِأَنَّ الْقَارِئَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَالْمُسْتَمِعُ كَذَلِكَ.



... فَكُلُّ أَمْرٍ يَنْفَعُ النَّاسَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَمْنَعُهُ، بَلْ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِمَنْ أَحْسَنَ الْاِسْتِدْلَالَ بِهِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَأَكْبَرُ بَرَاهِينِهِ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ عِلْمٌ صَحِيحٌ يَنْقُصُ شَيْئًا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَرِدُ بِمَا تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ جُمْلَةً أَوْ تَفْصِيلًا، أَوْ يَرِدُ بِمَا لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِ الْعُقُولُ. وَأَمَّا وُرُودُهُ بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ وَمَنْعُهُ، فَهَذَا مُحَالٌ، وَالْحِسُّ وَالتَّجَرِبَةُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مَهْمَا تَوَسَّعَتِ الْاِخْتِرَاعَاتُ، وَعَظُمَتِ الصَّنَاعَاتُ، وَتَوَسَّعَتِ الْمَعَارِفُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَظَهَرَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَهُ قَبْلَ ذَلِكَ - فَإِنَّ الْقُرْآنَ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - لَا يُخْبِرُ بِأَحَالَتِهِ، بَلْ تَجِدُ بَعْضَ الْآيَاتِ فِيهَا إِجْمَالًا أَوْ إِشَارَةً تَدُلُّ عَلَيْهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

التعليق

مِثْلُ الْكَهْرَبَاءِ، فَقَدْ تَكَلَّمَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْكَهْرَبَاءِ وَآثَارِهَا النَّافِعَةِ.

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ دَلَالََةَ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: الْمُطَابَقَةُ
وَالْتَّضَمُّنُ وَالْإِتْرَامُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِأَنْوَاعِ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ حَتَّى يُفْتَحَ
لَهُ بِذَلِكَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعِلْمِ، بَلْ أَبْوَابٌ، وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي هَذَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا،
فَتَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا تَكَلَّمَ عَلَى حَدِيثٍ أَوْ عَلَى آيَةٍ؛ لَيْسَتْ تَنْبِطُ مِنْهَا الْأَحْكَامَ أَتَى
بِفَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، بَيْنَمَا غَيْرُهُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِقَلِيلٍ، وَالْمُؤَلِّفُ ذَكَرَ عِدَّةَ أَمْثَلَةٍ فِي هَذَا، خُصُوصًا
فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدَلَالََةِ الْإِتْرَامِ.



القاعدة الثانية عشرة:

الآياتُ القرآنيَّةُ الَّتِي ظَاهَرُهَا التَّضَادُّ يَجِبُ حَمْلُ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا عَلَى حَالٍ
بِحَسَبِ مَا يَلِيْقُ وَيُنَاسِبُ الْمَقَامَ

وهذا في مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ:

منها: الإخْبَارُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
وَفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُمْ يَنْطِقُونَ، وَيُحَاجُّونَ، وَيَعْتَذِرُونَ، وَيَعْتَرِفُونَ. فَحَمْلُ كَلَامِهِمْ
وَنُطْقِهِمْ: أَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْتَذِرُونَ، وَقَدْ يُنْكِرُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ
الْكُفْرِ، وَيُقْسِمُونَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ إِذَا خُتِمَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، وَرَأَوْا أَنَّ الْكَذِبَ غَيْرُ مُفِيدٍ لَهُمْ، أُخْرِسُوا فَلَمْ يَنْطِقُوا.

وكذلك الإخْبَارُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ أَنَّهُ
أَثَبَ الْكَلَامَ لَهُمْ مَعَهُ؛ فَالْتَّفِيُّ وَقَعَ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي يَسْرُهُمْ وَيَجْعَلُ لَهُمْ نَوْعَ اعْتِبَارٍ،
وكذلك النَّظَرُ، وَالْإِثْبَاتُ وَقَعَ عَلَى الْكَلَامِ الْوَاقِعِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِيخِ
لَهُمْ وَالتَّقْرِيعِ. فَالْتَّفِيُّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سَاخِطٌ عَلَيْهِمْ، غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُمْ، وَالْإِثْبَاتُ
يُوضِّحُ أَحْوَالَهُمْ، وَيُبَيِّنُ لِلْعِبَادِ كِمَالَ عَدْلِ اللَّهِ بِهِمْ؛ إِذْ وَضَعَ الْعُقُوبَةَ مَوْضِعَهَا.

وَنَظِيرُ ذَلِكَ أَنَّ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَخْبَرَ أَنَّهُ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا
جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ: ﴿أَتَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢] وَ﴿مَاذَا
أَجَبْتُمْ أَلْمُسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وَيَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ كُلِّهَا.

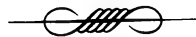
فالسُّؤالُ الْمَنفِيُّ: هُوَ سُؤالُ الاستِغْلَامِ والاستِفْهَامِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَجْهُولَةِ، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى سُؤْلِهِمْ مَعَ كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ، واطِّلاَعِهِ عَلَى ظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ، وَجَلِيلِ أُمُورِهِمْ وَدَقِيقِهَا. وَالسُّؤالُ الْمُثَبَّتُ واقِعٌ عَلَى تَقْرِيرِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَتَوْبِيخِهِمْ، وإِظْهَارِ أَنَّ اللَّهَ حَكَمَ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّهُ لَا أَنْسَابَ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي بَعْضِهَا أَثْبَتَ لَهُمْ ذَلِكَ. فَالْمُثَبَّتُ: هُوَ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ وَالنَّسَبُ الْحَاصِلُ بَيْنَ النَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿[عس: ٣٤-٣٥] إِلَى آخِرِهَا. وَالْمَنفِيُّ: هُوَ الْإِنْتِفَاعُ بِهَا؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ يَدَّعُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٨٨-٨٩].

وَنظِيرُ ذَلِكَ: الْإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ النَّسَبَ نَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا فِي الْحَاقِ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ لِآبَائِهِمْ فِي الدَّرَجَاتِ، وَإِنْ لَمْ يَلْعَنُوا مَنَزَلَتَهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ لِأَهْلِ الْجَنَّاتِ وَالْدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، فَهَذَا لَمَّا اشْتَرَكُوا فِي الْإِيمَانِ وَأَصْلِ الصَّلَاحِ زَادَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَجُورِ السَّابِقِينَ لَهُمْ شَيْئًا.

التعليق

وبذلك تَظْهَرُ الْحِكْمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ يُرْفَعُونَ قَلِيلًا، وَهَؤُلَاءِ يُنْزَلُونَ، فَيَبْنِي اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُنْزَلُ، بَلْ يُرْفَعُ النَّازِلُ، وَلَا يُنْزَلُ الْمُرْتَفِعُ.



وَمِنْ ذَلِكَ الشَّفَاعَةُ، فَإِنَّهُ أُثْبِتَهَا فِي مَوَاضِعَ، وَنَفَاهَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَيَّدَهَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ بِإِذْنِهِ، وَلَمَّا ارْتَضَى مِنْ خَلْقِهِ، فَتَعَيَّنَ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ، وَأَنَّهُ حَيْثُ نُفِيتْ فِيهَا الشَّفَاعَةُ الَّتِي بغيرِ إِذْنِهِ، وَلِغَيْرِ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، وَحَيْثُ أُثْبِتَتْ فِيهَا الشَّفَاعَةُ الَّتِي بِإِذْنِهِ، لَمَّا رَضِيَهُ وَأَذِنَ فِيهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَالْفَاسِقِينَ، وَالظَّالِمِينَ وَنَحْوِهِمْ، وَفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُ يَهْدِيهِمْ وَيُوقِّفُهُمْ، فَتَعَيَّنَ حَمْلُ الْمُنْفِيَّاتِ عَلَى مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ۖ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] وَحَمْلُ الْمُثْبِتَاتِ عَلَى مَنْ لَمْ تَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَأَنَّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَعَلَى عَرْشِهِ، وَفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُ مَعَ الْعِبَادِ أَيْنَمَا كَانُوا، وَأَنَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَالصَّادِقِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ وَنَحْوِهِمْ. فَعُلُوُّهُ تَعَالَى أَمْرٌ ثَابِتٌ لَهُ، وَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَدُنُوُّهُ وَمَعِيَّتُهُ لِعِبَادِهِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

فَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مَعَهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَمَا يُتَوَهَّمُ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ.

وَأَمَّا تَخْصِصُ الْمَعِيَّةِ بِالْمُحْسِنِينَ وَنَحْوِهِمْ، فَهِيَ مَعِيَّةٌ أَحْصَى مِنَ الْمَعِيَّةِ الْعَامَّةِ، فَإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ مَحَبَّتَهُمْ، وَتَوْفِيقَهُمْ، وَكَلَاءَتَهُمْ، وَإِعْلَانَتَهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، فَحَيْثُ وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ فَهِيَ مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَحَيْثُ وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ التَّحْذِيرِ

والتَّزْغِيبِ وَالتَّزْهِيْبِ فَهِيَ مِنَ النَّوعِ الْأَوَّلِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: النَّهْيُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ، وَعَنْ مَوَدَّتِهِمْ
وَالاتِّصَالِ بِهِمْ، وَفِي بَعْضِهَا: الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْهُمْ،
وَمُصَاحَبَتِهِ بِالْمَعْرُوفِ؛ كَالْوَالِدَيْنِ وَنَحْوِهِمْ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْعَامَّاتُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ
قَدْ وَضَحَهَا اللَّهُ غَايَةَ التَّوْضِيحِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَلَمْ يَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ
عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَى إخراجكم أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴿الآيَةُ
[المتحنة: ٨-٩] فَالْتَّوَلَّى عَلَى التَّوَلَّى وَالْمَحَبَّةُ لِأَجْلِ الدِّينِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ
وَالْبِرِّ وَاقِعٌ عَلَى الْإِحْسَانِ؛ لِأَجْلِ الْقَرَابَةِ، أَوْ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى وَجْهِ لَا يُحِلُّ بَيْنَ
الْإِنْسَانِ.

التفصيل

الْفَرْقُ بَيْنَ الْبِرِّ وَالْإِقْسَاطِ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي
الدِّينِ وَلَمْ يَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا﴾ أَنَّ الْبِرَّ: زِيَادَةُ فِي الْفَضْلِ، وَالْإِقْسَاطُ:
الْعَدْلُ. فَمَثَلًا: إِذَا أَحْسَنُوا إِلَيْنَا نُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ حَقٌّ نُحْسِنُ إِلَيْهِمْ.
أَمَّا الثَّانِي: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا
عَلَى إخراجكم أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَنْ تَبَرُّوهُمْ، حَتَّى هُوَ لَا يَكُونُ فِي الْإِحْسَانِ
إِلَيْهِمْ خَيْرٌ؛ لَكِنَّهُمْ لَيْسُوا كَالْأَوَّلِينَ. وَالْمُوَالَاةُ وَالْمُوَادَّةُ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ مُحَرَّمَةٌ. وَكَذَلِكَ
الْفَرْقُ الضَّالَّةُ إِذَا كَانَتْ بِدَعْتِهِمْ تُكْفِّرُهُمْ، فَلَا تَجُوزُ مُوَالَاةُهُمْ.



وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ أَخْبَرَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَرْضَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا؛ فَهَذِهِ الْآيَةُ تُفَسِّرُ الْمُرَادَ، وَأَنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَى الْأَرْضَ، فَأَوْدَعَ فِيهَا جَمِيعَ مَصَالِحِهَا الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ: تَارَةً يُخْبِرُ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَتَارَةً يُخْبِرُ بِتَعَلُّقِ عِلْمِهِ بِبَعْضِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بِبَعْضِ أَحْوَالِهِمْ، وَهَذَا الْأَخِيرُ فِيهِ زِيَادَةٌ مَعْنَى، وَهُوَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمُجَازَاةِ عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ، سَوَاءً كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَيَتَضَمَّنُ مَعَ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ: التَّرْغِيبَ وَالتَّرْهِيبَ.

وَمِنْ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِالْجِهَادِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْأَمْرُ بِكَفِّ الْأَيْدِي وَالْإِخْلَادِ إِلَى السُّكُونِ، فَهَذِهِ حِينَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَيْسَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَى الْجِهَادِ بِالْيَدِ، وَالْآيَاتُ الْأُخْرَى حِينَ قَوُوا وَصَارَ ذَلِكَ عَيْنَ الْمَصْلَحَةِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ إِلَى قَمْعِ الْأَعْدَاءِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ تَارَةً يُضَيِّفُ الْأَشْيَاءَ إِلَى أَسْبَابِهَا الَّتِي وَقَعَتْ وَتَقَعُ بِهَا، وَتَارَةً يُضَيِّفُهَا إِلَى عُمُومِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ وَاقِعَةٌ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ؛ فَيُقِيدُ مَجْمُوعَ الْأُمُورِ: إِثْبَاتَ التَّوْحِيدِ، وَتَفَرُّدَ الْبَارِي بِوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِئَتِهِ، وَإِثْبَاتَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَحْبُوبِ مِنْهَا، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمَكْرُوهِ، وَإِبَاحَةَ مُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، فَيَسْتَفِيدُ الْمُؤْمِنُ الْجِدَّ وَالْاجْتِهَادَ فِي عَمَلِ الْأَسْبَابِ النَّافِعَةِ، وَالنَّظَرَ، وَمُلاحَظَةَ فَضْلِ اللَّهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَأَنَّ لَا يَتَّكِلَ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، بَلْ يَتَّكِلُ وَيَسْتَعِينُ بِرَبِّهِ.

وَقَدْ يُخْبِرُ أَنَّ مَا أَصَابَ الْعَبْدَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِهِ؛ لِيُعَرِّفَ عِبَادَهُ أَنَّ الْحَيْرَ وَالْحَسَنَاتِ وَالْمَحَابَّ تَقَعُ بِمَحْضِ فَضْلِهِ وَجُودِهِ، وَإِنْ جَرَتْ بَعْضُ الْأَسْبَابِ الْوَاقِعَةِ مِنَ الْعِبَادِ، فَإِنَّ الْأَسْبَابَ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ بِهَا، وَهُوَ الَّذِي يَسَّرَهَا، وَأَنَّ السَّيِّئَاتِ - وَهِيَ الْمَصَائِبُ الَّتِي تُصِيبُ الْعَبْدَ - أَسْبَابُهَا مِنْ نَفْسِ الْعَبْدِ وَبِتَقْصِيرِهِ فِي حُقُوقِ رَبِّهِ، وَتَعَدِّيهِ لِحُدُودِهِ، فَاللَّهُ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمُقَدَّرُ لَهَا فَإِنَّهُ أَجْرَاهَا عَلَى الْعَبْدِ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ، وَلِهَذَا أُمِثْلَةٌ يَطُولُ عَدُّهَا.

التعليق

جاء في القرآن آياتٌ ظاهرُها التعارضُ، يعني: أن بعضها يعارض بعضها ظاهراً. ولا يمكن في القرآن ولا في صحيح السنة أن تتعارض النصوص؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فما كان من عند الله فليس فيه اختلافٌ.

والعلماء رحمهم الله يذهبون إلى الجمع بين هذه النصوص التي ظاهرُها التعارضُ إما بحملها على اختلاف الأحوال، أو اختلاف الأشخاص، أو اختلاف الأسماء، أو اختلاف الممكنة. فهذه أربعة احتمالات لا تغدوها هذه الأحوال.

يعني: يكون هذا الذي ظاهرُها اختلافٌ ينزل على حالٍ دون حالٍ، أو في وقتٍ دون وقتٍ، أو في مكانٍ دون مكانٍ، أو في أشخاصٍ دون أشخاصٍ. وقد ألف الشيخ السنقيطي - رحمه الله تعالى - كتاباً سماه: (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب) جمع فيه الآيات التي قيل إنها متعارضة، أي: ظاهرُها التعارضُ، وجمع بينها.

والجمعُ قد يكونُ مُتَكَلِّفًا وَبَعِيدًا، وَقَدْ يَكُونُ قَرِيبًا، حَسَبَ مَا يُوَفَّقُ الْإِنْسَانُ لَهُ. وَالْمَهْمُ أَنَّ لَدَيْنَا قَاعِدَةً ثَابِتَةً رَاسِخَةً، وَهِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَعَارَضَ؛ لِأَنَّ التَّعَارُضَ مَعْنَاهُ دَفْعُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْمَوْلُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَذَكَرَ كَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ.



القاعدة الثالثة عشرة:

طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله الحاجة بها مع المبطلين على أيدي رُسُلِهِ رآها من أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها، وأدلتها على إحقاق الحق، وإزهاق الباطل على وجه لا تشويش فيه، ولا إزعاج.

فتأمل حاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهُمْ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسعاع، والأبصار، والعقول، والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحدا من الخلق ليس يقدر على نفع ولا دفع، ولا ضرر ولا نفع؛ فإنه بمجرد معرفة العبد بذلك واعترافه به لا بد أن ينقاد للدين الحق الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيرا ما يحتج على المشركين به في عبادته بالزامهم باعترافهم برُبوبِيَّتِهِ، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء؛ فيتعين أنه المعبود وحده، فانظر إلى هذا البرهان كيف يتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة من هذا شأنه، ووجوب الإخلاص له...

التعاليق

أَظُنُّ الْإِنْتِقَالَ هَذَا وَاضِحٌ جِدًّا، مَثَلًا: لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَعْبُدُ صَنَمًا، نَقُولُ لَهُ: هَلْ هَذَا الصَّنَمُ أَوْجَدَكَ؟ هَلْ خَلَقَكَ؟ سَيَقُولُ: لَا. هَلْ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُكَ وَيُعَافِيكَ وَيَدْفَعُ عَنْكَ النَّقَمَ؟ سَيَقُولُ: لَا. مَنِ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ؟ سَيَقُولُ: اللَّهُ. فَإِذَا قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ، قُلْنَا: إِذَنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، مَا دُمْتَ تَعْتَرِفُ أَنَّ النِّعَمَ الَّتِي أَمَدَكَ اللَّهُ بِهَا، وَالنِّقَمَ الَّتِي دَفَعَهَا اللَّهُ عَنْكَ قَبْلَ أَنْ تُصِيبَكَ، وَرَفَعَهَا عَنْكَ بَعْدَ أَنْ أَصَابَتْكَ، مَا دُمْتَ تَعْتَرِفُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ.

وَأَظُنُّ هَذَا وَاضِحًا جِدًّا؛ وَلِهَذَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩] يَعْنِي: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَعَ وُضُوهِهِ؟!



... وَيُجَادِلُ الْمُبْطِلِينَ أَيْضًا بِذِكْرِ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ، وَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، لَا تُغْنِي عَنْ أَهْلِهَا شَيْئًا...

التعاليق

هَذَا أَيْضًا مِنْ وَجْهِهِ الْإِلْزَامِ بِعِبَادَتِهِ وَخَدَهُ أَنْ يُقَالَ: هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُ هَلْ هِيَ تَفْعَلُكَ؟ مَا هُوَ الْجَوَابُ: لَا، بَلْ هِيَ بِنَفْسِهَا نَاقِصَةٌ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَجِيعُوا لَهُمْ إِبْرَ الْذِّبِكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] نَقْصٌ فِي الْقُدْرَةِ، وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ نَقْصٌ فِي الضَّعْفِ؛ مَا يَسْتَطِيعُونَ، وَلَا يُدَافِعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] مَعَ أَنَّ الذُّبَابَ مِنْ أَهْوَنِ الْحَشَرَاتِ وَأَحْقَرِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا سَلَبَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ

شَيْئًا وَأَخَذَهُ مِنْهَا مَا اسْتَنْقَذُوهُ مِنْهُ! وَهَذَا مَثَلٌ عَظِيمٌ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ عَرَفْتَ أَنَّ جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا مَعْبُودًا.



... وَيُقِيمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَنَّهُمْ لَهُمْ مِنْ سَوَابِقِ الْمَخَالَفَاتِ لِرُسُلِهِمْ مَا لَا يُسْتَغْرَبُ مَعَهُ مُحَالَفَتُهُمْ لِحَمْدِ ﷺ وَيَنْقُضُ عَلَيْهِمْ دَعَاوِيَهُمُ الْبَاطِلَةَ، وَتَزَكِيَتَهُمْ لَا تُفْسِحُهُمْ، بَيَّانٍ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَأَوْصَافِهِمْ، وَيُجَادِلُهُمْ بِتَوْضِيحِ الْحَقِّ وَبَيَانِ بَرَاهِينِهِ، وَأَنَّ صِدْقَهُ وَحَقِّيَّتَهُ تَدْفَعُ بِمُجَرَّدِهَا جَمِيعَ الشُّبُهَةِ الْمُعَارِضَةِ لَهُ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يُفِيدُ فِي الدَّعْوَةِ لِلْحَقِّ، وَرَدَّ كُلِّ مَا يُنَافِيهِ. وَيُجَادِلُهُمْ بِوُجُوبِ تَزْيِيلِ الْأُمُورِ مَنَازِلَهَا، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُجْعَلَ لِلْمَخْلُوقِ الْعَبْدِ الْفَقِيرِ الْعَاجِزِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ بَعْضُ حُقُوقِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْغَنِيِّ الْكَامِلِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ.

وَيَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِكِتَابٍ أَوْ شَرِيعَةٍ أَهْدَى وَأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يُعَارِضُوا الْقُرْآنَ فَيَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ، وَيَأْمُرُ نَبِيِّهِ بِمُبَاهَلَةِ مَنْ ظَهَرَتْ مُكَابَرَتُهُ وَعِنَادُهُ، فَيَنْكِصُونَ عَنْهَا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، الصَّادِقُ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، وَأَنَّهُمْ لَوْ بَاهَلُوهُ لَهَلَكُوا.

وَفِي الْجُمْلَةِ: لَا تَجِدُ طَرِيقًا نَافِعًا فِيهِ إِحْقَاقُ الْحَقِّ، وَإِبْطَالُ الْبَاطِلِ، إِلَّا وَقَدْ اخْتَوَى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ.

التعاليق

المُبَاهَلَةُ هِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِبْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ جَلَّوَعَلَا، وَهِيَ الْمُبَالِغَةُ فِي الدَّعَاءِ، وَصُورَتُهَا أَنْ يَأْتِيَ الْمُتَخَاصِمَانِ وَيَقُولَ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ: لَتَبَاهُلَ، وَنَقُولُ: اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ مِنَّا كَاذِبًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ جَمًّا يَدْعُونَ بِهِ عَلَى الْكَاذِبِ. وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِنْدِبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] وَالآيَةُ الثَّانِيَّةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤُنَا وَنِسَاءََنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فِي بَيَانِ مُجَادَلَةِ الْقُرْآنِ وَمُحَاجَّتِهِ لِلْمُخَالِفِينَ، وَأَنَّهَا مِنْ أَيْبِنِ الْمُجَادَلَاتِ وَأَوْضَحِهَا وَأَقْوَمِهَا حُجَّةً.

وَمِنْ طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي الْمُجَادَلَةِ أَنَّهُ يَغْدِلُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي فِيهِ نِزَاعٌ، حَتَّى وَإِنْ أُمِكنَ إِقْنَاعُ الْحُصْمِ بِمَا فِيهِ مِنْ نِزَاعٍ، فَإِنَّهُ يَدَعُوهُ وَيَأْتِي بِالطَّرِيقِ الْوَاضِحِ.

مِثَالُهُ: مُحَاجَّةُ إِبْرَاهِيمَ لِلَّذِي حَاجَّهُ فِي رَبِّهِ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحَى- وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحَى- وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] يَعْنِي: فَأَنَا مِثْلُ رَبِّكَ. كَيْفَ يُحْيِي وَيُمِيتُ؟ هَذَا الرَّجُلُ الظَّالِمُ يَقُولُ: إِنَّهُ يُؤْتَى إِلَيْهِ بِالرَّجُلِ مُسْتَحِقًّا لِلْقَتْلِ فَيَغْفُو عَنْهُ، وَهَذَا عَلَى زَعْمِهِ إِحْيَاءٌ، وَيُؤْتَى إِلَيْهِ بِالرَّجُلِ غَيْرِ جَانٍ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا غَيْرِهِ وَلَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ فَيَقْتُلُهُ، وَهَذَا عَلَى زَعْمِهِ إِمَاتَةٌ.

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَذْهَبْ لِيُحَاجَّ فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، وَلَوْ حَاجَّهُ إِبْرَاهِيمُ لَغَلَبَهُ
بَلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ إِحْيَاءً وَلَا إِمَاتَةً. غَايَةُ مَا هُنَاكَ فِي الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى أَنَّ الَّذِي
يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ رَفَعَ عَنْهُ الْقَتْلَ، وَالَّذِي أَبْقَى الْحَيَاةَ فِيهِ هُوَ اللَّهُ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَاتَ. وَفِي
الثَّانِيَةِ أَيْضًا غَايَةُ مَا فِيهِ أَنَّهُ فَعَلَ سَبَبًا يَقْتَضِي أَنْ يَمُوتَ هَذَا الرَّجُلُ فَقُتِلَ، وَلَكِنْ الَّذِي
أَمَاتَهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَاهُ.

فِيامَكَانِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُجَادِلَ عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ، وَلَكِنَّهُ عَدَلَ إِلَى أَمْرِ يُفَحِّمُهُ،
وَلَا يَسْتَطِيعُ التَّخَلُّصَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ
بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فَهُنَا يَنْبَغِي عِنْدَ الْمَحَاجَّةِ -خُصُوصًا إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الَّذِي يُحَاجُّكَ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ
يَنْصَرَ قَوْلُهُ- يَنْبَغِي أَنْ تَعْدِلَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي يَخْتَاجُ إِلَى جَدَلٍ إِلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ
لَا يَخْتَاجُ إِلَى جَدَلٍ، مَا دَامَ الْمَقْصُودُ الْوُضُوحَ إِلَى إِفْحَامِ الْحُصْمِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَسُدَّ عَلَيْنَا
طَرِيقًا بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَفْتَحَهُ، فَلنَرْجِعْ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسُدَّهُ.



القاعدة الرابعة عشرة:

حَذَفُ الْمُتَعَلِّقِ - الْمُعْمُولِ فِيهِ - يُفِيدُ تَعْمِيمَ الْمَعْنَى الْمُنَاسِبِ لَهُ

وهذه قاعدة مفيدة جداً، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة، وذلك أن الفعل، أو ما هو في معناه، متى قيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق فعمم ذلك المعنى، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصریح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولذلك أمثلة كثيرة جداً:

منها: أَنَّهُ قَالَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فبدل ذلك على أن المراد: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ كُلَّ مَا أُرْسِدْكُمْ إِلَيْهِ، وَكُلَّ مَا عَلَّمَكُمُوهُ، وَكُلَّ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ؛ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ جَمِيعَ مَصَالِحِكُمُ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ جَمِيعَ مَا يَجِبُ اتَّقَاؤُهُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ السِّيَاقُ فِيهِ، وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ هَذَا الْمَعْنَى الْعَامِّ؛ وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] يُفِيدُ كُلَّ مَا قِيلَ فِي حِكْمَةِ الصِّيَامِ، أَي: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الْمَحَارِمَ عُمُومًا، وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ مَا حُرِّمَ عَلَى الصَّائِمِينَ مِنْ الْمُفْطَرَاتِ وَالْمَمْنُوعَاتِ، وَلَعَلَّكُمْ تَتَّصِفُونَ بِصِفَةِ التَّقْوَى وَتَتَخَلَّقُونَ بِأَخْلَاقِهَا، وَهَكَذَا سَائِرُ مَا ذُكِرَ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿هُدًى يَنْتَظِرِينَ﴾ [البقرة: ٢] أَي: الْمُتَّقِينَ لِكُلِّ

مَا يُتَّقَى مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، أَي: الْمُؤَدِّينَ لِلْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ الَّتِي هِيَ خِصَالُ التَّقْوَى.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أَي: إِنَّ الَّذِينَ كَانَتِ التَّقْوَى وَضْفَهُمْ، وَتَرَكَ الْمَحَارِمَ شِعَارَهُمْ، مَتَى زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ الذُّنُوبِ تَذَكَّرُوا كُلَّ أَمْرٍ يُوجِبُ لَهُمُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى الْمَتَابِ، كِعَظْمَةِ اللَّهِ، وَمَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ، وَمَا تُوجِبُهُ التَّقْوَى، وَتَذَكَّرُوا عِقَابَهُ وَنِكَالَهُ، وَتَذَكَّرُوا مَا تُحْدِثُهُ الذُّنُوبُ مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَمَا تَسْلُبُهُ مِنَ الْكِمَالِ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ مِنْ أَيْنَ أَتَوْا، وَمُبْصِرُونَ الْوَجْهَ الَّذِي فِيهِ التَّخَلُّصُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ، فَبَادَرُوا فِي التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، فَعَادُوا إِلَى مَرْتَبَتِهِمْ، وَعَادَ الشَّيْطَانُ خَاسِتًا مَذْخُورًا.

وكذلك مَا ذَكَرَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبَلَفَظَ «الْمُؤْمِنِينَ» أَوْ بَلَفَظَ: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» وَنَحْوَهَا، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنَ الْأُصُولِ وَالْعَقَائِدِ، مَعَ أَنَّهُ قَيَّدَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الْآيَةِ [البقرة: ١٣٦] وَنَحْوَهَا.

وكذلك مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مُطْلَقًا، يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ صِلَاحٍ، كَمَا يَدْخُلُ فِي النَّهْيِ كُلُّ فَسَادٍ.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى﴾ [يونس: ٢٦] ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ بِأَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ

تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِجَمِيعِ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ: مِنْ قَوْلٍ، وَفِعْلٍ، وَجَاهٍ، وَعِلْمٍ، وَمَالٍ، وَغَيْرِهَا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التكاثر: ١] فَحَذَفَ الْمُتَكَاتِرُ بِهِ؛ لِيَعْمَ جَمِيعَ مَا يَقْصِدُ النَّاسُ فِيهِ الْمَكَاتِرَةَ: مِنَ الرِّيَاسَاتِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْجَاهِ، وَالضَّيْعَاتِ، وَالْأَوْلَادِ، وَغَيْرِهَا بِمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ أَغْرَاضُ النُّفُوسِ، وَيُلْهِيْهَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿[العصر: ١-٢]﴾ أَيُّ: فِي خَسَارَةٍ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ.

التعليق

ولهذا قال: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ فَجَعَلَ الْخُسْرَ ظَرْفًا لَهُ فِيهِ. وَالظَّرْفُ مُحِيطٌ بِالْمَظْرُوفِ، يَعْنِي: إِنَّ الْإِنْسَانَ مُنْغَمِسٌ فِي الْخُسْرِ، وَالْخُسْرُ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].



وَقَوْلُهُ: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فَذَكَرَ الْمَسْئُولِينَ، وَأَطْلَقَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ؛ لِيَعْمَ كُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ الْعَبْدُ وَلَا يَعْلَمُهُ.

وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ، وَحُبَّةِ الصَّابِرِينَ، وَتَنَاوُهُ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانُ كَثْرَةِ أَجْرِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقَيِّدَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ؛ لِيَشْمَلَ أَنْوَاعَ الصَّبْرِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ: الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَعَلَى أَفْذَارِهِ الْمُؤَلَّةِ. وَمُقَابِلُ ذَلِكَ: ذَمُّهُ لِلْكَافِرِينَ، وَالظَّالِمِينَ،

وَالْفَاسِقِينَ، وَالْمُشْرِكِينَ، وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْمُعْتَدِينَ، وَنَحْوِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَيِّدَهُ بِشَيْءٍ؛
لِيَشْمَلَ جَمِيعَ ذَلِكَ الْمَعْنَى.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] لِيَشْمَلَ كُلَّ حَضِرٍ.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] لِيَعْمَ كُلَّ خَوْفٍ.

وَقَدْ يُقَيِّدُ ذَلِكَ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَيَقَيِّدُ بِهِ مَا سَبَقَ الْكَلَامُ لِأَجْلِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ
كَثِيرٌ لَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُ الْأُمَثِلَةَ لَطَالَتْ، وَلَكِنْ قَدْ فُتِحَ لَكَ الْبَابُ فَاْمْشِ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ
الْمُقْضِي إِلَى رِيَاضٍ بَهِيَجَةٍ مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُومِ.

التعابن

وَيُلْتَحَقُ بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْحُكْمَ الْمُعْلَقَ بِوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ
فِيهِ، فَمَثَلًا إِذَا قُلْتَ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعَيُْونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] أَيْ: لَتَقَوَّاهُمْ؛
فَالْحُكْمُ الْمُعْلَقُ بِوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ لِهَذَا الْحُكْمِ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى
أَنَّهُ يَعْمُ بِعُمُومِ هَذَا الْوَصْفِ، وَأَنَّهُ يَقْوَى كُلَّمَا قَوِيَ ذَلِكَ الْوَصْفُ، وَيَضْعُفُ كُلَّمَا
ضَعُفَ.

وَقَدْ أَشَارَ الْمُؤَلِّفُ إِلَى أَنَّ الْأُمَثِلَةَ كَثِيرَةٌ، فَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا
فَتَّوَى ۖ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨] لَمْ يَقُلْ:
أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَاكَ، وَضَالًّا فَهَدَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَاكَ؛ لِأَنَّ الَّذِي حَصَلَ مِنْ هَذَا
حَصَلَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى آوَاهُ وَأَوَى بِهِ أَيْضًا، فَهُوَ فِتْنَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَمَلْجَأُ كُلِّ
مُؤْمِنٍ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ هَدَاهُ وَهَدَى بِهِ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أَغْنَاهُ وَأَغْنَى بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْأَنْصَارِ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِِي، وَمُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِِي»^(١). هَذِهِ فَائِدَةٌ، لَوْ قَالَ: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَاكَ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَاكَ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَاكَ - صَارَ مُخَصَّصًا، فَلَمَّا حَذَفَ الْمُتَعَلَّقُ صَارَ عَامًّا.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠). ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القاعدة الخامسة عشرة:

جَعَلَ اللهُ الْأَسْبَابَ لِلْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ مُبَشِّرَاتٍ لِتَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ
وَزِيَادَةَ الْإِيمَانِ

وَهَذَا فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

النَّصْرُ، قَالَ فِي أَنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمِئِنَّ بِهِ
قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

وَقَالَ فِي أَسْبَابِ الرِّزْقِ وَنُزُولِ الْمَطَرِ: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ
وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

وَأَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [٦٢] الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٦٤﴾
[يونس: ٦٢-٦٤] وَهِيَ كُلُّ دَلِيلٍ وَعَلَامَةٍ تَدُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ بِهِمُ الْخَيْرَ، وَأَتَتْهُمْ
مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَصَفْوَتِهِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الشَّاءُ الْحَسَنُ، وَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا
يُشَاهِدُونَهُ مِنَ اللَّطْفِ، وَالتَّوْفِيقِ، وَالتَّيْسِيرِ لِلْيُسْرَى، وَتَحْيِيهِمُ الْعُسْرَى.

وَمِنْ ذَلِكَ بَلُّ الْطُفِّ: أَنْ يَجْعَلَ الشَّدَاتِ مُبَشِّرَةً بِالْفَرَجِ،...

القول

لَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى﴾ [٥] وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾
[الليل: ٥-٧] وَيَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] فَإِذَا رَأَيْتَ الْأُمُورَ

مُتَسِّرَةً لَكَ مُتَسَهِّلَةً، وَأَنَّ اللَّهَ يُقَدِّمُ لَكَ الْخَيْرَ حَتَّىٰ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَحْتَسِبُهُ، فَهَذِهِ لَا شَكَّ أَنَّهَا بُشْرَى. وَإِذَا رَأَيْتَ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ فَصَحِّحْ مَسَارَكَ، فَإِنَّ فِيكَ بَلَاءً.

أَمَّا الْاسْتِدْرَاجُ، فَيَقَعُ إِذَا كُنْتَ مُقِيمًا عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، وَالنِّعَمُ مَا تَكُونُ اسْتِدْرَاجًا إِلَّا لِمَنْ أَقَامَ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] أَمَّا إِذَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِ فَلَيْسَتْ اسْتِدْرَاجًا.



... وَالْعُسْرُ مُؤْذِنًا بِالْيُسْرِ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَصَّه عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَكَيْفَ لَمَّا اسْتَدَّتْ بِهِمُ الْحَالُ، وَضَاقَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ءَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] رَأَيْتَ مِنْ ذَلِكَ الْعَجَبِ الْعُجَابَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وَقَالَ ﷺ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١) وَأُمِثْلُهُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



(١) أخرجه أحمد (٣٠٧/١)، وعبد بن حميد كما في المنتخب (٦٣٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٣١٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/٣٩٧-٣٩٨)، والطبراني في الكبير (١١/١٢٣ رقم ١١٢٤٣)، وابن عدي في الكامل (٨/٣٣٠)، والحاكم (٣/٦٢٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٦٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٤٣)، وفي الأساء والصفات (١٢٦)، وفي الاعتقاد (ص: ١٣٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/١٨٩-١٩٠) وقال: رواه الطبراني، وفيه علي بن أبي علي القرشي وهو ضعيف. وهو قطعة من الحديث المشهور في وصية النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (كما في بعض روايات الحديث). وصححه الألباني في ظلال السنة (٣١٥).

القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ:

حَذَفُ جَوَابِ الشَّرْطِ يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَشِدَّتِهِ
فِي مَقَامَاتِ الْوَعِيدِ

وذلك كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾
[السجدة: ١٢] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ [سبأ: ٥١] ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى
من ذكره؛ ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهو له، وشدته، وفظاعته، لا يعبر
عنه، ولا يدرك بالوصف. ومثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾
[التكاثر: ٥] أي: لما أقمتكم على ما أنتم عليه من التفريط، والغفلة، واللغو.

التعليق

هذا واضح، حذف الشيء في مقام التَّعْظِيمِ يَدُلُّ عَلَى شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ، وكذلك
إنباءه وإجماله، مثل قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] فإن هذا يدل
على أنه غشيهم أمر عظيم، وإلا لقال قاتل: هذا تحصيل حاصل، غشيهم ما
غشيهم، لكن هذا من باب التَّعْظِيمِ وَتَفْخِيمِ الشَّيْءِ، كذلك هذه الآيات التي فيها
ذكر الشرط وحذف الجواب، كلها تدل على عظمة هذا الجواب.

القاعدة السابعة عشرة:

بَعْضُ الْأَسْمَاءِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِذَا أُفْرِدَ دَلَّ عَلَى الْمَعْنَى الْعَامِّ الْمُنَاسِبِ لَهُ،
وَإِذَا قُرِنَ مَعَ غَيْرِهِ دَلَّ عَلَى بَعْضِ الْمَعْنَى، وَدَلَّ مَا قُرِنَ مَعَهُ عَلَى بَاقِيهِ

التعابير

يُقَالُ: «إِذَا أُفْرِدَتْ عَمَّتْ، وَإِذَا قُرِنَ مَعَهَا غَيْرُهَا خَصَّتْ» وَيُقَالُ: «إِذَا اجْتَمَعَا
افْتَرَقَا، وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا».

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: (الإيمان) أُفْرِدَ وَحْدَهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَقُرِنَ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي آيَاتٍ
كَثِيرَةٍ، فَالآيَاتُ الَّتِي أُفْرِدَ فِيهَا يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ عَقَائِدِ الدِّينِ، وَشَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ
وَالْبَاطِنَةِ؛ وَلِهَذَا يُرْتَّبُ اللَّهُ عَلَيْهِ حُصُولُ الثَّوَابِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ، وَلَوْ لَا دُخُولُ
الْمَذْكُورَاتِ مَا حَصَلَتْ آثَارُهُ، وَهُوَ عِنْدَ السَّلَفِ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ
وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

وَالْآيَاتُ الَّتِي قُرِنَ الْإِيمَانُ فِيهَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] يُفَسَّرُ الْإِيمَانُ فِيهَا: بِمَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْمَعَارِفِ،
وَالْتَّصَدِيقِ، وَالْإِعْتِقَادِ، وَالْإِنَابَةِ. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: بِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ.

وكذلك لَفَظُ «الْبِرِّ» و«التَّقْوَى» فَحَيْثُ أُفِرِدَ الْبِرُّ دَخَلَ فِيهِ امْتِنَالُ الْأَوَامِرِ واجْتِنَابُ النَّوَاهِي، وكذلك إِذَا أُفِرِدَتِ التَّقْوَى؛ وَلِهَذَا يُرْتَّبُ اللَّهُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى عِنْدَ الْإِطْلَاقِ الثَّوَابَ الْمُطْلَقَ، وَالنَّجَاةَ الْمُطْلَقَةَ، كَمَا يُرْتَّبُهُ عَلَى الْإِيْمَانِ.

وَتَارَةً يُفَسِّرُ أَعْمَالَ الْبِرِّ بِمَا يَتَنَاوَلُ أَفْعَالَ الْحَيْرِ، وَتَرَكَ الْمَعَاصِي. وكذلك فِي بَعْضِ الْآيَاتِ تَفْسِيرُ خِصَالِ التَّقْوَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الْسَّرَّاءِ وَالْأَصْرَاءِ ﴿١٣٤﴾ [إلى عمران: ١٣٣-١٣٤] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَتِمُّ بِهَا التَّقْوَى.

وَإِذَا جَمَعَ بَيْنَ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] كَانَ الْبِرُّ اسْمًا جَامِعًا لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ، الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَكَانَتِ التَّقْوَى اسْمًا جَامِعًا يَتَنَاوَلُ تَرَكَ جَمِيعِ الْمَحَرَّمَاتِ.

وكذلك لَفَظُ «الْإِثْمِ» و«الْعُدْوَانِ» إِذَا قُرِنَتْ فُسِّرَ الْإِثْمُ: بِالْمَعَاصِي الَّتِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ. وَالْعُدْوَانُ: بِالتَّجَرُّؤِ عَلَى النَّاسِ فِي دِمَائِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَعْرَاضِهِمْ. وَإِذَا أُفِرِدَ الْإِثْمُ دَخَلَ فِيهِ كُلُّ الْمَعَاصِي الَّتِي تُؤْتِمُّ صَاحِبَهَا، سَوَاءً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ. وكذلك إِذَا أُفِرِدَ الْعُدْوَانُ.

وكذلك لَفَظُ «الْعِبَادَةِ» و«التَّوَكُّلِ» وَلَفَظُ «الْعِبَادَةِ» و«الاسْتِعَانَةِ» إِذَا أُفِرِدَتِ الْعِبَادَةُ فِي الْقُرْآنِ تَنَاوَلَتْ جَمِيعَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَمِنْ أَوَّلِ مَا يَدْخُلُ فِيهَا: التَّوَكُّلُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَإِذَا جُمِعَ بَيْنُهَا وَبَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ، نَحْوُ: ﴿إِنَّا كُنَّا بِكَ عَلَى الْعَرْشِ مُشِيرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فُسِّرَتِ الْعِبَادَةُ بِجَمِيعِ الْمَأْمُورَاتِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَفُسِّرَ التَّوَكُّلُ بِاغْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ فِي حُصُولِهَا،

وَحُصُولِ جَمِيعِ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ الثُّقَةِ التَّامَّةِ بِاللَّهِ فِي حُصُولِهَا.

وكذلك (الْفَقِيرُ) و(الْمِسْكِينُ) إِذَا أُفِرِدَ أَحَدُهُمَا دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ، كَمَا فِي أَكْثَرِ الْآيَاتِ، وَإِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا كَمَا فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فَسَّرَ الْفَقِيرُ بِمَنْ اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ، وَكَانَ لَا يَجِدُ شَيْئًا، أَوْ يَجِدُ شَيْئًا لَا يَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعًا. وَفُسِّرَ الْمِسْكِينُ بِمَنْ حَاجَتُهُ دُونَ ذَلِكَ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، وَهُوَ: اتِّبَاعُهُ، يَشْمَلُ ذَلِكَ: الْقِيَامَ بِالذِّينِ كُلِّهِ، فَإِذَا قُرِئَتْ مَعَهُ الصَّلَاةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] كَانَ ذِكْرُ الصَّلَاةِ تَعْظِيمًا لَهَا، وَتَأْكِيدًا لَشَأْنِهَا، وَحَثًّا عَلَيْهَا، وَإِلَّا فَهِيَ دَاخِلَةٌ بِالْأَسْمِ الْعَامِّ، وَهُوَ التَّلَاوَةُ، وَالتَّمَسُّكُ بِهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ.



القاعدة الثامنة عشرة:

فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ يُخْبِرُ بِأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَفِي بَعْضِهَا يَذْكُرُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْبَابَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْعَبْدِ الْمَوْجِبَةَ لِلْهِدَايَةِ أَوْ الْمَوْجِبَةَ
لِلْإِضْلَالِ وَكَذَلِكَ حُصُولِ الْمَغْفِرَةِ وَضِدَّهَا وَبَسْطِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ

وذلك في آيات كثيرة، فحيثُ أخبرَ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ،
وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ،
وَيُقْتَرُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ - دَلَّ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ تَوْحِيدِهِ، وَانْفِرَادِهِ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ، وَتَدْبِيرِ
جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَأَنَّ خَزَائِنَ الْأَشْيَاءِ بِيَدِهِ، يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُخْفِضُ وَيَرْفَعُ، فَيَقْتَضِي
مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِذَلِكَ، وَأَنْ يُعَلِّقُوا أَمْلَهُمْ وَرَجَاءَهُمْ بِهِ فِي حُصُولِ
مَا يُحِبُّونَ مِنْهَا، وَفِي دَفْعِ مَا يَكْرَهُونَ، وَأَنْ لَا يَسْأَلُوا أَحَدًا غَيْرَهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ
الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ» ^(١) إِلَى آخِرِهِ.

وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ يَذْكُرُ فِيهَا أَسْبَابَ ذَلِكَ؛ لِيَعْرِفَ الْعِبَادُ الْأَسْبَابَ وَالطَّرِيقَ
الْمُقْضِيَةَ إِلَيْهَا، فَيَسْأَلُوا النَّافِعَ، وَيَدْعُوا الضَّارَّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى
⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧ وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى ⑨
فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑩﴾ [الليل: ٥-١٠] فَبَيَّنَّ أَنَّ أَسْبَابَ الْهِدَايَةِ وَالتَّيْسِيرِ: تَصَدِيقُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَانْقِيَاذُهُ لِأَمْرِهِ، وَأَنَّ أَسْبَابَ الضَّلَالِ وَالتَّعْسِيرِ ضِدُّ ذَلِكَ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦]
 ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]
 ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]
 فأخبر أن الله يهدي من كان قصده حسناً، ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن طاعة الله تعالى، وتولَّى أعداءه الشياطين، ورَضِيَ بولائيتهم عن ولاية رب العالمين. وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، ويستحق بها العذاب، كقوله: ﴿وَلِيَّ لَفْقَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]
 ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]
 ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ثم ذكر الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]...

التعاقب

هَذِهِ الْآيَةُ عَظِيمَةٌ! لَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: أَنَا أَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ، وَأَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ! نَنْظُرُ هَلْ هُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، إِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ صَادِقٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مَنَّ مَنَّمَى عَلَى اللَّهِ الْأُمَانِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾. أَمَّا أَنْ يَقُولَ: أَنَا أَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ، وَهُوَ لَا يُصَلِّي -مثلاً- فهذا غيرُ مقْبُولٍ. فَالَّذِي يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ حَقِيقَةً لَا بُدَّ أَنْ يَسْعَى لَهَا.



... وَأَعْمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] فطريقُ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ سُلُوكُ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عُمُومًا، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الْمَذْكُورَةُ خُصُوصًا.

وَأُخْبِرَ أَنَّ الْعَذَابَ لَهُ أَسْبَابٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَكُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى شَيْئَيْنِ: التَّكْذِيبِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالتَّوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٥-١٨] ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨].

وَكَذَلِكَ يَذْكُرُ أَسْبَابَ الرِّزْقِ، وَأَنَّهُ لَزُومٌ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالسَّعْيُ الْجَمِيلُ مَعَ لَزُومِ التَّقْوَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وَانْتَظَارُ الْفَرَجِ وَالرِّزْقِ، كَقَوْلِهِ: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ: ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ

مَنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٣﴾ [هود: ٣] ﴿١٠﴾ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ
 غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ [نوح: ١٠-١١] فَأَخْبَرَ أَنَّ الْأَسْتَغْفَارَ سَبَبٌ يُسْتَجْلَبُ
 بِهِ مَغْفِرَةُ اللَّهِ، وَرِزْقُهُ، وَخَيْرُهُ، وَضِدُّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِلْفَقْرِ وَالتَّيْسِيرِ لِلْعُسْرَى. وَأُمثلةُ
 هَذِهِ الْقَاعِدَةِ كَثِيرَةٌ، قَدْ عَرَفْتَ طَرِيقَهَا فَالْزَمْهُ.



القاعدة التاسعة عشرة:

حَتُمَ الْآيَاتِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ
لَهُ تَعَلُّقٌ بِذَلِكَ الْأِسْمِ الْكَرِيمِ

وهذه قاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة، وتدلُّك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومربط بها.

وهذا باب عظيم من معرفة الله، ومعرفة أحكامه، من أجل المعارف وأشرف العلوم، تجد آية الرحمة محتومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب محتومة بأسماء العزة، والقُدرة، والحكمة، والعلم، والقهر.

ولا بأس هنا أن نتبع الآيات الكريمة في هذا، ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالبت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدُها في كتب التفسير إلا يسيراً منها.

فقوله تعالى في قوله: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]

ذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسموات يدل على إحاطة علمه بما فيهما من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فخلقهُ للمخلوقات من أكثر الأدلة

العَقْلِيَّةِ عَلَى عِلْمِهِ، فَكَيْفَ يَخْلُقُهَا وَهُوَ لَا يَعْلَمُهَا؟

وَلَمَّا ذَكَرَ كَلَامَ الْمَلَائِكَةِ حِينَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، وَمُرَاجَعَتَهُمْ لِرَبِّهِمْ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا خَلَقَ آدَمَ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَجَزَتِ الْمَلَائِكَةُ عَنْهَا، وَأَنْبَأَهُمْ آدَمُ بِهَا: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] فَاعْتَرَفُوا لِلَّهِ تَعَالَى بِسَعَةِ الْعِلْمِ، وَكَمَالِ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي مُرَاجَعَتِهِمْ فِي اسْتِخْلَافِهِ فِي الْأَرْضِ.

وَفِي هَذَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَى عَظَمَتِهِمْ، وَسَعَةِ مَعَارِفِهِمْ بِرَبِّهِمْ، اعْتَرَفُوا بِأَنَّ عُلُومَهُمْ تَضَمَّنَتْ عِنْدَ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُمْ إِلَّا مِنْهُ، فَخَتَمَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ - الدَّالِّينِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ بِآدَمَ، وَتَمَامِ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْمُتَوَعَّعَةِ - مِنْ أَحْسَنِ الْمُنَاسَبَاتِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَنْ آدَمَ: ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وَخَتَمَهُ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ بَعْدَ ذِكْرِ رَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَحِلْمِهِ؛ فَمُنَاسَبَتُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أَقْبَلَ بِقُلُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ، وَوَفَّقَهُمْ لِفِعْلِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَتَوَبُّ عَلَيْهِمْ وَيَرْحَمُهُمْ بِهَا، ثُمَّ غَفَرَ لَهُمْ وَرَحِمَهُمْ، فَتَابَ عَلَيْهِمْ أَوْ لَا بِتَوْفِيقِهِمْ لِلتَّوْبَةِ وَالْأَسْبَابِ، وَتَابَ عَلَيْهِمْ ثَانِيًا حِينَ قَبِلَ مَتَابَهُمْ، وَأَجَابَ سُؤْلَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أَيْ: أَقْبَلَ بِقُلُوبِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ لَا تَوْفِيقُهُ وَصَرَفُ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ حِينَ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، فَأَعَادَهُ مِنْهَا وَمَنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ.

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ النَّسْخَ أَخْبَرَ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَتَقَرُّدِهِ بِالْمُلْكِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧] وفي هذا ردٌّ على مَنْ أَنْكَرَ النَّسْخَ - كَالْيَهُودِ - وَأَنَّ نَسْخَهُ لِمَا يَنْسَخُهُ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ وَتَمَامِ مُلْكِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ فِي عِبَادِهِ، وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي أَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، فَلَا حَجَرَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَمَّا قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْجِبُوا وُجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: واسعُ الفضلِ، واسعُ المُلْكِ، جَمِيعُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ دَاخِلٌ فِي مُلْكِهِ، وَمَعَ سَعَتِهِ فِي مُلْكِهِ وَفَضْلِهِ فَهُوَ مُحِيطٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَمُحِيطٌ بِعِلْمِهِ فِي الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ، وَمُحِيطٌ بِعِلْمِهِ بِمَا فِي التَّوَجُّهِ إِلَى الْقِبَلِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَمُحِيطٌ بِعِلْمِهِ بِنِيَّاتِ الْمُسْتَقْبِلِينَ لِجَهَةِ مِنَ الْجِهَاتِ إِذَا أَخْطَوْا الْقِبْلَةَ الْمُعَيَّنَةَ، فَحَيْثُ تَيَمَّمَ الْمُصَلِّي تَيَمَّمَ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِ.

التعاليق

الْمَعْنَى: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا أَوَّلَ مَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَهُوَ قِبْلَةٌ، ثُمَّ نُسِخَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَصَارَ قِبْلَةً. فَإِذَنْ: الْحِكْمَةُ فِي كَوْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَقْرَبَهُمْ أَوْ أَدْنَى لَهُمْ أَوْ شَرَعَ لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ.



وَأَمَّا قَوْلُ الْحَلِيلِ وَإِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَهُمَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فَإِنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِهِدْيِهِ

الاسْمَيْنِ إِلَى قَبُولِ هَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ؛ حَيْثُ كَانَ اللَّهُ يُعَلِّمُ نِيَّاتَهُمَا وَمَقَاصِدَهُمَا، وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمَا، وَجَيِّبُ دُعَاءَهُمَا؛ فَإِنَّهُ يُرَادُّ بِالسَّمِيعِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ -دُعَاءِ الْعِبَادَةِ، وَدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ- مَعْنَى الْمُسْتَجِيبِ، كَمَا قَالَ الْحَلِيلُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

التعليق

هَذِهِ فَائِدَةٌ: إِذَا جَاءَ اسْمُ اللَّهِ السَّمِيعِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ، سَوَاءً دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ أَوْ دُعَاءِ الْعِبَادَةِ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْإِجَابَةِ أَوْ الِاسْتِجَابَةِ، وَمَنْهُ فِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» فَإِنَّ الْحَامِدَ يَدْعُو اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ، فَمَعْنَى: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، أَيِ: اسْتَجَابَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فَهَذَا دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ، فَمَعْنَى: سَمِيعٌ، أَيِ: مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

وَأَمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] فَهُوَ سَمِعٌ بِمَعْنَى إِدْرَاكِ الْمَسْمُوعِ.



وَأَمَّا خَتْمُ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] أَيِ: فَكَمَا أَنَّ بَعَثْتَ لِهَذَا الرَّسُولِ فِيهَا الرَّحْمَةَ السَّابِغَةَ، فَفِيهَا تَمَامُ عِزَّةِ اللَّهِ، وَكَمَالُ حِكْمَتِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَتْرَكَ الْخَلْقَ سُدىً -عَبَثًا- لَا يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَحَقَّقَ اللَّهُ حِكْمَتَهُ بِبَعَثَتِهِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ. وَالْأُمُورُ كُلُّهَا -قَدَرُهَا وَشَرْعِيَّتُهَا- لَا تَقُومُ إِلَّا بِعِزَّةِ اللَّهِ وَنُفُوذِ حُكْمِهِ.

وَقَدْ يَكْتَفِي اللَّهُ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِ أَحْكَامِهَا، وَجَزَائِهَا؛
لِيُنَبِّهَ عِبَادَهُ أَنَّهُمْ إِذَا عَرَفُوا اللَّهَ بِذَلِكَ الْأَسْمِ الْعَظِيمِ عَرَفُوا مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ،
مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩]
لَمْ يَقُلْ: فَلَكُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ كَذَا، بَلْ قَالَ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]
أَي: فَإِذَا عَرَفْتُمْ عِزَّتَهُ (وَهُوَ قَهْرُهُ، وَغَلَبَتُهُ، وَقُوَّتُهُ، وَامْتِنَاعُهُ) وَعَرَفْتُمْ حِكْمَتَهُ (وَهُوَ
وَضْعُهُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَتَنْزِيلَهَا مَحَالَّهَا) أَوْجَبَ لَكُمْ الْخَوْفَ مِنَ الْبَقَاءِ عَلَى
ذُنُوبِكُمْ وَزَلَلِكُمْ؛ لِأَنَّ مِنْ حِكْمَتِهِ مُعَاقِبَةً مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ - وَهُوَ الْمَصْرُ عَلَى
الذَّنْبِ مَعَ عِلْمِهِ - وَأَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ امْتِنَاعٌ عَلَيْهِ، وَلَا خُرُوجٌ عَنْ حُكْمِهِ وَجَزَائِهِ؛ لِكَمَالِ
قَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ.

وكَذَلِكَ لَمَّا قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]
لَمْ يَقُلْ: فَاعْفُوا عَنْهُمْ، أَوْ: اتْرْكُوهُمْ، وَنَحْوَهَا، بَلْ قَالَ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] يَعْنِي: فَإِذَا عَرَفْتُمْ ذَلِكَ وَعَلِمْتُمُوهُ عَرَفْتُمْ أَنَّ مَنْ تَابَ وَأَنَابَ،
فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ فَيَدْفَعُ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ.

وَلَمَّا ذَكَرَ عُقُوبَةَ السَّارِقِ، قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
[المائدة: ٣٨] أَي: عَزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ، وَعَزَّ وَحَكَمَ فَعَاقَبَ الْمُعْتَدِي شَرْعًا،
وَقَدَّرَا، وَجَزَّأَا.

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ مَوَارِيثَ الْوَرَثَةِ وَقَدَّرَهَا، قَالَ: ﴿فَرِيشَةً مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] فَكَوْنُهُ عَلِيمًا حَكِيمًا يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُ الْعِبَادُ، وَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ
مَوَاضِعَهَا، فَاخْضَعُوا لِمَا قَالَهُ وَفَصَّلَهُ فِي تَوْزِيعِ الْأَمْوَالِ عَلَى مُسْتَحِقِّهَا، الَّذِينَ

يَسْتَحِقُّوْهَا بِحَسَبِ عِلْمِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، فَلَوْ وُكِّلَ الْعِبَادُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَقِيلَ لَهُمْ: وَرَّعُوْهُ أَنْتُمْ بِحَسَبِ اجْتِهَادِكُمْ، لَدَخَلَهَا الْجَهْلُ وَالْهَوَى، وَعَدَمَ الْحِكْمَةِ، وَصَارَتْ الْمَوَارِثُ فَوْضَى، وَحَصَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَلَكِنْ تَوَلَّاهَا وَقَسَمَهَا بِأَحْكَمِ قِسْمَةٍ وَأَوْفَقَهَا لِلْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَهَا لِلنَّفْعِ؛ وَلِهَذَا مَنْ قَدَحَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِ، أَوْ قَالَ: لَوْ كَانَ كَذَا، أَوْ كَذَا، فَهُوَ قَادِحٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَفِي حِكْمَتِهِ؛ وَلِهَذَا يَذْكُرُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ بَعْدَ ذِكْرِ الْأَحْكَامِ، كَمَا يَذْكُرُهَا فِي آيَاتِ الْوَعِيدِ؛ لِيُبَيِّنَ لِلْعِبَادِ أَنَّ الشَّرْعَ وَالْجَرَاءَ مَرْبُوطٌ بِحِكْمَتِهِ، غَيْرُ خَارِجٍ عَنْ عِلْمِهِ، وَيُخْتَمُ الْأَذْعِيَّةُ بِأَسْمَاءٍ تُنَاسِبُ الْمَطْلُوبَ، وَهَذَا مِنَ الدُّعَاءِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أَي: تَعَبَّدُوا لِلَّهِ بِهَا، وَاطْلُبُوْهُ بِكُلِّ اسْمٍ مُنَاسِبٍ لِمَطْلُوبِكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩] وَالْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الَّتِي بَعْدَهَا، كُلُّ وَاحِدَةٍ خُتِمَتْ بِاسْمَيْنِ كَرِيمَيْنِ؛ فَالْأَوَّلَى مِنْهَا هَذِهِ، خَتَمُهَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ يَقْتَضِي عِلْمَهُ بِنِيَّاتِهِمُ الْجَمِيلَةِ، وَأَعْمَالِهِمُ الْجَلِيلَةِ، وَمَقَامَاتِهِمُ الشَّائِخَةِ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَيَعْفُو وَيَحْلُمُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَكَأَنَّهُمْ مَا فَعَلُوْهَا.

وَخَتَمَ الثَّانِيَةَ بِالْعَفْوِ الْغُفُورِ، فَإِنَّهُ أَبَاحَ الْمُعَاقَبَةَ بِالْمِثْلِ، وَنَدَبَ إِلَى مَقَامِ الْفَضْلِ -وَهُوَ الْعَفْوُ وَعَدَمُ مُعَاقَبَةِ الْمُسِيءِ- وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَعَبَّدُوا اللَّهَ بِالِاتِّصَافِ بِهَذَيْنِ الْوُصْفَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ؛ لِتَنَالُوا عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ.

وَخَتَمَ الْآيَةَ الثَّالِثَةَ بِالسَّمِيعِ الْبَصِيرِ يَقْتَضِي سَمْعَهُ لِجَمِيعِ أَصْوَاتِ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَبَصَرَهُ بِحَرَكَاتِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، وَتَبَايُنِ الْحَالَاتِ.

وَحَتَمُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ بِالْعَلِيِّ الْكَبِيرِ؛ لِأَنَّ عُلُوَّهُ الْمُنْطَلَقَ، وَكِبَرِيَاءَهُ، وَعَظَمَتَهُ، وَمَجْدَهُ، تَضَمَّنَتْ مَعَهَا الْمَخْلُوقَاتُ، وَيَبْطُلُ مَعَهَا كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ، وَبِإثْبَاتِ كَمَالِ عُلُوِّهِ وَكِبَرِيَّائِهِ يَتَعَيَّنُ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ.

وَحَتَمَ الْآيَةِ الْخَامِسَةَ بِاللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، الدَّالِّينِ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ وَخَبَرَتِهِ بِالْبَوَاطِينِ كَالظَّوَاهِرِ، وَبِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ الْأَرْضُ مِنْ أَصْنَافِ الْبُذُورِ، وَالْوَانَ النَّبَاتَاتِ، وَأَنَّهُ لَطْفٌ بِعِبَادِهِ حَيْثُ أَخْرَجَ لَهُمْ أَصْنَافَ الْأَرْزَاقِ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ وَالْخَيْرِ الْغَزِيرِ.

وَحَتَمَ الْآيَةَ السَّادِسَةَ بِالْغَنِيِّ الْحَمِيدِ، بَعْدَمَا ذَكَرَ مُلْكَهُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهَا حَاجَةً مِنْهُ لَهَا؛ فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ الْمُنْطَلَقُ، وَلَا لِيَتَكَمَّلَ بِهَا، فَإِنَّهُ الْحَمِيدُ الْكَامِلُ؛ وَلِيَدْكُمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ فَقَرَاءَ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَأَنَّهُ حَمِيدٌ فِي أَقْدَارِهِ، حَمِيدٌ فِي شَرْعِهِ، حَمِيدٌ فِي جَزَائِهِ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْطَلَقُ ذَاتًا، وَصِفَاتًا، وَأَفْعَالًا.

وَحَتَمُ الْآيَةِ السَّابِعَةِ بِالرُّؤُوفِ الرَّحِيمِ، أَيُّ: مِنْ رَأْفَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، تَسْخِيرُهُ الْمَخْلُوقَاتِ لِبَنِي آدَمَ، وَحِفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِبْقَاؤُهَا؛ لِئَلَّا تَزُولَ فَتَخْتَلَّ مَصَالِحُهُمْ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ سَخَّرَ لَهُمُ الْبِحَارَ؛ لِتَجْرِيَ فِي مَنَافِعِهِمْ، وَمَصَالِحِهِمْ، فَرَحِمَهُمْ حَيْثُ خَلَقَ لَهُمُ الْمَسْكَنَ، وَأَوْدَعَ فِيهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ، وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ وَأَبْقَاهُ.

وَلَمَّا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَهْلِهِمْ خَتَمَ كُلَّ قِصَّةٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فَإِنَّ كُلَّ قِصَّةٍ تَضَمَّنَتْ نَجَاةَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ، وَإِهْلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ، وَذَلِكَ مِنْ آثَارِ عِزَّتِهِ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ مُقْتَضَى الْأَسْمَنِ بِكُلِّ مِنَ الْحَالَتَيْنِ، فَإِنَّهُ نَجَّى

الرَّسُولَ وَأَتْبَاعَهُ بِكَمَالِ قُوَّتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَرَحْمَتِهِ؛ وَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ بِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ. وَيَكُونُ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ يَقْتَضِي عِظَمَ جُرْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ جُرْمَهُمْ تَعَاظَمَ، وَسَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَرِيقٌ إِلَيْهَا لَمَا أَحَلَّ بِهِمُ الْعِقَابَ.

وَأَمَّا قَوْلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وَلَمْ يَقُلْ: أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. فَإِنَّ الْمَقَامَ لَيْسَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ وَاسْتِرْحَامٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مَقَامُ غَضَبٍ وَانْتِقَامٍ مِمَّنِ اتَّخَذَهُ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ، فَنَاسَبَ ذِكْرُ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَصَارَ أَوَّلَى مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ.

وَمِنْ أُنْطَفِ مَقَامَاتِ الرَّجَاءِ: أَنَّهُ يَذْكُرُ أَسْبَابَ الرَّحْمَةِ، وَأَسْبَابَ الْعُقُوبَةِ، ثُمَّ يَحْتِمُهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩] وَقَوْلِهِ: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣] وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَغَلَبَتْهُ، وَصَارَ لَهَا الظُّهُورُ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي كُلُّ مَنْ وَجَدَ فِيهِ أَدْنَى سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ؛ وَلِهَذَا يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَلِنَقْتَصِرَ عَلَى هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ فَإِنَّهُ يُعَرَفُ بِهَا صِفَةُ الاسْتِذْلَالِ بِذَلِكَ.

التعاليق

الْخُلَاصَةُ: تَتَضَمَّنُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ قَاعِدَتَيْنِ، أَوْ قَاعِدَةً وَاحِدَةً لَهَا وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ خَتَمَ الْآيَةِ بِاسْمِ مَنْ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا مُنَاسِبًا لَذَلِكَ الْحُكْمِ. وَلَا يُخْرَجُ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ شَيْءٌ إِلَّا لَسَبَبٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿ [المائدة: ١١٨] فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ عِزَّةٍ، وَكَمَالَ تَصَرُّفٍ؛ لَكُنْ هَؤُلَاءِ لَهُمْ حَالَانِ: إِمَّا عَذَابٌ، وَإِمَّا رَحْمَةٌ وَمَغْفِرَةٌ - فَلَهُمْ مَا تَقْتَضِيهِ الْعِزَّةُ وَالْحِكْمَةُ بِسَبَبِ عِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ خَتَمَ الْآيَةِ بِاسْمِ مَنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ مُطَابِقٌ لَذَلِكَ الْاسْمِ. وَهَذَا الْوَجْهُ غَيْرُ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، فَمَثَلًا قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] يَتَوَقَّعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُقَالَ: فَتَسْقُطُ عَنْهُمْ الْعُقُوبَةُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ هَكَذَا، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] أَيْ: لَقَدْ سَقَطَ عَنْهُمْ الْحُدُّ بِمُقْتَضَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمَوْلَى: ﴿فَإِنْ فَأَمْرُ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣) وَإِنْ عَزَمُوا أَطْلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧] لِأَنَّ فَيَأْتِيهِمْ إِلَى رَوْجَاتِهِمْ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَكُونُ سَبَبًا لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ. وَأَمَّا عَزْمُهُمُ الطَّلَاقَ فَهُوَ أَمْرٌ لَيْسَ مُحْبُوبًا إِلَى اللَّهِ؛ وَلِهَذَا قَرَنَهُ بِمَا يُفِيدُ أَوْ يُشِيرُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فَائِدَةٌ: الْمَعْرَفُ (بِال) يَدُلُّ عَلَى مُلَاحَظَةِ أَصْلِ الصِّفَةِ، مِثْلُ: الْفَضْلِ، الْعَبَّاسِ. فَمَثَلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] الْآيَتَانِ سَوَاءٌ فِي اللَّفْظِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا فِي التَّعْرِيفِ فِي سَمِيعٍ عَلِيمٍ، فَتَكُونُ الْآيَةُ الْأُولَى لَوْحَظَ فِيهَا مُطْلَقُ الصِّفَةِ، وَالثَّانِيَةُ لَوْحَظَ فِيهَا كَمَالُ الصِّفَةِ.

القاعدة العشرون:

الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ بِاعْتِبَارٍ، وَكُلُّهُ مُتَشَابِهٌ بِاعْتِبَارٍ وَبَعْضُهُ مُحْكَمٌ
وَبَعْضُهُ مُتَشَابِهٌ بِاعْتِبَارٍ ثَالِثٍ

وقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَى بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثِ، فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، وَأَنَّهُ: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا، ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ، وَنِهَايَةِ الْإِنْتِظَامِ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا تَنَاقُصَ فِيهَا وَلَا اخْتِلَافَ، وَأَوَامِرُهُ كُلُّهَا خَيْرٌ وَبَرَكَهٌ وَصَلَاحٌ، وَنَوَاهِيهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالشُّرُورِ، وَالْأَضْرَارِ، وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، فَهَذَا إِحْكَامُهُ.

وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] أَي: مُتَشَابِهًا فِي الْحُسْنِ، وَالصِّدْقِ، وَالْحَقِّ، وَوُرُودِهِ بِالْمَعَانِي النَّافِعَةِ الْمُرْكَبَةِ لِلْعُقُولِ، الْمُطَهَّرَةِ لِلْقُلُوبِ، الْمُصْلِحَةِ لِلْأَحْوَالِ، فَالْفَاطَةُ أَحْسَنُ الْأَفَاطِ، وَمَعَانِيهِ أَحْسَنُ الْمَعَانِي.

وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] فَهِيَ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ بَعْضُهُ هَكَذَا، وَبَعْضُهُ هَكَذَا، وَأَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ يَرُدُّونَ الْمُتَشَابِهَ مِنْهُ إِلَى الْمُحْكَمِ، فَيَصِيرُ كُلُّهُ مُحْكَمًا، وَيَقُولُونَ: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أَي: وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَا تَنَاقُصَ فِيهِ، فَمَا اشْتَبَهَ مِنْهُ فِي مَوْضِعٍ فَسَرَّهُ الْمَوْضِعُ الْآخَرُ الْمُحْكَمُ، فَحَصَلَ الْعِلْمُ، وَزَالَ الْإِشْكَالُ. وَلِهَذَا النَّوعُ أَمْثَلُهُ:

مِنْهَا: مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَإِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى مَنْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّ هِدَايَتَهُ وَإِضْلَالَهُ يَكُونُ جُزْأًا لِعَیْرِ سَبَبٍ، وَصَحَّتْ هَذَا الْإِطْلَاقُ الْآيَاتُ الْآخَرُ، الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ هِدَايَتَهُ لَهَا أَسْبَابٌ يَفْعَلُهَا الْعَبْدُ وَيَتَّصِفُ بِهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وَأَنَّ إِضْلَالَهُ لِعَبْدِهِ لَهَا أَسْبَابٌ مِنَ الْعَبْدِ، وَهُوَ تَوَلَّيَهُ لِلشَّيْطَانِ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وَإِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى الْجَبَرِيِّ، الَّذِي يَرَى أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَجْبُورُونَ عَلَيْهَا، بَيَّنَّتْهَا الْآيَاتُ الْآخَرُ الْكَثِيرَةُ، الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُجْبِرِ الْعِبَادَ، وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ وَاقِعَةٌ بِاخْتِيَارِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ، وَأَضَافَهَا إِلَيْهِمْ فِي آيَاتٍ غَيْرِ مُنْحَصَرَةٍ.

كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَضَافَ اللَّهُ فِيهَا الْأَعْمَالَ إِلَى الْعِبَادِ -حَسَنَهَا وَسَيَّئَهَا- إِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ، وَظَنُّوا أَنَّهَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مَا شَاءَهَا مِنْهُمْ، وَلَا قُدْرَها، ثَلَيْتَ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ الصَّرِيحَةُ بِتَنَاقُلِ قُدْرَةِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْيَانِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَوْصَافِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَقِيلَ لِلطَّائِفَتَيْنِ: إِنَّ الْآيَاتِ وَالنُّصُوصَ كُلَّهَا حَقٌّ، وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ تَصَدِيقُهَا، وَالْإِيمَانُ بِهَا كُلَّهَا، وَأَنَّهَا لَا تَتَنَاقَى، فِيهِ وَاقِعَةٌ مِنْهُمْ، وَبِقُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى خَالِقُهُمْ، وَخَلَقَ قُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ، وَمَا أَجْمَلَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ فَسَّرَتْهُ آيَاتُ أُخْرَى، وَمَا لَمْ يَتَوَضَّحْ فِي مَوْضِعٍ تَوَضَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا كَانَ مَعْرُوفًا بَيْنَ النَّاسِ،

وَوَرَدَ فِيهِ الْقُرْآنُ، أَمْرًا، أَوْ مَهْيًا، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالزَّيْنِ، وَالظُّلْمِ، وَلَمْ يُفَصِّلْهُ، فَلَيْسَ مُجْمَلًا؛ لِأَنَّهُ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ، وَأَحَالَهُمْ عَلَى مَا كَانُوا بِهِ مُتَلَبِّسِينَ، فَلَيْسَ فِيهِ إِشْكَالٌ بَوَاحٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ بَيَّنَّ فِيهَا الْمُؤَلِّفُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ، وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَبِأَنَّهُ جَامِعٌ بَيْنَهُمَا، مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ.

فَعَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ: مُحْكَمٌ، أَيُّ: مُتَقَنٌ، فَأَخْبَارُهُ صِدْقٌ، وَأَحْكَامُهُ عَدْلٌ؛ لِأَنَّ الْحَلَلَ فِي الْخَبَرِ يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ الصِّدْقِ، وَالْحَلَلُ فِي الْحُكْمِ يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ الْعَدْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

إِذَنْ: كُلُّهُ مُحْكَمٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، أَيُّ: مُتَقَنٌ فِي أَخْبَارِهِ وَفِي أَحْكَامِهِ، فَفِي أَخْبَارِهِ نَقُولُ: كُلُّهَا صِدْقٌ لَيْسَ فِيهَا كَذِبٌ، وَفِي أَحْكَامِهِ: كُلُّهَا عَدْلٌ لَيْسَ فِيهَا جَوْرٌ وَلَا ظُلْمٌ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَنَزِيدُ أَيْضًا بِالنِّسْبَةِ لِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنَّ أَحْكَامَهَا كُلُّهَا يُسَرُّ لَيْسَ فِيهَا مَسْقَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، أَيُّ: يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْكَمَالِ، وَالْجُودَةِ فِي الْأَسْلُوبِ، وَبِالْبَلَاغَةِ فِي الصِّدْقِ، وَالْعَدْلِ، وَفِي النَّفْعِ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، فَبَعْضُهُ يُشَبِّهُ بَعْضًا لَا يُخَالِفُهُ أَبَدًا، وَلَا يُنَاقِضُهُ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: الْإِحْكَامِ وَالْتَّشَابُهِ.

فَمَعْنَى الْإِحْكَامِ هُنَا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾

[آل عمران: ٧] أَيُّ: وَاضِحَاتٌ جَلِيلَاتٌ، فَالْإِحْكَامُ هُنَا بِمَعْنَى الْإِيضَاحِ وَالْبَيَانِ.

والمُتَشَابِهُ هُوَ: الْحَقِيقِيُّ الْمَعْنَى الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ وَجْهُ صَوَابِهِ إِلَّا لِلرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] يعني: وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فَيَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ وَيَعْلَمُونَ مِنْهُ مَا يَخْفَى عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَذَا مَحْطُ النَّزاعِ، وَحَكُّ الْأَفْكَارِ، وَمَوْضِعُ الْاِخْتِبَارِ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا رَأَى مِثْلَ هَذِهِ النُّصُوصِ الْمُتَشَابِهَةِ الَّتِي ظَاهِرُهَا يُخَالِفُ بَعْضًا أَخَذَ مِنْهَا سَبِيلاً لِلطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَتَنَاقَضُ، يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ثُمَّ يَقُولُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إِذَا كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا، فَقَدْ مَاتَلَّ مَنْ لَهُ سَمْعٌ وَبَصَرٌ! إِذَنْ: فِيهِ اشْتِبَاهٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنِدُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] يُنَاقِضُ قَوْلَهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرِّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] يُنَاقِضُ قَوْلَهُ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

فَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: كَيْفَ؟ هَذَا تَنَاقُضٌ! نَعَمْ هُمْ قَالُوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وَيَقُولُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فَالَّذِي حَلَفَ أَنَّهُ لَيْسَ مُشْرِكًا كَاتِمٌ، بَلْ حَالِفٌ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ كَاذِبٌ، فَهَذَا تَنَاقُضٌ، وَقَائِلٌ هَذَا هُمْ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، يَتَّبِعُونَ هَذَا الْمُتَشَابِهَ.

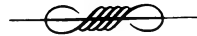
الْوَجْهُ الثَّالِثُ: الْمُحْكَمُ، تَعْرِيفُهُ: الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ، وَالْمُتَشَابِهُ: الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ إِلَّا لِلرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَجْعَلُ هَذَا؟ لِمَاذَا لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمًا ظَاهِرَ الْمَعْنَى بَيِّنًا؟

قُلْتُ: الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ الْامْتِحَانُ وَالْاِخْتِبَارُ؛ لِأَنَّ الزَّائِغِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ ذَلِكَ مَطْعَنًا فِي الْقُرْآنِ؛ لِيُبَرِّرُوا لَا نَفْسَهُمُ الْكُفْرَ بِهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ. وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَيَتَّخِذُونَ مِنْ هَذَا بَيِّنًا لِلْحِكْمَةِ، حِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي جَعْلِ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا؛ حَتَّى يَخَيَّا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ.

وَهَذَا كَمَا نَرَاهُ فِي كَلِمَاتِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ يَكُونُ أَيْضًا فِي كَلِمَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ. فَمَثَلًا: قَدْ يَأْتِي رَجُلٌ إِلَى صَاحِبِ قَبْرِ، فَيَقُولُ: يَا وَلِيَّ اللَّهِ، يَا سَيِّدِي! يَا مَلَجِي! يَا مُسْتَغَاثِي! أَنْقِذْ وَلَدِي مِنَ الْمَرَضِ، فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى الْبَيْتِ وَوَجَدَ وَلَدَهُ قَدْ بَرَأَ! فَيَقَعُ فِي اشْتِبَاهِهِ أَنَّ الَّذِي أَجَابَ دَعْوَتَهُ هَذَا الْوَلِيُّ صَاحِبُ الْقَبْرِ، لَكِنْ عِنْدَمَا يَرُدُّ مِثْلَ هَذِهِ الْحَالِ إِلَى الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، يَقُولُونَ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْقَبْرِ لَيْسَ إِلَهًا دُونَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

فَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الْبُرْءَ لَيْسَ مِنْ أَثَرِ دُعَاءِ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنَّهُ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ حَصَلَ عِنْدَ دُعَاءِ هَؤُلَاءِ لَا بِدُعَائِهِمْ.



القاعدة الحادية والعشرون:

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال
في أحكامه الرجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدة جليّة المقدار، عظيمة النفع؛ فإن الله أمر عباده بالمعروف (وهو: ما عرف حسنه شرعاً، وعقلاً، وعرفاً) ونهاهم عن المنكر (وهو: ما ظهر قبحه شرعاً، وعقلاً، وعرفاً) وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات: كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الربّية - فإنه أمر به في كل وقت، والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة.

وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات: كالشرك، والقتل بغير حق، والزنى، وشرب الخمر، ونحوها - ثبتت في كل زمان ومكان، لا تتغير، ولا يختلف حكمها.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة، والأزمنة، والأحوال، هو المراد هنا؛ فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف، والعادة، والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت؛ وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده شيئاً مخصوصاً من الإحسان والبر؛ ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان

إِلَيْهِمْ فِي وَقْتٍ غَيْرِ الْإِحْسَانِ فِي الْوَقْتِ الْآخِرِ، وَفِي حَقِّ شَخْصٍ دُونَ حَقِّ الشَّخْصِ الْآخِرِ. فَالْوَاجِبُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ: النَّظَرُ فِي الْإِحْسَانِ الْمَعْرُوفِ فِي وَقْتِكَ، وَمَكَانِكَ، فِي حَقِّ وَالِدَيْكَ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ، وَالْجِيرَانِ، وَالْأَصْحَابِ، وَنَحْوِهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ فِي نَوْعِهِ وَجِنْسِهِ وَأَفْرَادِهِ إِلَى مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ إِحْسَانًا، وَكَذَلِكَ ضِدُّهُ مِنَ الْعُقُوقِ، وَالْإِسَاءَةِ، يُنْظَرُ فِيهِ إِلَى الْعُرْفِ.

التعابن

يعني: مَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ النَّاسُ أَنَّ هَذِهِ صَلَاتُهُ يَكْفِي؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَأُطْلِقَ، فَيُرْجَعُ فِيهِ إِلَى مَا سَمَّاهُ النَّاسُ صَلَاةً؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالصَّلَاةِ زَوَالُ مَا فِي الْقُلُوبِ وَائْتِلَافُهَا، إِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهُ أَوْ قَرِيبَهُ لَا يَزُورُهُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْعِيدِ أَوْ فِي الْأُسْبُوعِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مَا صَارَ ذَلِكَ قَطِيعَةً، فَمَا عُدَّ صَلَاةً فَهُوَ صَلَاةً. أَمَّا مَنْ كَانَ لَا يَأْتِيهِمْ أَبَدًا، وَلَا يَأْتِيهِمْ فِي الْمُنَاسَبَاتِ، وَلَا يَدْرِي عَنْهُمْ، وَلَا يَزُورُهُمْ، وَلَا يَعْرِفُ إِذَا مَرَضُوا أَوْ مَاتُوا - فَهَذِهِ قَطِيعَةٌ.

وَقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَاجِعٌ فِي نَوْعِهِ وَجِنْسِهِ وَأَفْرَادِهِ» النَّوعُ يَخْتَلِفُ، فَمَثَلًا: أَحَدُ تَصَلُّهُ بِدَرَاهِمٍ، وَأَحَدُ تَصَلُّهُ بِثَوْبٍ، وَأَحَدُ تَصَلُّهُ بِقَلَمٍ، حَسَبَ الْأَفْرَادِ. حَسَبَ الْجِنْسِ: لَوْ أُعْطِيَ شَخْصًا كَبِيرًا عَظِيمًا غَنِيًّا مِئَةَ رِيَالٍ لَغَضِبَ عَلَيْكَ، وَلَوْ أُعْطِيَتْهَا قَرِيبًا فَقِيرًا لَفَرَحَ وَسَرَّهُ ذَلِكَ.

أَمَّا مَا دَلَّ الشَّرْعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ صَلَاةً، فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: نَحْنُ

تَعَارَفْنَا أَنَّ ابْنَةَ الْعَمِّ تُصَافِحُ ابْنَ عَمِّهَا بِيَدِهَا، وَلَوْ قَالَتْ لَهُ: هَذَا حَرَامٌ، وَكَفَّتْ يَدَهَا، لَعُذِبَ.

نَقُولُ: الشَّيْءُ الَّذِي نَصَّ الشَّرْعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَوَاصَلَ النَّاسُ بِهِ أَبَدًا.



وكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فَرَدَّ اللَّهُ الزَّوْجَيْنِ فِي عِشْرَتِهِمَا وَأَدَاءِ حَقِّ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخِرِ عَلَى الْمَعْرُوفِ الْمُعْتَادِ عِنْدَ النَّاسِ فِي قُطْرِكَ، وَبِلَدِكَ، وَحَالِكَ؛ وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا عَظِيمًا لَا يُمَكِّنُ إِحْصَاؤُهُ عَدًّا، فَدَخَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ الْمُخْتَصِرَةِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَبَرَاهِينِ صِدْقِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرَيْسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] فَأَمَرَ عِبَادَهُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ، وَلَمْ يُعَيِّنْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، فَيَتَعَلَّقُ بِهَا أَمْرُهُ حَيْثُ كَانَتْ، لَا يُنْظَرُ إِلَى مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْهَا وَقْتَ نَزُولِ الْقُرْآنِ فَقَطْ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ السَّلَاحَ وَالْقُوَّةَ الْمَوْجُودَةَ وَقْتَ نَزُولِ الْقُرْآنِ غَيْرُ نَوْعِ الْقُوَّةِ الْمَوْجُودَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَذَا النَّصُّ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يُسْتَطَاعُ مِنَ الْقُوَّةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَيَلِيْقُ بِهِ.

وكَذَلِكَ لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]

لَمْ يُعَيِّنْ لَنَا نَوْعًا مِنَ التِّجَارَةِ، وَلَا جِنْسًا، وَلَمْ يُحَدِّدْ لَنَا الْفَازَاطَ يَحْصُلُ بِهَا الرِّضَى،
 وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ كُلَّ مَا عُدَّ تِجَارَةً مَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ الشَّارِعُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا حَصَلَ
 بِهِ الرِّضَى مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ انْعَقَدَتْ بِهِ التِّجَارَةُ، فَمَا حَقَّقَ الرِّضَى مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ
 انْعَقَدَتْ بِهِ الْمَعَاوِضَاتُ وَالتَّبَرُّعَاتُ، وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا النَّوعِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.



القاعدة الثانية والعشرون:

في مقاصد أمثلة القرآن

اعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اخْتَوَى عَلَى أَعْلَى، وَأَكْمَلٍ، وَأَنْفَعِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْخَلْقُ إِلَيْهَا فِي جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ، فَقَدْ اخْتَوَى عَلَى أَحْسَنِ طُرُقِ التَّعْلِيمِ، وَإِيصَالِ الْمَعَانِي إِلَى الْقُلُوبِ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ وَأَوْضَحِهِ.

فَمِنْ أَنْوَاعِ تَعَالِيمِهِ الْعَالِيَةِ: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، وَهَذَا النَّوعُ يَذْكُرُهُ الْبَارِي فِي الْأُمُورِ الْمُهْمَّةِ؛ كَالْتَوْحِيدِ، وَحَالِ الْمُوَحِّدِ، وَالشِّرْكِ، وَحَالَةِ أَهْلِهِ، وَالْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ الْجَلِيلَةِ، وَيُقْصَدُ بِذَلِكَ كُلُّهُ تَوْضِيحُ الْمَعَانِي النَّافِعَةِ، وَتَمْثِيلُهَا بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ؛ لِيَصِيرَ الْقَلْبُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُ مَعَانِيهَا رَأْيَ عَيْنٍ، وَهَذَا مِنْ عِنَايَةِ الْبَارِي بِعِبَادِهِ، وَلُطْفِهِ، فَقَدْ مَثَّلَ اللَّهُ الْوَحْيَ وَالْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ بِالْغَيْثِ وَالْمَطَرِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ، وَقُلُوبَ النَّاسِ بِالْأَرَاظِي وَالْأُودِيَةِ، وَأَنَّ عَمَلَ الْوَحْيِ وَالْعِلْمِ فِي الْقُلُوبِ كَعَمَلِ الْغَيْثِ وَالْمَطَرِ فِي الْأَرَاظِي:

فَمِنْهَا أَرَاظٍ طَيِّبَةٌ تَقْبَلُ الْمَاءَ، وَتُنْبِتُ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، كَمَثَلِ الْقُلُوبِ الْفَاهِمَةِ، الَّتِي تَفْهَمُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخِيَهُ، وَكَلَامَهُ، وَتَعْقِلُهُ، وَتَعْمَلُ بِهِ: عِلْمًا، وَتَعْلِيمًا، بِحَسَبِ حَالِهَا؛ كَالْأَرَاظِي بِحَسَبِ حَالِهَا.

وَمِنْهَا أَرَاظٍ تُمَسِّكُ الْمَاءَ وَلَا تُنْبِتُ الْكَلَاءَ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِالْمَاءِ الَّذِي تُمَسِّكُهُ، فَيَشْرَبُونَ وَيَسْقُونَ مَوَاشِيَهُمْ وَأَرَاظِيَهُمْ؛ كَالْقُلُوبِ الَّتِي تَحْفَظُ الْوَحْيَ مِنَ الْقُرْآنِ

والسُّنَّة، وتُلْقِيهِ إِلَى الْأُمَّةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَهَا مِنَ الدَّرَائِيَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَعَانِيهِ مَا عِنْدَ الْأَوَّلِينَ، وَهَؤُلَاءِ عَلَى خَيْرٍ، وَلَكِنَّهُمْ دُونَ أَوْلَئِكَ.

وَمِنْهَا أَرْضِي لَا تُنْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا؛ كَمَثَلِ الْقُلُوبِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِالْوَحْيِ، لَا عِلْمًا، وَلَا حِفْظًا، وَلَا عَمَلًا.

وَمُنَاسَبَةُ الْأَرْضِ لِلْقُلُوبِ كَمَا تَرَى فِي غَايَةِ الظُّهُورِ...

التفصيل

الْأَوَّلُونَ بِمَنْزِلَةِ الْأَطِبَّاءِ، وَالْآخِرُونَ بِمَنْزِلَةِ الصَّيَادِلَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ انْتِفَاعَ النَّاسِ بِالْأَطِبَّاءِ أَكْثَرُ مِنْ انْتِفَاعِهِمْ بِالصَّيَادِلَةِ، فَحِفَاطُ الْحَدِيثِ وَرَوَاةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ فِقْهٌ وَعِلْمٌ هُمْ بِمَنْزِلَةِ هَؤُلَاءِ، مِثْلُ الْأَرْضِ الَّتِي يُصِيبُهَا الْمَطَرُ، لَكِنَّهَا لَا تُنْبِتُ، وَإِنَّمَا تَحْفَظُ الْمَاءَ، فَمَنْ جَاءَ اسْتَقَى وَشَرِبَ وَانْتَفَعَ. وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، فَإِنَّهُمْ كَالْأَرْضِ الْخَصْبَةِ الَّتِي تُنْبِتُ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِ.



... وَأَمَّا مُنَاسَبَةُ تَشْبِيهِ الْوَحْيِ بِالْغَيْثِ فَكَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْغَيْثَ فِيهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، وَالْعِبَادِ، وَأَرْزَاقُهُمْ الْحِسِّيَّةُ. وَالْوَحْيُ فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، وَمَادَّةُ أَرْزَاقِهِمْ الْمَعْنَوِيَّةُ.

وكَذَلِكَ مِثْلُ اللَّهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ التَّوْحِيدِ ثَابِتَةٌ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا، مَعْرِفَةٌ، وَتَصَدِيقًا، وَإِيمَانًا، وَإِرَادَةً لُوجِبِهَا، وَتُؤْتِي أَكْلَهَا - وَهُوَ مَنْافِعُهَا - كُلَّ وَقْتٍ، مِنَ النِّيَّاتِ الطَّيِّبَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الزَّكِيَّةِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْهَدْيِ الْمُسْتَقِيمِ، وَنَفْعِ صَاحِبِهَا، وَانْتِفَاعِ

النَّاسِ بِهِ، وَهِيَ صَاعِدَةٌ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِإِخْلَاصِ صَاحِبِهَا، وَعِلْمِهِ، وَيَقِينِهِ.

وَمَثَلُ اللَّهِ الشُّرْكَ وَالْمُشْرِكُ بَأَنَّ مَنْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا يَتَعَزَّزُ بِهِ، وَيَزْعُمُ مِنْهُ النَّفْعَ، وَدَفَعَ الضَّرَرَ، فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ؛ كَالْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَهُوَ أَوْهَنُ الْبُيُوتِ، وَأَوْهَاهَا، فَمَا أَزْدَادَتْ بِاتِّخَاذِهِ إِلَّا ضَعْفًا إِلَى ضَعْفِهَا!! كَذَلِكَ الْمُشْرِكُ مَا أَزْدَادَ بِاتِّخَاذِهِ وَلِيًّا وَنَصِيرًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا ضَعْفًا؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ انْقَطَعَ قَلْبُهُ عَنِ اللَّهِ حَلَّهُ الضَّعْفُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَتَعَلَّقَهُ بِالْمَخْلُوقِ زَادَهُ وَهْنًا إِلَى وَهْنِهِ، فَإِنَّهُ اتَّكَلَ عَلَيْهِ، وَظَنَّ مِنْهُ حُصُولَ الْمَنَافِعِ، فَخَابَ ظَنُّهُ وَانْقَطَعَ أَمَلُهُ!!

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ: فَإِنَّهُ قَوِيَ بِاللَّهِ بِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَتَعَلَّقَهُ بِاللَّهِ وَخَدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْأَمْرُ، وَالنَّفْعُ، وَدَفَعَ الضَّرَرَ، وَهُوَ مُتَصَرِّفٌ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا؛ كَالْعَبْدِ الَّذِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، مُنْطَلِقَ الْإِرَادَةِ، حُرًّا عَنْ رِقِّ الْمَخْلُوقِينَ، غَيْرَ مُقَيَّدٍ لَهُمْ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، بِخِلَافِ الْمُشْرِكِ، فَإِنَّهُ كَالْعَبْدِ الْأَصَمِّ الْأَبْكَمِ، الَّذِي هُوَ كُلُّهُ عَلَى مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ مُتَقَيَّدٌ لِلْمَخْلُوقِينَ، مُسْتَرِقٌّ لَهُمْ، لَيْسَ لَهُ انْطِلَاقٌ وَتَصَرُّفٌ فِي الْخَيْرِ، فَمَثَلُهُ أَيْضًا كَالَّذِي خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَتْهُ الطُّيُورُ، وَمَزَقَتْهُ كُلُّ مُمَزَّقٍ.

وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويُدعون، لو اجتمعوا كلُّهم على خلقٍ أضعف المخلوقات - وهو الذباب - لم يَقْدِرُوا بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ، فَكَيْفَ بَعْضُهُمْ؟! فَكَيْفَ بَقَرْدٍ مِنْ مِائَةِ الْأُلُوفِ مِنْهُمْ؟! وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الذَّبَابَ لَوْ يَسْلُبُهُمْ شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى اسْتِخْلَاصِهِ مِنْهُ وَرَدِّهِ، فَهَلْ فَوْقَ هَذَا الضَّعْفِ ضَعْفٌ؟ وَهَلْ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْعُرُورِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُ شَيْءٌ؟

وَهُوَ مَعَ هَذَا الْغُرُورِ، وَهَذَا الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ مُنْقَسِمٌ قَلْبُهُ بَيْنَ عِدَّةِ إِلَهَةٍ؛ كَالْعَبْدِ الَّذِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ الْمُتَشَاكِسِينَ، لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ إِرْضَاءِ أَحَدِهِمْ دُونَ الْآخَرِ، فَهُوَ مَعَهُمْ فِي شَرِّ دَائِمٍ، وَشَقَاءٍ مُتَرَكَمٍ.

فَلَوْ اسْتَحْضَرَ الْمُشْرِكُ بَعْضَ هَذِهِ الْأُخْوَالِ الْوَحِيمَةِ لَرَبَّأَ بِنَفْسِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَلَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَضَاعَ عَقْلَهُ وَرَأْيَهُ بَعْدَمَا أَضَاعَ دِينَهُ.

وَأَمَّا الْمُوَحِّدُ، فَإِنَّهُ خَالِصٌ لِرَبِّهِ، لَا يَعْبُدُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَرْجُو وَيَخْشَى إِلَّا هُوَ، وَقَدْ أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَاسْتَرَاحَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَأَنَّ عَاقِبَتَهُ أَحْمَدُ الْعَوَاقِبِ، وَمَالَهُ الْخَيْرُ وَالْفَلَاحُ، وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، فَهُوَ فِي حَيَاةٍ طَيِّبَةٍ، وَيَطْمَعُ فِي حَيَاةٍ أَطْيَبَ مِنْهَا.

وَمَثَلُ اللَّهِ الْأَعْمَالِ بِالْبَسَاتِينِ، فَذَكَرَ الْعَمَلَ الْكَامِلَ الْخَالِصَ لَهُ، الَّذِي لَمْ يَعْرِضْ لَهُ مَا يُفْسِدُهُ كَبُسْتَانٍ فِي أَحْسَنِ الْمَوَاضِعِ وَأَعْلَاهَا، تَتَابُعُ الرِّيحِ النَّافِعَةِ، وَقَدْ صَحَى وَبَرَزَ لِلشَّمْسِ، وَفِي خِلَالِهِ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ الْمُتَدَفِّقَةُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَزِيرَةً فَإِنَّهَا كَافِيَةٌ لَهُ، كَالطَّلِّ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَازْرُؤْهُ أَطْيَبُ الْأَرْضِ وَأَزْكَاهَا، فَمَعَ تَوَفُّرِ هَذِهِ الشُّرُوطِ لَا تَسْأَلُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ زَهَاءِ الْأَشْجَارِ، وَطَيِّبِ الظَّلَالِ، وَوُفُورِ الثَّمَارِ، فَصَاحِبُهُ فِي نَعِيمٍ وَرَغَدٍ مُتَوَاصِلٍ، وَهُوَ آمِنٌ عَنِ انْقِطَاعِهِ وَتَلْفِهِ.

فَإِنْ كَانَ هَذَا الْبُسْتَانُ لِلْإِنْسَانِ قَدْ كَبِرَ وَضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ، وَعِنْدَهُ عَائِلَةٌ ضِعَافٌ، لَا مُسَاعَدَةَ مِنْهُمْ وَلَا كِفَاءَةً، وَقَدْ اغْتَبَطَ بِهِ حَيْثُ كَانَ مَادَّتُهُ، وَمَادَّةَ عَائِلَتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَتْهُ آفَةٌ وَإِعْصَارٌ أَخْرَقَهُ، وَأَتْلَفَهُ عَنْ آخِرِهِ، فَكَيْفَ تَكُونُ حَسْرَةُ هَذَا الْمَغْرُورِ؟! وَكَيْفَ تَكُونُ مُصِيبَتُهُ؟! وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَاءَ بَعْدَ الْعَمَلِ بِمَا يُبْطِلُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ مِنَ الشُّرْكِ، أَوِ النِّفَاقِ، أَوِ الْمَعَاصِي الْمُخْرِقَةِ، فَيَا وَيْحَهُ بَعْدَمَا كَانَ بُسْتَانُهُ

زَاكِيًا زَاهِيًا أَصْبَحَ تَالِفًا! قَدْ أَيْسَ مِنْ عَوْدِهِ، وَبَقِيَ بِحَسْرَتِهِ مَعَ عَائِلَتِهِ!!

فهذا مِنْ أَحْسَنِ الْأَمْثَالِ وَأَنْسَبِهَا، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ صِفَةَ بُسْتَانٍ مَنْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَبُسْتَانٍ مَنْ أَبْطَلَ عَمَلَهُ بِمَا يُنَافِيهِ وَيُضَادُّهُ. وَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الَّذِي لَمْ يُؤَفَّقْ لِلإِيمَانِ وَلَا لِلْعَمَلِ أَصْلًا، أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ بُسْتَانٌ أَصْلًا.

وَوَجْهٌ تُشَبِّهِهِ الْأَعْمَالُ بِالْبَسَاتِينِ: أَنَّ الْبَسَاتِينَ تَمُدُّهَا الْمِيَاهُ، وَطِيبُ الْمَحَلِّ، وَحُسْنُ الْمَوْقِعِ؛ فَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ، يَمُدُّهَا الْوَحْيُ النَّازِلُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ الطَّيِّبَةِ، وَقَدْ جَمَعَ الْعَامِلُ جَمِيعَ شُرُوطِ قَبُولِ الْعَمَلِ، مِنَ الْجِتْهَادِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالْمُتَابَعَةِ، فَأَثْمَرَ عَمَلُهُ كُلَّ زَوْجٍ بِرَيْحٍ.

وقد مثلَ اللَّهُ عَمَلَ الْكَافِرِ بِالسَّرَابِ الَّذِي يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً، فَيَأْتِيهِ وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الظَّمُّ، وَأَنَّهُكَ الْإِعْيَاءُ، فَيَجِدُهُ سَرَابًا!! وَمَثَلُهُ بِالرَّمَادِ الَّذِي أُحْرِقَ، فَجَاءَتْهُ الرِّيحُ فَذَرَتْهُ، فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةً، وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِحَالِهِ، وَبُطْلَانِ عَمَلِهِ، فَإِنَّ كُفْرَهُ وَمَعَاصِيَهُ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ الْمُحْرِقَةِ، وَعَمَلُهُ بِمَنْزِلَةِ الرَّمَادِ وَالسَّرَابِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَهُوَ كَانَ يَعْتَقِدُهُ نَافِعًا لَهُ، فَإِذَا وَصَلَهُ وَلَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ، وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْفَاهُ حِسَابَهُ.

كَمَا مَثَلَ نَفَقَاتِ الْمُخْلِصِينَ بِذَلِكَ الْبُسْتَانِ الزَّكِيِّ الزَّاهِي، وَمَثَلَ نَفَقَاتِ الْمُرَائِينَ بِحَجَرٍ أَمْلَسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ تُرَابٍ، فَأَصَابَهُ مَطَرٌ شَدِيدٌ تَرَكَهُ صَلْدًا لَا شَيْءَ فِيهِ؛ لِأَنَّ قَلْبَ الْمُرَائِي لَا إِيْمَانُ فِيهِ، وَلَا إِخْلَاصَ، بَلْ هُوَ قَاسٍ كَالْحَجَرِ، فَتَفَقَّتْهُ حَيْثُ لَمْ تَصْدُرْ عَنْ إِيْمَانٍ، بَلْ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ، لَمْ تُؤَثِّرْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ وَلَا زَكَاةٌ، كَهَذَا الْمَطَرِ الَّذِي لَمْ يُؤَثِّرْ فِي هَذَا الْحَجَرِ الْأَمْلَسِ شَيْئًا.

وهذه الأمثال إِذَا طُبِّقَتْ عَلَى مُثَلَّاتِهَا وَضَحَّتْهَا وَبَيَّنَّتْهَا، وَبَيَّنَتْ مَرَاتِبَهَا مِنَ الْحَيْرِ، وَالشَّرِّ، وَالْكَمَالِ، وَالنُّقْصَانِ.

ومثل الله حال المنافقين بحال مَنْ هُوَ فِي ظُلْمَةٍ، فاستوقَدَ نَارًا مِنْ غَيْرِهِ، ثُمَّ لَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَتَبَيَّنَ لَهُ الطَّرِيقُ ذَهَبَ نُورُهُمْ، وانطَفَأَ ضَوْوُهُمْ، فبقُوا فِي ظُلْمَةٍ عَظِيمَةٍ أَعْظَمَ مِنَ الظُّلْمَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا أَوَّلًا!! وهكذا المنافق، استنارَ بنور الإيمان، فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ الشُّقُوءُ، واستولَتْ عَلَيْهِ الْحَيْرَةُ، فَذَهَبَ عَنْهُ نُورُهُ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ، وَبَقِيَ فِي ظُلْمَةٍ مُتَحِيرًا، فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ؛ لِأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ أَنَّ مَنْ بَانَ لَهُ الْهُدَى، وَاتَّضَحَ لَهُ الْحَقُّ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يُوفِّقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْهُدَايَةِ؛ لِأَنَّهُ رَأَى الْحَقَّ فَتَرَكَهُ، وَعَرَفَ الضَّلَالَ فَاتَّبَعَهُ، وَهَذَا الْمَثَلُ يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ تَبَصَّرُوا وَعَرَفُوا، ثُمَّ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَغْرَاضُ الضَّارَّةُ، فَتَرَكُوا الْإِيمَانَ.

التعليق

قَوْلُهُ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ فِيهَا حَرَارَةٌ وَفِيهَا نُورٌ، فَإِذَا ذَهَبَ النَّورُ حَلَّتِ الظُّلْمَةُ وَبَقِيَتْ أَيْضًا الْحَرَارَةُ، فَصَارُوا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فِي حَرَارَةٍ وَظُلْمَةٍ. فَهَؤُلَاءِ لَمَّا رَأَوْا الْإِيمَانَ وَتَرَكُوهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ولهذا مِنْ أَشَدِّ مَا يَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُبَيِّنُ لَهُ الْحَقُّ، وَلَوْ فِي مَسْأَلَةٍ جُزْئِيَّةٍ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ اتِّبَاعًا لِهَوَى نَفْسِهِ، أَوْ خَوْفًا مِنَ الْعَامَّةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذَا رَبُّمَا يُحَرِّمُ الْحَقَّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَلَا يُبَيِّنُ لَهُ، أَوْ يُبَيِّنُ لَهُ وَيُصِرُّ عَلَى خِلَافِهِ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا

عَلِمَ الْحَقُّ أَنَّ يُبَادِرَ إِلَيْهِ أَيًّا كَانَ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي أَصُولِ الدِّينِ أَمْ فِي فُرُوعِهِ، إِنَّ صَحَّ أَنْ تُقَسِّمَ الدِّينَ إِلَى أَصُولٍ وَفُرُوعٍ، بَعْضُ الْعُلَمَاءِ - كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ - يَقُولُ: الدِّينُ لَا يَنْقَسِمُ إِلَى أَصُولٍ وَفُرُوعٍ، وَالتَّقْسِيمُ إِلَى أَصُولٍ وَفُرُوعٍ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ، فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ^(١). مَا هِيَ الْأُصُولُ وَمَا هِيَ الْفُرُوعُ؟

وَعَلَى حَسَبِ تَقْسِيمِهِمْ: الْأُصُولُ هِيَ الْأُمُورُ الْعِلْمِيَّةُ، وَالْفُرُوعُ هِيَ الْأُمُورُ الْعَمَلِيَّةُ، الْأُصُولُ مَا لَا عُذْرَ فِيهِ بِالْجَهْلِ، وَالْفُرُوعُ مَا يُعْذَرُ فِيهِ بِالْجَهْلِ، وَهَذَا صَحِيحٌ حَسَبَ مَا قَسَّمُوهُ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ حَسَبَ الْوَاقِعِ؛ فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ لَا شَكَّ أَنَّهَا أُصُولٌ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢) وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

فَالصَّحِيحُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الدِّينَ لَهُ أَرْكَانٌ وَلَهُ شَرَائِعُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: فِي الدِّينِ قُشُورٌ! فَلَيْسَ فِي الدِّينِ شَيْءٌ اسْمُهُ قُشُورٌ. كُلُّ الدِّينِ لُبٌّ، لَكِنْ بَعْضُهُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، أَوْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَبَعْضُهُ دُونَ ذَلِكَ.



وَالْمِثَالُ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ ذَاتِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُتَأَفِّقِينَ، الضَّالِّينَ، الْمُتَحَيِّرِينَ، الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْرِفُوا الْمُرَادَ مِنْهُ،

(١) مجموع الفتاوى (٦/٥٦-٥٧، ١٣/١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَكَرِهُوا سَمَاعَهُ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ وَسَادَتِهِمْ.

وَمَثَلُ اللَّهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزَهْرَتَهَا، وَالْأَغْتِرَارُ بِهَا، بِحَالَةِ زَهْرَةِ الرَّبِيعِ، تُعْجِبُ النَّاطِرِينَ، وَتَغُرُّ الْجَاهِلِينَ، وَيَظُنُّونَ بَقَاءَهَا، وَلَا يُؤَمِّلُونَ زَوَالَهَا، فَلَهُوَ بِهَا عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، فَأُصْبَحَتْ عَنْهُمْ رَائِلَةٌ، وَأُضْحُوا لِإِنْعِيمِهَا مُفَارِقِينَ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، كَهَذَا الرَّبِيعِ إِذَا أَصْبَحَ بَعْدَ الْإِخْضَارِ هَشِيمًا، وَبَعْدَ الْحَيَاةِ يَبَسًا رَمِيمًا، وَهَذَا الْوَصْفُ قَدْ شَاهَدَهُ الْخَلْقُ، وَاعْتَرَفَ بِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَلَكِنْ سُكِرَ الشَّهَوَاتِ، وَضَعُفُ دَاعِي الْإِيمَانِ اقْتَضَى إِثَارَ الْعَاجِلِ عَلَى الْآجِلِ.

التفصيل

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَيَانَ الْقُرْآنِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: بَيَانٌ مُسْتَقِلٌّ، وَبَيَانٌ بَضْرِبِ الْأَمْثَالِ؛ وَهُوَ تَشْبِيهُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ لِيَتَّضِحَ وَيَتَيَّنَ، فَإِنَّ ضَرْبَ الْأَمْثَالِ يُقَرِّبُ الْمَعَانِيَ إِلَى الْأَذْهَانِ، فَإِنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ تَصِفُ حَالَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا، فِي الذُّلِّ وَالضَّعْفِ وَعَدَمِ وُضُولِ الْمَقْصُودِ، لَوْ ذَهَبْتَ تَتَكَلَّمُ بِصَفْحَةٍ كَامِلَةٍ مَا كَانَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] هَذَا وَاضِحٌ جَدًّا، مَعَ أَنَّهُ كَلِمَاتٌ يَسِيرَةٌ؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ الْأُمُورَ الْمَعْقُولَةَ بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ الْبَيِّنَةِ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: ١٤] فَالَّذِي يَمُدُّ يَدَيْهِ وَيَدْعُو هَذِهِ الْأَصْنَامَ كَالَّذِي يَبْسُطُ يَدَيْهِ إِلَى الْمَاءِ، وَلَوْ بَسَطْتَ يَدَكَ إِلَى الْمَاءِ هَلْ يَصِلُ إِلَيْكَ؟

أَبَدًا، لَا يَصِلُ، بَلْ وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَى يَدِكَ، فَهَكَذَا أَيْضًا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

فِيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّ مِنْ طُرُقِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِهِ ضَرْبَ الْأَمْثَالِ،
وَهُوَ تَشْبِيهُ الْأَشْيَاءِ الْمَعْقُولَةِ بِالْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ؛ لِتَبَيِّنِ فِي الذَّهْنِ صُورَتَهَا، وَتَتَضَحَّ
بِأَقْرَبِ وَسِيلَةٍ مُمَكِّنَةٍ.



القاعدة الثالثة والعشرون:

إرشادات القرآن على نوعين

أحدهما: أن يُرشد أمراً، ومهياً، وخبراً، إلى أمرٍ معروفٍ شرعاً، أو معروفٍ عرفاً، كما تقدّم.

والنوع الثاني: أن يُرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصولٍ معروفة، ويُعمل الفكر في استفادة المنافع منها.
وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أمّا النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية، والأمور الحكمية داخله فيها.

وأمّا النوع الثاني - وهو المقصود هنا - فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكير في خلق السماوات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها، وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] ونبه العقول على التفكير فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها؛ وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها، وأوصافها، وانتظامها، ولأي شيء خلقت؟ ولأي فائدة أُنشئت؟ وماذا فيها من الآيات؟ وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، وما له من النعم

الوَاسِعَةِ، وَالْأَيْدِي الْمُتَكَثِرَةِ، وَعَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْمَعَادِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَعَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ، وَحَقِّيَّةِ مَا جَاؤُوا بِهِ. وَهَذَا النَّوعُ قَدْ أَكْثَرَ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَكُلُّ ذَكَرَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الْآيَاتِ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا أُولُو الْأَلْبَابِ، وَهَذَا أَجَلُ الْعِلْمَيْنِ، وَأَعْلَاهُمَا، وَأَكْمَلُهُمَا.

وَالْعِلْمُ الثَّانِي: أَنَّنَا تَفَكَّرُ فِيهَا، وَنَسْتَخْرِجُ مِنْهَا الْمَنَافِعَ الْمُتَنَوِّعَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَخَّرَهَا لَنَا، وَسَلَّطَنَا عَلَى اسْتِخْرَاجِ جَمِيعِ مَا لَنَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَيْرَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ، فَسَخَّرَ لَنَا أَرْضَهَا لِنَحْرُثَهَا، وَنَزَّرَ عَهَا، وَنَغْرَسَهَا، وَنَسْتَخْرِجُ مَعَادِنَهَا وَبَرَكَتَهَا، وَجَعَلَهَا طَوْعَ عُلُومِنَا وَأَعْمَالِنَا؛ لِنَسْتَخْرِجَ مِنْهَا الصَّنَاعَاتِ النَّافِعَةَ، فَجَمِيعُ فُنُونِ الصَّنَاعَاتِ - عَلَى كَثَرَتِهَا، وَتَنَوُّعِهَا، وَتَمَوُّقِهَا، لَا سِيَّما فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ - كُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي تَسْخِيرِهَا لَنَا.

وَقَدْ عُرِفَتِ الْحَاجَةُ، بَلِ الضَّرُورَةُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ إِلَى اسْتِئْطَابِ الْمَنَافِعِ مِنْهَا، وَتَرْقِيَةِ الصَّنَائِعِ إِلَى مَا لَا حَدَّ لَهُ، وَقَدْ ظَهَرَ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ مِنْ مَوَادِّهَا وَعَنَاصِرِهَا أُمُورٌ فِيهَا فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ لِلْحَلْقِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي قَاعِدَةِ اللَّازِمِ: أَنَّ مَا لَا تَتِمُّ الْأُمُورُ الْمَطْلُوبَةُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ مَطْلُوبٌ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَعَلَّمَ الصَّنَاعَاتِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ الْحَادِثَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَطْلُوبَةِ شَرْعًا، كَمَا هِيَ مَطْلُوبَةٌ لِازِمَةٍ عَقْلًا، وَأَنَّهَا مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ نَبَّهَ الْعِبَادَ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَ الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْعَوْا لِتَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَنَافِعِ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَى تَحْصِيلِهَا، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بِالتَّجَارِبِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ، وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، بِأَنْ أَبَاحَ لَهُمْ جَمِيعَ النِّعَمِ، وَيَسَّرَ لَهُمُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا بِطَرِيقٍ لَا تَزَالُ تَحْدُثُ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي عِدَّةٍ

آيَاتِ أَنَّهُ تَذَكُّرَةٌ يَتَذَكَّرُ بِهَ الْعِبَادُ كُلُّ مَا يَنْفَعُهُمْ فَيَسْلُكُونَهُ، وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيُتْرَكُونَهُ، وَأَنَّهُ هِدَايَةٌ لِجَمِيعِ الْمَصَالِحِ.

التعاليق

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْشَدَ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّ إِرْشَادَهُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَوْامِرُ وَنَوَاهٍ وَأَخْبَارٌ فِيهَا عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

وَالثَّانِي: إِرْشَادٌ إِلَى أُمُورٍ وَرَاءَ ذَلِكَ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى كَمَالِ عَظَمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ، وَيَتَفَعَّلُونَ بِهَا أَيْضًا فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْإِنْسَانُ أَنَّ فِي الْحَدِيدِ بَأْسًا شَدِيدًا، اعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ وَإِلَى مَتَانَةٍ. وَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِيهِ مَنَافِعَ أُخْرَى ذَهَبَ يَطْلُبُ هَذِهِ الْمَنَافِعَ، وَيُكَيِّفُ هَذَا الْحَدِيدَ، فَيَضْهَرُهُ وَيَصْنَعُهُ عَلَى حَسَبِ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي أَرَادَهَا، فَلَوْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ شَرَحَ هَذِهِ الْمَنَافِعَ وَكَيْفَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا، لَكَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَى مُجَلَّدَاتٍ، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ هَذَا الْعِلْمِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يَعْرِفُونَ عَنْ هَذَا شَيْئًا، فَإِذَا قَالَ اللَّهُ جَلَّوَعَلَا: الْحَدِيدُ فِيهِ مَنَافِعُ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنَا نُسَحَّرُ عُلُومَنَا وَأَفْهَامَنَا لِلْوُصُولِ إِلَى تِلْكَ الْمَنَافِعِ الَّتِي عَبَّرَ اللَّهُ عَنْهَا فِي هَذَا الْجَمْعِ، الَّذِي هُوَ صِيغَةُ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ.

القاعدة الرابعة والعشرون:

القرآن يُرشدُ إلى التَّوسُّطِ والاعتدالِ في الأمور
ويذمُّ التَّقْصِيرَ والغُلُوَّ ومُجَاوِزَةَ الحَدِّ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] والآياتُ الأَمْرُ بِالْعَدْلِ والنَّاهِيَةُ عَنْ ضِدِّهِ كَثِيرَةٌ، وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ: لُزُومُ الْحَدِّ فِيهَا، وَأَنْ لَا يَغْلُوَ وَيَتَجَاوَزَ الْحَدَّ، كَمَا لَا يَقْصُرُ وَيَدْعُ بَعْضَ الْحَقِّ، فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: أَمَرَ بِالْتَّمَسُّكِ بِمَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَنَهَى عَنْ مُجَاوِزَةِ ذَلِكَ وَتَعَدِّي الْحُدُودِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَذَمَّ الْمُقْصِرِينَ عَنْهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ.

فَالْعِبَادَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا: مَا جَمَعَتْ الْإِخْلَاصَ لِلْمَعْبُودِ، وَالْمُتَابَعَةَ لِلرَّسُولِ. وَمَا فَقَدَ فِيهِ الْأَمْرَانِ، أَوْ أَحَدُهُمَا، فَهِيَ مِنَ الْأَعْمَالِ اللَّائِغَةِ.

وَفِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّم: أَمَرَ بِالْإِعْتِدَالِ، وَهُوَ: الْإِيمَانُ بِهِمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ الْمَقْدَمَةُ عَلَى مَحَبَّةِ الْخَلْقِ، وَتَوْقِيرُهُمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ، وَمَعْرِفَةُ أَقْدَارِهِمْ، وَمَرَاتِبُهُمُ الَّتِي أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهَا. وَنَهَى عَنِ الْغُلُوِّ فِيهِمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ: أَنْ يُزَفَعُوا فَوْقَ مَنْزِلَتِهِمُ الَّتِي أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ، وَيُجْعَلَ لَهُمْ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ - الَّتِي لَا يُشَارِكُ فِيهَا مُشَارِكٌ - شَيْءٌ.

كَمَا نَهَى عَنِ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِهِمْ، وَمَحَبَّتِهِمْ، وَتَرْكِ تَوْقِيرِهِمْ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ، وَذَمَّ الْغَالِينَ فِيهِمْ - كَالنَّصَارَى وَنَحْوِهِمْ فِي عِيسَى - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَمَا ذَمَّ

الْجَافِينَ لَهُمْ - كَالْيَهُودِ حَيْثُ قَالُوا فِي عِيسَى مَا قَالُوا - وَذَمٌّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ؛ فَامَنْ بَعْضُ دُونَ بَعْضٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا كُفْرٌ بِجَمِيعِهِمْ.

وكَذَلِكَ يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، يَجِبُ مَحَبَّتُهُمْ، وَمَعْرِفَةُ أَقْدَارِهِمْ، وَلَا يَحِلُّ الْغُلُوُّ فِيهِمْ، وَإِعْطَاؤُهُمْ شَيْئًا مِنْ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ الْخَاصِّ، وَلَا يَحِلُّ جَفَاؤُهُمْ وَعَدَاوَتُهُمْ، فَمَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَهُ بِالْحَرْبِ.

وَأَمَرَ بِالتَّوَسُّطِ بِالنَّفَقَاتِ، وَالصَّدَقَاتِ، وَنَهَى عَنِ الْإِمْسَاكِ، وَالْبُخْلِ، وَالتَّقْتِيرِ، كَمَا نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ، وَالتَّبَذِيرِ.

وَأَمَرَ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ بِالْأَقْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ، وَنَهَى عَنِ الْجُبْنِ، وَذَمَّ الْجُبْنَاءَ، وَأَهْلَ الْحَوَرِ وَضَعْفِ النُّفُوسِ، كَمَا ذَمَّ الْمُتَهَوِّرِينَ الَّذِينَ يُلْقَوْنَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

وَأَمَرَ وَحَثَّ عَلَى الصَّبْرِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَنَهَى عَنِ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ وَالسَّخَطِ. كَمَا نَهَى عَنِ التَّجَبُّرِ، وَعَدَمِ الرَّحْمَةِ، وَالْقَسَاوَةِ، فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ.

وَأَمَرَ بِأَدَاءِ حُقُوقِ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْكَ، مِنَ الْوَالِدَيْنِ، وَالْأَقَارِبِ، وَالْأَصْحَابِ وَنَحْوِهِمْ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَذَمَّ مَنْ قَصَرَ فِي حَقِّهِمْ، أَوْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ، قَوْلًا وَفِعْلًا، كَمَا ذَمَّ مَنْ غَلَا فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ حَتَّى قَدَّمَ رِضَاهُمْ عَلَى رِضَا اللَّهِ، وَطَاعَتِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

وَأَمَرَ بِالْإِقْتِصَادِ بِالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَاللِّبَاسِ، وَنَهَى عَنِ السَّرَفِ، وَالتَّرَفِ، كَمَا نَهَى عَنِ التَّقْصِيرِ الضَّارِّ لِلْقَلْبِ وَالْبَدَنِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِشَيْءٍ إِلَّا كَانَ وَسَطًا بَيْنَ خُلُقَيْنِ دَمِيمَيْنِ: تَفْرِيطٍ أَوْ إِفْرَاطٍ.

التعليق

التَّوَسُّطَ مَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ فِي الكَمِّيَّةِ وَالكِيفِيَّةِ، والغُلُوُّ أَنْ تَزِيدَ، والتَّفْرِيطُ أَنْ تَنْقُصَ، كُلُّ أُمُورٍ الْحَيْرِ قَدْ أَمَرَ بِهَا الشَّرْعُ وَأَمَرَ بِالْإِكْتِسَارِ مِنْهَا، حَتَّى قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

لَكِنْ فِي الْأُمُورِ الْمَحْدُودَةِ، لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَصَلِّيَ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ سِتَّ صَلَوَاتٍ، قُلْنَا: هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا ظُلْمٌ وَمُجَاوَزَةٌ. أَوْ قَالَ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ الظُّهْرَ سِتَّ رَكَعَاتٍ. قُلْنَا: هَذَا لَا يَجُوزُ، وَكَذَلِكَ فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ. لَوْ زَادَ وَأَسْرَفَ، قُلْنَا: لَا يَجُوزُ، وَلَوْ نَقَصَ، قُلْنَا: لَا يَجُوزُ أَيْضًا، وَلَكِنْ الْحَيْرُ كُلُّهُ فِي التَّوَسُّطِ.

وُخْلاَصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ يَأْمُرُ بِالْإِعْتِدَالِ فِي الْأُمُورِ، لَا تَزِدْ وَلَا تَنْقُصْ، فَمَنْ زَادَ وَشَدَّدَ وَرَأَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ نَعْمَلَ حَتَّى فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَحَبَّةِ، وَأَنْ لَا نُفَرِّطَ فِي شَيْءٍ؛ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا مِمَّا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

وَلَوْ قَصَرَ وَصَارَ لَا يُبَالِي بِالْأُمُورِ الْمَشْرُوعَةِ، وَيَقُولُ: أَنَا أَكْتَفِي بِمَا يَجِبُ، قُلْنَا: إِنَّهُ فَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَالْأَوَّلِ؛ فَالْأَوَّلُ أَشَدُّ فِي النَّهْيِ عَنْهُ، وَالثَّانِي فَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ لَا يُقَالُ لَهُ: إِنَّكَ أَسَأْتَ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، رقم (٤٨٨)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان (١٨٩١). ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، رقم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصل: أَنَّ هَذَا أَمْرٌ يَنْبَغِي أَنْ نَتَفَتَّنَ لَهُ أَيْضًا، حَتَّى فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ نَكُونُ وَسَطًا بَيْنَ التَّهَاقُوتِ وَالتَّقْرِيطِ، وَبَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّشْدِيدِ، الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ، وَالْعَدْلُ مِنَ الْحِكْمَةِ.

وَمِنَ الْحِكْمَةِ مُرَاعَاةُ الْحَالِ، قَدْ يَكُونُ مَثَلًا مِنْ غَيْرِ الْحِكْمَةِ أَنْ تَدْعُوَ فِي كُلِّ الْوَقْتِ؛ لِئَلَّا يَمَلَّ النَّاسُ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَاهَدُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ، يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، فَالْإِنْسَانُ الْحَكِيمُ يَعْرِفُ ذَلِكَ، رُبَّمَا تَكُونُ فِي مَكَانٍ لَا يُنَاسِبُ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا، وَلَكِنَّكَ تَقُولُهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ، أَوْ فِي وَقْتٍ آخَرَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ.

وَالْمُهْمُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَسَطًا فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، هَذَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْقُرْآنُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] تَكُونُ عَدْلًا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ لَا تُفْرِطُ وَلَا تُفَرِّطُ.



القاعدة الخامسة والعشرون:

حُدُّودُ اللَّهِ قَدْ أَمَرَ بِحِفْظِهَا وَنَهَى عَنْ تَعْدِيهَا وَقُرْبَانِهَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أَمَّا حُدُودُ اللَّهِ: فَهِيَ مَا حَدَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الَّتِي أَمَرَهُمْ بِفِعْلِهَا، وَالْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي أَمَرَهُمْ بِتَرْكِهَا؛ فَالْحِفْظُ لَهَا: آدَاءُ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَيَتَوَقَّفُ هَذَا الْفِعْلُ وَهَذَا التَّركُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحُدُودِ عَلَى وَجْهِهَا؛ لِيَعْرِفَ مَا يَدْخُلُ فِي الْوَاجِبَاتِ وَالْحُقُوقِ، فَيُؤَدِّيَهَا عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ كَامِلَةً غَيْرَ نَاقِصَةٍ، وَمَا يَدْخُلُ فِي الْمُحَرَّمَاتِ؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ تَرْكِهَا؛ وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَثْنَى عَلَى مَنْ عَرَفَ ذَلِكَ.

وَحَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] كَانَ الْمُرَادُ بِهَا مَا أَحَلَّهُ لِعِبَادِهِ، وَمَا فَصَّلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، فَإِنَّهُ نَهَى عَنْ مُجَاوَزَتِهَا، وَأَمَرَ بِمُلَازِمَتِهَا، كَمَا أَمَرَ بِمُلَازِمَةِ مَا أَحَلَّهُ مِنَ الطَّعَامِ، وَالشَّرَابِ، وَاللِّبَاسِ، وَالنِّكَاحِ، وَنَهَى عَنْ تَعْدِي ذَلِكَ إِلَى مَا حَرَّمَ مِنْهَا مِنَ الْخَبَائِثِ، وَكَمَا أَمَرَ بِمُلَازِمَةِ مَا شَرَعَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْ تَعْدِي ذَلِكَ إِلَى فِعْلِ مَا لَا يُجُوزُ شَرْعًا، وَكَمَا أَمَرَ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا فَصَّلَهُ مِنَ أَحْكَامِ الْمَوَارِيثِ، وَلُزُومِ حَدِّهِ، وَنَهَى عَنْ تَعْدِي ذَلِكَ وَتَوْرِيثِ مَنْ لَا يَرِثُ، وَحِرْمَانِ مَنْ يَرِثُ، وَتَبْدِيلِ مَا فَرَضَهُ وَفَصَّلَهُ بِغَيْرِهِ.

وحيث قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ
 الْمُحَرَّمَاتِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ نَهْيٌ عَنْ فِعْلِهَا، وَنَهْيٌ عَنْ مُقَدِّمَاتِهَا وَأَسْبَابِهَا
 الْمَوْصَلَةِ إِلَيْهَا وَالْمَوْقَعَةِ بِهَا، كَمَا نَهَاهُمْ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى الصَّائِمِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ وَقْتُ
 الصَّيَامِ، فَقَالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] وَكَمَا حَرَّمَ عَلَى الْأَزْوَاجِ
 أَنْ يَأْخُذُوا بِمَا اتَّوَا أَزْوَاجَهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، قَالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] وَكَمَا صَرَّحَ بِالْمُحَرَّمَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾
 [الإسراء: ٣٢] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فَالْحَيْثُ
 وَالسَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ فِي مَعْرِفَةِ حُدُودِ اللَّهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّ أَصْلَ الشَّرِّ وَأَسْبَابِ
 الْعُقُوبَاتِ الْجَهْلُ بِحُدُودِ اللَّهِ، أَوْ تَرْكُ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، أَوْ الْجَمْعُ بَيْنَ الشَّرِّينِ. وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ.

التعاليق

الْحُدُودُ: مَا حَدَّدَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ وَالْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهَيَّاتِ.

فَأَمَّا الْمَأْمُورَاتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وَكَذَلِكَ الْمُحَلَّلَاتُ.
 وَأَمَّا الْمَنْهَيَّاتُ، فَيَقُولُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّاعِيَ حَوْلَ
 الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، فَإِذَا قَرُبَتْ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ أَوْشَكَتْ أَنْ تَقَعَ، وَكُلَّمَا
 كَانَتِ الْمُحَرَّمَاتُ تَدْعُو النَّفُوسَ إِلَيْهَا أَكْثَرَ كَانَ النَّهْيُ عَنْ قُرْبَانِهَا أَشَدَّ وَأَوْكَدَ؛
 وَلِهَذَا حُرِّمَ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَرَى الْمَرْأَةَ الْأُجْنَبِيَّةَ مِنْهُ، أَوْ أَنْ يَكَلِّمَهَا عَلَى سَبِيلِ التَّمَتُّعِ
 وَالتَّلَذُّذِ بِصَوْتِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَجْرِي إِلَى الزَّنا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾.

وَفِي مَسَائِلِ الرَّبَا حَرَّمَ اللَّهُ أَشْيَاءَ لَيْسَ فِيهَا ظُلْمٌ، فَإِنَّكَ إِذَا اشْتَرَيْتَ صَاعًا مِنْ

الْبُرِّ الطَّيِّبِ بَصَاعَيْنِ مِنَ الْبُرِّ الرَّدِيِّ يُسَاوِيَانِ الصَّاعَ فِي الْقِيَمَةِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِظُلْمٍ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ فَيَبِيعَ الرَّدِيَّ، ثُمَّ يَقْبِضَ ثَمَنَهُ، ثُمَّ يَشْتَرِيَ الطَّيِّبَ، لَكِنَّهُ يُجِزُّ إِلَى الرَّبَا الصَّرِيحِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الظُّلْمَ، وَهِيَ أَنْ أُعْطِيَكَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ نَقْدًا بِخَمْسَةِ عَشَرَ دِرْهَمًا مُوَجَّلَةً، وَهَذَا هُوَ الرَّبَا.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُحَرَّمَاتِ يُقَالُ فِيهَا: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ وَيُنْهَى عَنِ الْقُرْبِ إِلَيْهَا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»^(١) وَالْقَلِيلُ لَا يُسْكِرُ؛ لَكِنَّهُ يُجِزُّ إِلَى شُرْبِ الْكَثِيرِ، فَإِنَّ النُّفُوسَ تَدْعُو كَثِيرًا إِلَى تَنَاوُلِ هَذَا الْمُسْكِرِ؛ فَلِذَلِكَ حُرِّمَتْ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ بَعِيدٍ.

أَمَّا إِذَا كَانَتِ الْحُدُودُ مِمَّا أُمِرَ بِهِ أَوْ مَا أُحِلَّ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وَالْإِعْتِدَاءُ فِي الْوَاجِبَاتِ أَنْ يَزِيدَ فِيهَا أَوْ يُقْصَرَ، وَالْإِعْتِدَاءُ فِي الْمُحَلَّلَاتِ أَنْ يَتَقَلَّ مِنْهَا إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ، فَمَثَلًا: نَحْنُ أُمِرْنَا بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَكِنْ مُهِينًا عَنِ الْإِسْرَافِ ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قَدَّمَ لَهُ طَعَامٌ شَهِيًّا لَذِيذًا، فَأَكَلَ مِنْهُ حَتَّى صَارَ لَا يَحْمِلُ بَطْنُهُ إِلَّا مَعَ الْعَصَا، فَهَذَا إِسْرَافٌ مُحَرَّمٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ يُحْرَمُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَكْلُ إِذَا خَافَ تَخُمَّةً أَوْ أَذَى. وَالتُّخْمَةُ: التَّنُّ، أَيُّ: تَنُّ الْمَعِدَةِ وَتَغْيِيرُهَا؛ لِأَنَّ الْمَعِدَةَ إِذَا ثَقُلَ عَلَيْهَا الطَّعَامُ وَلَمْ تَهْضَمْهُ أَنْتَنَ فِيهَا؛ لِأَنَّ السَّوَائِلَ الَّتِي تَذِيبُهُ وَتَذِيبُ خُبْثَهُ تَعْجِزُ عَنْهُ، فَيُنْتِنُ فِي هَذَا الْوِعَاءِ الْمَخْتُومِ، وَتَجِدُ الْإِنْسَانَ إِذَا تَجَشَّأَ يُحْسُ بِرَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ تَخْرُجُ مِنْهُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، رقم (٣٦٨١)، والترمذي: أبواب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم (١٨٦٥)، وابن ماجه: كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم (٣٣٩٣)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القاعدة السادسة والعشرون:

الأصل أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها
إلا بوجود تلك القيود إلا في آيات يسيرة

وهذه قاعدة لطيفة، فإنه متى رتب الله في كتابه حكماً على شيء، وقيد به بقيد، أو شرط لذلك شرطاً، تعلّق الحكم به على ذلك الوصف الذي وصفه الله تعالى. وهذا في القرآن لا حصر له، وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين إذا تكلموا عليها: «هذا قيد غير مراد» وفي هذه العبارة نظر، فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها، وفيها فائدة قد تظهر للمتكلم، وقد نخفى.

وإنما مرادهم بقولهم: «غير مراد»: ثبوت الحكم بها. فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة يبرزها فيها لعباده؛ ليظهر لهم حسناتها إن كانت مأموراً بها، أو قبحها إن كانت منهيّاً عنها، وعند تأمل هذه الآيات - التي بهذا الصدد - يظهر لك منها عياناً.

فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان، وإنما قيدها الله بهذا القيد؛ بياناً لشناعة الشرك والمشرِك، وأن الشرك قطعاً ليس له دليل شرعي ولا عقلي، والمشرِك ليس بيده ما يسوغ له شيئاً من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشرِكين بالمعاندة، ومخالفة البراهين

الشَّرْعِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا أَغْرَاضُ نَفْسِيَّةٌ، وَمَقَاصِدُ سَيِّئَةٌ، وَأَتَمُّهُمُ لَوْ التَّفَتُّوا أَذْنَى التَّفَاتِ لَعَرَفُوا أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَا يَسْتَحْجِزُهُ مِنْ لَهُ أَذْنَى إِيْمَانٍ وَلَا مَعْقُولٍ.

التعليق

الْقَيْدُ الَّذِي قَدْ يُقَالُ: «غَيْرُ مُرَادٍ» كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ فَإِنَّكَ لَوْ اعْتَبَرْتَ هَذَا قَيْدًا لَكَانَ مَعْنَى الْآيَةِ: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَهُ بِهِ بُرْهَانٌ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ! وَهَلْ هَذَا مُوجُودٌ؟ لَا، وَلَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ شِنَاعَةَ هَذَا الْقَوْلِ، وَأَنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ أَنَّهُ لَا بُرْهَانَ لِمَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.



وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] مَعَ أَنَّ كَوْنَهَا فِي حِجْرِهِ أَوْ فِي غَيْرِ حِجْرِهِ لَيْسَ شَرْطًا لِتَحْرِيمِهَا، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ مُطْلَقًا، وَلَكِنْ ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْقَيْدَ؛ تَشْنِيعًا لِهَذِهِ الْحَالَةِ، وَأَنَّهُ مِنَ الْقَبِيحِ إِبَاحَةُ الرَّبِيبَةِ الَّتِي هِيَ فِي حِجْرِ الْإِنْسَانِ بِمَنْزِلَةِ بِنْتِهِ، فَذَكَرَ اللَّهُ الْمَسْأَلَةَ مُتَجَلِّيةً بِثِيَابِ قُبْحِهَا؛ لِيُنْفِرَ عَنْهَا ذَوِي الْأَلْبَابِ، مَعَ أَنَّ التَّحْرِيمَ لَمْ يُعْلَقْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَالْأُنْثَى إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُبَاحَةً مُطْلَقًا، أَوْ مُحَرَّمَةً مُطْلَقًا، سَوَاءً كَانَتْ عِنْدَ الْإِنْسَانِ أَم لَا، كَحَالَةِ بَقِيَّةِ النِّسَاءِ الْمُحَلَّلَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ.

التعليق

وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الصَّحِيحُ. وَالدَّلِيلُ أَنَّهُ الْمُرَادُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ هَذَا لِبَيَانِ قُبْحِ هَذَا الْأَمْرِ، لَا شَرْطًا فِي الْحُكْمِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ أَلَّتِي

فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يُقَلْ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُجُورِكُمْ، فَلَمَّا ذَكَرَ حُكْمَ الْحُكْمِ فِي مُخَالَفَةِ أَحَدِ الْقَيْدَيْنِ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ قَيْدًا فِيهِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ اِمْلَئْتُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] و﴿خَشِيَةَ اِمْلَئْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] مَعَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَغَيْرِهَا. فَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ: أَنَّهَا حَالَةٌ جَامِعَةٌ لِلشَّرِّ كُلِّهِ، كَوْنُهُ قَتْلًا بغيرِ حَقٍّ، وَقَتْلَ مَنْ جُبِلَتِ النَّفُوسُ عَلَى شِدَّةِ الشَّفَقَةِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا عَلَيْهِ، وَكَوْنُ ذَلِكَ صَادِرًا عَنِ التَّسَخُّطِ لِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِسَاءَةِ الظَّنِّ بِاللَّهِ؛ فَهُمْ تَبَرَّمُوا بِالْفَقْرِ هَذَا التَّبَرُّمَ، وَأَسَاؤُوا ظُنُونَهُمْ بِرَبِّهِمْ؛ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنْ أَبَقَوْهُمْ زَادَ فَقْرُهُمْ، وَاشْتَدَّتْ ضُرُورَتُهُمْ، فَصَارَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ.

وأيضًا: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْهِيًّا عَنْ قَتْلِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي دَفَعَهُمْ إِلَيْهَا خَشْيَةُ الْاِفْتِقَارِ، أَوْ حُدُوثُهُ، فَفِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأُخْرَى.

وأيضًا: فِي هَذَا بَيَانٍ لِلْحَالَةِ الْمَوْجُودَةِ غَالِبًا عِنْدَهُمْ، فَالتَّعَرُّضُ لِدِكْرِ الْأَسْبَابِ الْمَوْجُودَةِ الْحَادِثَةِ يَكُونُ أَجْلَى وَأَوْضَحَ لِلْمَسَائِلِ.

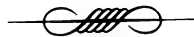
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الرَّجْعَةِ: ﴿وَيُؤْمِنُ بَرِّهِنَّ أَحَقُّ بِرِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨] فَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مِنْ هَذَا النُّوعِ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ رَدَّهَا، سَوَاءً أَرَادَ الْإِصْلَاحَ أَوْ لَمْ يَرُدَّهُ، فَيَكُونُ ذَكَرَ هَذَا الْقَيْدِ؛ حَتَّى عَلَى لُزُومِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قَصْدِ الْإِصْلَاحِ، وَتَحْرِيمًا لِرَدِّهَا عَلَى وَجْهِ الْمَضَارَّةِ، وَإِنْ كَانَ يَمْلِكُ رَدَّهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ﴾ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴿[البقرة: ٢٣١].

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ جَعَلَ هَذَا الْقَيْدَ عَلَى الْأَصْلِ الْعَامِّ، وَأَنَّ الزَّوْجَ لَا يَسْتَحِقُّ رَجْعَةَ زَوْجَتِهِ فِي عِدَّتِهَا إِلَّا إِذَا قَصَدَ الْإِصْلَاحَ. فَأَمَّا إِذَا قَصَدَ ضِدَّ ذَلِكَ، فَلَا حَقَّ لَهُ فِي رَجْعَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنُ مَقْبُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٨٣] مَعَ أَنَّ الرَّهْنَ يَصِحُّ حَضَرًا وَسَفَرًا. فَقَائِدُهُ هَذَا الْقَيْدُ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَعْلَى الْحَالَاتِ، وَأَشَدَّ الْحَاجَاتِ لِلرَّهْنِ، وَهِيَ هَذِهِ الْحَالَةُ فِي السَّفَرِ، وَالكَاتِبُ مَفْقُودٌ، وَالرَّهْنُ مَقْبُوضٌ، فَأَحْوَجُ مَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ لِلرَّهْنِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي تَعَذَّرَتْ فِيهَا التَّوَثِيقَاتُ إِلَّا بِالرَّهْنِ الْمَقْبُوضِ. وَكَمَا قَالَه النَّاسُ فِي قَيْدِهِ بِالسَّفَرِ، فَكَذَلِكَ عَلَى الصَّحِيحِ فِي قَيْدِهِ بِالْقَبْضِ، وَأَنَّ قَبْضَهُ لَيْسَ شَرْطًا لِصِحَّتِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلَاخْتِيَاظِ، وَزِيَادَةِ الْاسْتِثْنَاءِ، وَكَذَلِكَ فَقَدْ الْكَاتِبُ.

التعليق

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ شَرْطًا لِصِحَّتِهِ» لَعَلَّهُ يُرِيدُ: «لَيْسَ شَرْطًا لِلزُّومِ» لِأَنَّ قَبْضَ الرَّهْنِ لَيْسَ شَرْطًا لِلصَّحَّةِ، فَالرَّهْنُ يَصِحُّ - كَمَا سَبَقَ - وَإِنْ لَمْ يُقْبَضْ، لَكِنَّهُ لَا يَلْزَمُ إِلَّا بِالْقَبْضِ، فَلَوْ اشْتَرَيْتُ مِنْكَ شَيْئًا بِدَرَاهِمَ، وَقُلْتُ: رَهْنُكَ سَيَّارَتِي، فَالرَّهْنُ صَحِيحٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ بِإِلْزَامٍ، فَلَعَلَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ اللَّزُّومَ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ اخْتَلَفُوا فِي لُزُومِهِ، وَالْقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّهُ يَلْزَمُ وَإِنْ لَمْ يُقْبَضْ، وَعَمَلُ النَّاسِ الْيَوْمَ عَلَى هَذَا.



وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] مَعَ أَنَّ الْحَقَّ يَثْبُتُ بِالرَّجُلِ وَالْمَرَأَتَيْنِ، وَلَوْ مَعَ وُجُودِ الرَّجُلَيْنِ، لَكُنْ ذَكَرَ اللَّهُ أَكْمَلَ حَالَةٍ يَحْصُلُ بِهَا الْحِفْظُ لِلْحَقُّوقِ، بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بِالشَّاهِدِ الْوَاحِدِ مَعَ الْيَمِينِ ^(١) وَالْآيَةُ لَيْسَ فِيهَا ذَلِكَ لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ أَنَّ الْآيَةَ أَرْشَدَ اللَّهُ فِيهَا عِبَادَهُ إِلَى أَعْلَى حَالَةٍ يَحْفَظُونَ بِهَا حُقُوقَهُمْ؛ لِتَمَامِ رَاحَتِهِمْ، وَحَسْمِ اخْتِلَافِهِمْ وَنِزَاعِهِمْ.

التعليق

الشُّهُودُ فِي الْأَمْوَالِ: رَجُلَانِ، أَوْ رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ، أَوْ رَجُلٌ وَيَمِينُ الْمُدَّعِي، مِثْلُ أَنْ أَدَّعِيَ عَلَيْكَ بَأْنِي أَطْلُبُكَ مِثَّةَ رِيَالٍ، وَتُنْكِرُ، وَعِنْدِي شَاهِدٌ وَاحِدٌ فَقَطْ، وَحَلَفْتُ مَعَ الشَّاهِدِ، فَإِنَّهُ يَقْضَى لِي بِالْحَقِّ، وَيُلْزَمُكَ مَا ادَّعَيْتُهُ عَلَيْكَ. وَالْقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّ الْيَمِينَ فِي جَانِبِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ أَقْوَى الْمُتَدَاعِيَيْنِ، وَلَمَّا أَتَى بِالشَّاهِدِ قَوِي جَانِبُهُ.



وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] فَإِنَّهَا مِنْ أَصْلِ الْقَاعِدَةِ، وَيُظَنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ التَّذْكِيرُ نَفَعَتِ أَوْ لَمْ تَنْفَعْ، لَكِنْ هَذَا غَلَطٌ، فَنَفْعُ الذِّكْرَى: إِذَا كَانَ يَحْصُلُ بِهَا الْخَيْرُ أَوْ بَعْضُهُ، أَوْ يَزُولُ بِهَا الشَّرُّ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب القضاء باليمين والشاهد، رقم (١٧١٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ ضَرَرُ التَّذْكِيرِ أَعْظَمَ مِنْ نَفْعِهِ، فَإِنَّهُ مَنُهِىٌّ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، كَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا كَانَ وَسِيلَةً لِسَبِّ اللَّهِ، وَكَمَا يُنْهَى عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا كَانَ يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ شَرٌّ أَكْبَرُ، أَوْ فَوَاتُ خَيْرٍ أَكْثَرُ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤْمَرُ بِهِ، وَكَذَلِكَ النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ شَرًّا وَضَرَرًا. فَالتَّذْكِيرُ فِي هَذِهِ الْحَالِ غَيْرُ مَأْمُورٍ بِهِ، بَلْ مَنُهِىٌّ عَنْهُ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ تَفْصِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فَعِلْمُ أَنَّ هَذَا قَيْدٌ مُرَادٌّ، ثُبُوتُ الْحُكْمِ بِشُبُوتِهِ، وَانْتِفَاءُ الْحُكْمِ لَانْتِفَائِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعاليق

هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، هَلْ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ قَيْدٌ؟ وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَجِبُ التَّذْكِيرُ إِلَّا إِذَا نَفَعَتِ الذِّكْرَى، فَإِنْ لَمْ تَنْفَعْ فَلَا تُذَكِّرْ؛ لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ؛ لِكَوْنِهِ مَضْمُوعَةً لِلْوَقْتِ، أَوْ أَنَّ هَذَا الْقَيْدَ لِلنَّدَاءِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ هَؤُلَاءِ مَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الْخَيْرُ، لَكِنْ يُشْرَعُ أَنْ تُذَكَّرَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، كَقَوْلِكَ مَثَلًا: عَلَّمَهُ إِنْ كَانَ الْعِلْمُ يَنْفَعُهُ. هَلْ مَعْنَاهُ: إِنَّكَ لَا تُعَلِّمُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ سَيَنْفَعُهُ، أَوِ الْمَعْنَى: عَلَّمَهُ بِكُلِّ حَالٍ؟ الثَّانِي؛ إِذْ رَأَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهَا مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ الَّذِي رَجَّحَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَكُونُ قَيْدًا مُرَادًّا، وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ تَنْفَعْ الذِّكْرَى لَمْ يَجِبْ.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ لَا تَخْلُو الْحَالُ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: إِمَّا أَنْ تَنْفَعَ، أَوْ تَضُرَّ، أَوْ لَا تَنْفَعَ وَلَا تَضُرَّ. إِنْ نَفَعَتْ وَجَبَ التَّذْكِيرُ، وَإِنْ ضَرَّتْ فَلَا تُذَكِّرُ، بَلْ يُنْهَى عَنِ التَّذْكِيرِ، وَإِنْ لَمْ تَضُرَّ وَلَمْ تَنْفَعْ فَإِنَّهَا لَا تَجِبُ وَلَا يُنْهَى عَنْهَا.

لَكِنْ هَلِ الْأَوَّلَى أَنْ يُذَكَّرَ؛ إِظْهَارًا لِلْحَقِّ وَبَيَانًا لَهُ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ

فِيمَا بَعْدُ؟ هَذَا هُوَ الظَاهِرُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَضَرَّةً، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُذَكَّرَ، أَمَّا إِذَا نَفَعَتْ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُذَكَّرَ.

وَلَمْ يَتَرَجَّحْ عِنْدِي أَحَدُ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ؛ لِأَنَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى وُجُوبِ التَّذْكِيرِ وَإِعْلَانِ الشَّرْعِ وَبَيَانِهِ، قُلْنَا: إِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ (ذَكَرَ) إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ يَنْفَعُ فِيهِمُ الذِّكْرُ، وَيَكُونُ الْمَقْصُودُ بِهِ النَّدَاءُ عَلَى عِنَادِهِمْ وَعَلَى اسْتِكْبَارِهِمْ وَعَدَمِ رُجُوعِهِمْ لِلْحَقِّ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا مَوْضِعُ خِلَافٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَشَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يُرَجِّحُ أَنَّهُ قَيْدٌ، وَأَنَّ الذِّكْرَ لَا تَجِبُ إِلَّا إِذَا نَفَعَتْ.



وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] مَعَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ قَتْلُهُمْ إِلَّا بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَهَذَا نَظِيرُ مَا ذَكَرَهُ فِي الشَّرْكِ، وَأَنَّ هَذَا تَشْنِيعٌ لِهَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي لَا شُبْهَةَ لَصَاحِبِهَا، بَلْ صَاحِبُهَا أَعْظَمُ النَّاسِ جُرْمًا، وَأَشَدُّهُمْ إِسَاءَةً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] فَلَيْسَتْ مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ النَّوعِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ، وَالْحَقُّ الَّذِي قَيَّدَهَا اللَّهُ بِهِ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [المائدة: ٦] مَعَ أَنَّ فَقْدَ الْمَاءِ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ وَجُودُ السَّفَرِ، فَإِنَّهُ إِذَا فَقْدَ جَازَ التَّيَمُّمُ حَضَرًا وَسَفَرًا، لَكِنْ ذِكْرُ السَّفَرِ بَيَانٌ لِلْحَالَةِ الْغَالِيَةِ الْمَوْجُودَةِ الَّتِي يُفْقَدُ فِيهَا الْمَاءُ، أَمَّا الْحَضَرُ فَإِنَّهُ يَنْدُرُ فِيهِ عَدَمُ الْمَاءِ جَدًّا، وَمِنْ هَذَا السَّبَبِ ظَنَّ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ السَّفَرَ وَحْدَهُ مُبِيحٌ لِلتَّيَمُّمِ، وَإِنْ كَانَ الْمَاءُ مَوْجُودًا!! وَهَذَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ. وَهَذِي الرُّسُولِ وَأَصْحَابِهِ وَالْمُسْلِمِينَ مُخَالَفٌ لِهَذَا الْقَوْلِ.

التعليق

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ فَإِنَّ الْمَرِيضَ لَا يُشْتَرَطُ لِحَوَازِ تَيَمُّمِهِ فَقْدَانُ الْمَاءِ، بَلْ يَتَيَمَّمُ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ حَوْضِ الْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَرِيضٌ، لَكِنْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ هَذَا فِي السَّفَرِ، وَأَمَّا الْمَرِيضُ فَيَجُوزُ أَنْ يَتَيَمَّمَ سَوَاءً وَجَدَ الْمَاءَ أَمْ لَمْ يَجِدْ.



وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١] مَعَ أَنَّ الْخَوْفَ لَيْسَ بِشَرْطٍ لِمَصَحَّةِ الْقَصْرِ وَمَشْرُوعِيَّتِهِ بِالِاتِّفَاقِ، وَلَمَّا أُورِدَ هَذَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي جَوَابِهِ: «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»^(١) يَعْنِي: وَصَدَقَهُ اللَّهُ وَإِحْسَانُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، لَا تَقِيدُ بِخَوْفٍ وَلَا غَيْرِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٦)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْقَيْدَ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَأَنَّ الْقَصْرَ التَّامَّ - وَهُوَ قَصْرُ الْعَدَدِ، وَقَصْرُ الْأَرْكَانِ وَالْهَيْئَاتِ - شَرْطُهُ اجْتِمَاعُ السَّفَرِ وَالْخَوْفِ كَمَا فِي الْآيَةِ، فَإِنْ وَجَدَ الْخَوْفُ وَحْدَهُ لَمْ يُقْصَرْ عَدَدُ الصَّلَاةِ، وَإِنَّمَا تُقْصَرُ هَيْئَاتُهَا وَصِفَاتُهَا، وَإِنْ وَجَدَ السَّفَرُ وَحْدَهُ لَمْ تُقْصَرْ هَيْئَاتُهَا وَشُرُوطُهَا وَإِنَّمَا يُقْصَرُ عَدَدُهَا، وَلَا يُنَافِي هَذَا كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوهُ عَنْ قَصْرِ الْعَدَدِ، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّ الرُّخْصَةَ فِيهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ. وَهَذَا تَقْرِيرٌ مَلِيحٌ مُوَافِقٌ لِلآيَةِ، غَيْرٌ مُخَالِفٌ لِحَدِيثِ الرَّسُولِ، فَيَتَعَيَّنُ الْأَخْذُ بِهِ.

التعليق

وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لَيْسَ قَيْدًا، وَلَكِنَّهُ بَيَانٌ لِأَشْنَعِ الْحَالَاتِ فِي الرِّبَا، وَهِيَ أَنْ يَأْكُلَهُ الْإِنْسَانُ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَلَّ الدِّينُ، قَالَ: إِمَّا أَنْ تُوفِّي، وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي؛ فَإِنْ أَوْفَاهُ فَقَدْ اسْتَوْفَى حَقَّهُ، وَإِنْ لَمْ يُوفَ قَالَ لِلَّذِي عَلَيْهِ مِئَةٌ فَقَطِ: الَّذِي عَلَيْكَ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ. فَإِذَا جَاءَ الْأَجَلَ الثَّانِي وَلَمْ يُوفَ، قَالَ: يَجِبُ أَنْ نَجْعَلَ الْمِئَةَ وَعِشْرِينَ مِئَةً وَأَرْبَعِينَ، أَوْ مِئَةً وَخَمْسِينَ، وَهَذَا أَشْنَعُ مَا يَكُونُ.

لَا يُقَالُ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الرِّبَا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ قَالَ بِهِ، لَكِنَّهُ أَخْطَأَ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ ذَلِكَ، فَلَمَّاذَا تَمَنَعُ الزِّيَادَةَ ثَانِيَةً مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْهُ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً، وَإِنَّمَا أَكَلَهُ ضِعْفًا وَاحِدًا؟

مثلاً: أَعْطَيْتُكَ مِئَةً دِرْهَمٍ بِمِئَةٍ وَعِشْرِينَ إِلَى سَنَةٍ، قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ هَذَا جَائِزٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾^١ فالعقد الأول الذي فيه الربا ليس حراماً. وبناءً على قوله فإنَّ معاملَةَ البُنُوكِ تُعْتَبَرُ غَيْرَ رِبَوِيَّةٍ إِلَّا إِذَا كَرَّرُوا الزِّيَادَةَ. قَالَ: فَإِنْ قَالَ عِنْدَ رَأْسِ الْحَوْلِ أَوْ عِنْدَ تَمَامِ الْأَجَلِ: زِدْتُكَ، صَارَ رِبَاً.

فَنَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ بِالْآيَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ وَأَنْتَ الْآنَ قُلْتَ: إِنَّ أَوَّلَ ضِعْفٍ يَكُونُ حَرَامًا، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ بِالْآيَةِ، فَقُلْ: إِنَّ أَوَّلَ ضِعْفٍ لَيْسَ بِحَرَامٍ أَيْضًا، وَإِلَّا فَقَدْ خَالَفْتَ قَاعِدَتَكَ. لَكِنْ الْأَمْرُ كَمَا قُلْنَا: إِنَّ هَذَا الْقَيْدَ لِيَبَيِّنَ أَشْنَعَ الْأَحْوَالِ أَوْ أَشْنَعَ الْمَعَامَلَاتِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الرِّبَا.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] هَلِ الْمَرَادُ: فَإِنْ امْتَنَعْنَ عَنِ الْبِغَاءِ لَغَيْرِ التَّحَصُّنِ فَأَكْرَهُوهُنَّ؟ لَا، لَيْسَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرَ الْآيَةِ هُوَ هَذَا. لَكِنْ نَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْ أَشْنَعَ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ إِكْرَاهَ الْإِنْسَانِ أُمَّتَهُ عَلَى الْبِغَاءِ وَهِيَ تُرِيدُ التَّحَصُّنَ هُوَ أَشْنَعُ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ أَطْهَرَ مِنْهُ وَأَنْقَى مِنْهُ ثَوْبًا. فَالْحَاصِلُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ أَوْ هَذِهِ الْقِيُودِ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهَا.

وُخْلاَصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْقِيُودِ وَالشَّرُوطِ أَنَّهَا مُعْتَبَرَةٌ، وَأَنَّ الْحُكْمَ فِي مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ ثَابِتٌ، إِلَّا فِي مَسَائِلَ قَلِيلَةٍ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَيْدَ أَوْ الشَّرْطَ لَيْسَ مَفْهُومُ الْمُخَالَفَةِ فِيهِ مُحَالِفًا لِحُكْمِ الْمَنْطُوقِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَتْ هَذِهِ الْقِيُودُ: إِمَّا لِيَبَيِّنَ الْوَاقِعَ، وَإِمَّا لِيَبَيِّنَ الْغَالِبَ، وَإِمَّا لِيَذْكُرَ الْحَالِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مَا يَكُونُ فِي الشَّنَاعَةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ثُمَّ هَلْ يَصِحُّ أَنْ نُعَبِّرَ وَنَقُولَ: هِيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ؟ يَقُولُ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ
 رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا، إِنَّ هَذَا غَلَطٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَذْكُرُ فِي كَلَامِهِ شَيْئًا إِلَّا كَانَ مُرَادًا، لَكِنْ
 لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ إِثْبَاتُ نَقِيضِ الْحُكْمِ فِي الْمُخَالِفِ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ مَسَائِلُ، أَوِ التَّنْبِيهُ عَلَى
 حَالَاتٍ تَتَبَيَّنُ بِالتَّأَمُّلِ، وَلَا نَقُولُ: مُخَالَفَةٌ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ الْمُخَالَفَةَ فِي هَذَا الْحُكْمِ
 لَا تُخَالِفُ الْمَنْطُوقَ.



القاعدة السابعة والعشرون:

المُحْتَزَّاتُ فِي الْقُرْآنِ تَقَعُ فِي كُلِّ الْمَوَاضِعِ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا

وهذه القاعدة جليلة النفع، عظيمة الوقع؛ وذلك أن كل موضع يسوق الله فيه حكماً من الأحكام، أو خبراً من الأخبار، فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر إلا وجدت الله قد قرّن به ذلك الأمر الذي يعلّق في الأذهان، فيبيّنه أحسن بيان، وهذا أعلى أنواع التعليم الذي لا يُبْقِي إشكالاً إلا أزاله، ولا احتيلاً إلا وضحّه، وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته، وذلك في القرآن كثير جداً.

ولندكر بعض أمثلة توضّح هذه القاعدة، ونحسن للدّاخل الدّخول إليها:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا﴾ [النمل: ٩١] لما خصّها بالذكر ربّما وقع في بعض الأذهان تخصّيص ربوبيّته بها، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩] لما كان قد يقع في الذهن أنّهم على حجة وبرهان، فأبان بقوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [هود: ١٠٩] أنّهم ضلال افتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنّهم في طمأنينة من قولهم، وعلى يقين من مذهبهم، ولربّما توهم أيضاً أن الأليق أن لا تبسط لهم الدنيا - احتزّر من ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْفُوسٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١٠٩-١١٠].

وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] رَبِّمَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ وَلَوْ كَانُوا مَعْذُورِينَ، أَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

التعاب

وَرَدَ فِي نُسْخَةِ لِلْكِتَابِ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَبِّمَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ مَعَ الْقَاعِدِينَ» وَالصَّوَابُ: مَعَ الْمُجَاهِدِينَ بَدَلًا مَعَ الْقَاعِدِينَ.



وَكَذَلِكَ لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِ﴾ [الحديد: ١٠] رَبِّمَا تَوَهَّمَ أَحَدٌ أَنَّ الْمَفْضُولِينَ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَقَامٌ وَلَا مَرْتَبَةٌ، فَأَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] ثُمَّ لَمَّا كَانَ رَبِّمَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ يُسْتَحَقُّ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ، وَلَوْ خَلَا مِنَ الْإِخْلَاصِ - أَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٤٨] رَبِّمَا وَقَعَ فِي الذَّهْنِ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ وَقَدْ يُصْلِحُونَ - أَزَالَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] أَي: لَا خَيْرَ فِيهِمْ أَصْلًا، مَعَ شَرِّهِمُ الْعَظِيمِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ قَالَ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠، والروم: ٥٢] رَبِّمَا يَتَوَهَّمُ أَحَدٌ أَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا، فَإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ الْإِشَارَةَ - أَزَالَ هَذَا الْاِحْتِمَالَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا وَلَوْ مَدِيرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فَهَذِهِ حَالَةٌ لَا تَقْبَلُ سَمَاعًا وَلَا رُؤْيَا لَتَحْصُلَ الْإِشَارَةُ، وَهَذَا نِهَايَةُ الْإِعْرَاضِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] رَبِّمَا تَوَهَّم أَحَدٌ أَنَّ هِدَايَتَهُ تَقَعُ جُزَافًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، أزالَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] أَي: بِمَنْ يَصْلُحُ لِلْهِدَايَةِ لِزَكَائِهِ وَخَيْرِهِ، مِمَّنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَأَبَانَ أَنَّ هِدَايَتَهُ تَابِعَةٌ لِحُكْمَتِهِ الَّتِي هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا.

وَمَنْ كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ رَأَى مِنْ هَذَا النَّوعِ شَيْئًا كَثِيرًا.



القاعدة الثامنة والعشرون:

فِي ذِكْرِ الْأَوْصَافِ الْجَامِعَةِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنَ

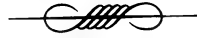
لَمَّا كَانَ الْإِيمَانُ أَضْلَ الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْفَلَاحِ، وَبِفَقْدِهِ يُفْقَدُ كُلُّ خَيْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ، أَكْثَرَ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ جَدًّا: أَمْرًا بِهِ، وَنَهْيًا عَنْ ضِدِّهِ، وَتَرْغِيْبًا فِيهِ، وَبَيَانًا أَوْصَافِ أَهْلِهِ، وَمَا لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرَوِيِّ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ خِطَابٍ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، أَوْ مَقَامَ إِثْبَاتِ الْأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهَا تَتَنَاوَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ، سَوَاءً كَانَ مُتَمِّمًا لَوَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ وَأَحْكَامِهِ، أَوْ نَاقِصًا فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ، وَبَيَانِ الْجَزَاءِ الْكَامِلِ لِلْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنَ حَقًّا، الْجَامِعُ لِمَعَانِي الْإِيمَانِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بَيَانُهُ هُنَا...

التعليق

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ مُفِيدَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الْخِطَابَ بِالْإِيمَانِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: خِطَابٌ يُرَادُّ بِهِ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ، وَخِطَابٌ يُرَادُّ بِهِ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ؛ فَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْأَحْكَامُ الْمَعْلُوقَةُ بِالْإِيمَانِ تَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ وَغَيْرَ الْكَامِلِ، كُلُّ مُؤْمِنٍ -وإن كَانَ فَاسِقًا- يُؤْمَرُ بِالصَّلَاةِ، وَيُؤْمَرُ بِالْخَيْرِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ السِّيَاقُ سِيَاقَ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ، فَالْمُرَادُّ بِهِ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ، فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ فَاسِقٌ، فَمَثَلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ الْأَنْفَالُ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَهْلُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]: الْمُرَادُ: أَهْلُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَهَكَذَا.



... فَنَقُولُ: وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ فِي كِتَابِهِ بِاعْتِرَافِهِ وَتَصَدِيقِهِ بِجَمِيعِ عَقَائِدِ الدِّينِ، وَبِإِرَادَةِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَبِالْعَمَلِ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَبِتَرْكِ جَمِيعِ الْمَعَاصِي، وَبِالْمُبَادَرَةِ بِالتَّوْبَةِ يَمَّا صَدَرَ مِنْهُ مِنْهَا، وَبِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ أَثَّرَ فِي أَخْلَاقِهِمْ، وَأَقْوَالِهِمْ، وَأَفْعَالِهِمْ الْآثَارَ الطَّيِّبَةَ، فَوَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الْجَامِعَةِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا أَوْتِيَهُ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَوَصَفَهُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالْإِنْقِيَادِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ [الأنفال: ٢-٤] وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّ جُلُودَهُمْ تَقَشَعْرُ، وَعُيُونُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ، وَقُلُوبُهُمْ تَلِينُ وَتَطْمَئِنُّ لآيَاتِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ، وَبِأَنَّهُمْ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَنَّهُمْ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، وَوَصَفَهُمْ بِالْخُشُوعِ فِي أَحْوَالِهِمْ عُمُومًا، وَفِي الصَّلَاةِ خُصُوصًا، وَأَنَّهُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَلِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَلِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، وَأَنَّهُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ، وَلَأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ مُرَاعُونَ، وَوَصَفَهُمْ بِالْيَقِينِ الْكَامِلِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَبِالْجِهَادِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ لِرَبِّهِمْ فِي كُلِّ

مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالدُّعَاءِ لِأَخْوَانِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ، وَأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي إِزَالَةِ الْغِلِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبَأَنَّهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ مُوَالَاةِ جَمِيعِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَبَأَنَّهُمْ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ - فَجَمَعَ
اللَّهُ لَهُمْ بَيْنَ الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ، وَالْيَقِينِ الْكَامِلِ، وَالْإِنَابَةِ التَّامَّةِ الَّتِي آثَارُهَا الْإِنْقِيَادُ لِفِعْلِ
الْمَامُورَاتِ، وَتَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَالْوُقُوفُ عَلَى الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّاتِ.

فَهَذِهِ الْأَوْصَافُ الْجَلِيلَةُ، وَهِيَ وَصْفُ الْمُؤْمِنِ الْمُطْلَقِ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الْعِقَابِ،
وَاسْتَحَقَّ الثَّوَابَ، وَنَالَ كُلَّ خَيْرٍ رُتَّبَ عَلَى الْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ رَتَّبَ عَلَى الْإِيمَانِ فِي
كِتَابِهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالثَّمَرَاتِ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ مِثَّةِ فَائِدَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا
وَمَا فِيهَا، رَتَّبَ عَلَى الْإِيمَانِ نَيْلَ رِضَاهُ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ
دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ صُعُوبَاتِ الْقِيَامَةِ
وَتَعَسَّرِ أَحْوَالِهَا، وَالْبُشْرَى الْكَامِلَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ، وَالثَّبَاتَ فِي الدُّنْيَا
عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَاتِ، وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْقَبْرِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالْجَوَابِ
النَّافِعِ السَّدِيدِ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالرِّزْقَ، وَالْحَسَنَةَ، وَتَيْسِيرَ الْعَبْدِ
لِلْيُسْرَى، وَتَجَنُّبَهُ لِلْعُسْرَى، وَطُمَأْنِينَةَ الْقُلُوبِ، وَرَاحَةَ النُّفُوسِ، وَالْقَنَاعَةَ التَّامَّةَ،
وَصَلَاحَ الْأَحْوَالِ، وَصَلَاحَ الذَّرِّيَّةِ، وَجَعَلَهُمْ قُرَّةَ عَيْنٍ لِلْمُؤْمِنِ، وَالصَّبْرَ عِنْدَ الْمِحَنِ
وَالْمَصَائِبِ، وَحَمَلَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْأَثْقَالَ، وَمُدَافَعَةَ اللَّهِ عَنْهُمْ جَمِيعَ الشُّرُورِ، وَالنَّصَرَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ، وَرَفَعَ الْمُوَاحِدَةَ عَلَى النَّاسِي وَالْجَاهِلِ وَالْمُخْطِئِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ
عَلَيْهِمُ الْآصَارَ، بَلْ أزالَهَا، وَلَمْ يُحْمَلْهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ فِيهِ، وَمَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ بِإِيمَانِهِمْ،
وَالْتَوْفِيقَ لِلتَّوْبَةِ.

فَالْإِيمَانُ أَكْبَرُ وَسِيلَةٍ لِلْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَالْقُرْبُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَنَيْلِ ثَوَابِهِ، وَأَكْبَرُ
وَسِيلَةٍ لِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وَإِزَالَةِ الشَّدَائِدِ أَوْ تَخْفِيفِهَا.

وَتَمَرَاتُ الْإِيمَانِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ كَثِيرَةٌ، وَبِالْجُمْلَةِ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
مُرْتَبَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الشُّرُورَ مُرْتَبَةٌ عَلَى فَقْدِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



القاعدة التاسعة والعشرون:

في الفوائد التي يختصها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد أن تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير؛ وذلك أن القرآن مُشتمل على علومٍ مُتنوعة، وأصنافٍ جليلةٍ من العلوم، فعلى العبد أن يعرف المقصود من كل نوعٍ منها، ويعمل على هذا، ويتبع الآيات الواردة فيه، فيحصل المراد منها علماً، وتصديقاً، وحالاً، وعملاً.

فأجل علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال، فإذا مرّت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها، فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتّها لله على وجه لا يماثلُه فيه أحدٌ، وعرف أنّه كما ليس لله مثيلٌ في ذاته، فليس له مثيلٌ في صفاته، وامتلاً قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب علمه بكمال الله وعظمته؛ فإنّ القلوب مجبولة على محبة الكمال، فكيف بمن له كل الكمال، ومنه جميع النعم الجزال، ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوى ويكتمل بحسب معرفة العبد بربه، وفهمه لمعاني صفاته ونعوته، وامتلاء القلب من معرفتها ومحبتها، وأيضاً يعرف أنّه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله؛ فإنّ هذا هو أصل العلم، وأصل التعبد.

التفصيل

هذا أعلى أنواع العلوم، العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وبما له من صفات الكمال

والجلال والإحسان؛ لَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَدَوَّرُ صِفَاتُهُ عَلَى الْكَمَالِ الْمَطْلَقِ وَالْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ وَالْإِحْسَانِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ صِفَاتُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ النَّوْعُ الثَّانِي.



وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ: صِفَاتُ الرُّسُلِ، وَأَحْوَالُهُمْ، وَمَا جَرَى لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَعَ مَنْ وَافَقَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْصَافِ الرَّافِقَةِ، فَإِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ عَرَفَ بِهَا أَوْصَافَهُمْ، وَازْدَادَتْ مَعْرِفَتُهُ بِهِمْ وَمَحَبَّتُهُمْ، وَعَرَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، خُصُوصًا إِمَامَتَهُمْ وَسَيِّدَتَهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقْتَدِي بِأَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ بِحَسَبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَيَفْهَمُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهِمْ تَمَامُهُ وَكَمَالُهُ مَعْرِفَتُهُ التَّامَّةُ بِأَحْوَالِهِمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ، وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ نُعُوتِهِمُ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ تَمَامُ الْكِفَايَةِ، وَيَسْتَفِيدُ أَيْضًا الْاِقْتِدَاءَ بِتَعْلِيمَاتِهِمُ الْعَالِيَةِ، وَإِرْشَادَاتِهِمُ لِلخَلْقِ، وَحُسْنِ خِطَابِهِمْ، وَلُطْفِ جَوَابِهِمْ، وَتَمَامِ صَبْرِهِمْ، فَلَيْسَ الْقَصْدُ مِنْ قَصَصِهِمْ أَنْ تَكُونَ سَمَرًا، وَإِنَّمَا الْقَصْدُ أَنْ تَكُونَ عِبْرًا.

التعاليق

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] وَالْعِبْرَةُ فِي قَصَصِ الرُّسُلِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: مِنْ جِهَةِ أَخْلَاقِهِمْ وَصَبْرِهِمْ وَمُعَانَاتِهِمْ لِأَحْوَالِ الْخَلْقِ، وَكَيْفَ يَدْعُونَ النَّاسَ وَيَتَحَمَّلُونَ فِي الدَّعْوَةِ مَا لَا يَتَحَمَّلُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: الْعِبْرَةُ بِمَا جَرَى مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَقَبَّلُوا دَعْوَتَهُمْ لِأَوَّلِ

وَهَلَّةٍ، بَلْ نَابِذُوهُمْ، وَعَانَدُوهُمْ، بَلْ وَقَاتَلُوهُمْ. فَهَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ، لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعُهُمْ فِي مَادَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

فَالْحَاصِلُ أَنَّ نَعْتَبِرَ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةِ حَالِ الرُّسُلِ، وَمِنْ جِهَةِ حَالِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ. فَإِذَا دَعَوْنَا النَّاسَ لِيُؤْمِنُوا فَإِنَّا لَا نُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنَّا مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نُعَانِيَ مِنْهُمْ حَتَّى يَقْبَلُوا الْحَقَّ، وَلَا نِيَاسَ أَوْ نَسْتَحْسِرَ، أَوْ نَقُولَ: هَؤُلَاءِ لَمْ يَهْتَدُوا؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَتِ الطَّائِفَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].



وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ: عِلْمُ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ، وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَالشَّرِّ، وَفِي مَعْرِفَتِهِ لَهُمْ وَأَوْصَافِهِمْ وَنُعُوتِهِمْ فَوَائِدُ: التَّرْغِيبُ فِي الْاِقْتِدَاءِ بِالْأَخْيَارِ، وَالتَّرْهيبُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَشْرَارِ، وَالْفُرْقَانُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَبَيَانُ الصِّفَاتِ وَالطَّرِيقِ الَّتِي وَصَلَ بِهَا هَؤُلَاءِ إِلَى دَارِ النَّعِيمِ، وَأُولَئِكَ إِلَى دَارِ الْجَحِيمِ، وَمَحَبَّةُ هَؤُلَاءِ الْأَتْقِيَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ بُغْضَ أُولَئِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْرَفَ لِأَحْوَالِهِمْ تَمَكَّنَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ.

وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ: عِلْمُ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَالْبَرْزَخِ، وَالْآخِرَةِ، عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَأَعْمَالِ الشَّرِّ، وَفِي ذَلِكَ مَقَاصِدُ جَلِيلَةٌ: الْإِيمَانُ بِكَمَالِ عَدْلِ اللَّهِ، وَسَعَةِ فَضْلِهِ،

وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَإِنَّ تَمَامَ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَكُونُ فِيهِ،
وَالْتَرغيبُ وَالتَّرْهيبُ بِالرَّغْبَةِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي رَتَّبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ، وَالرَّهْبَةَ
مِنْ ضِدِّهَا.

وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ: الْأَمْرُ وَالتَّنْهِي، وَفِي ذَلِكَ مَقَاصِدُ جَلِيلَةٌ: مَعْرِفَةُ حُدُودِ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْمُكَلِّفِينَ مُكَلَّفُونَ بِمَعْرِفَةِ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَمَا نُهِوا عَنْهُ،
وَبِالْعَمَلِ بِذَلِكَ، وَالْعِلْمُ سَابِقٌ لِلْعَمَلِ، وَطَرِيقُ ذَلِكَ: إِذَا مَرَّ عَلَيْهِ نَصٌّ فِيهِ أَمْرٌ بِشَيْءٍ
عَرَفَهُ، وَفَهُمَ مَا يَدْخُلُ فِيهِ، وَمَا لَا يَدْخُلُ، وَحَاسَبَ نَفْسَهُ: هَلْ هُوَ قَائِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ،
أَوْ بَعْضِهِ، أَوْ تَارِكُهُ؟ فَإِنْ كَانَ قَائِمًا بِهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَيَسْأَلْهُ الثَّبَاتَ وَالزِّيَادَةَ مِنَ
الْحَيْرِ، وَإِنْ كَانَ مُقْصِرًا فِيهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُطَالَبٌ بِهِ، وَمَلْزُومٌ بِهِ، فَلْيَسْتَعِنْ اللَّهَ عَلَى
فِعْلِهِ، وَلْيَجَاهِدْ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ فِي التَّنْهِي؛ لِيَعْرِفَ مَا يُرَادُ مِنْهُ، وَمَا يَدْخُلُ
فِي ذَلِكَ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ لِيَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ ذَلِكَ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ
عَلَى ذَلِكَ، وَيَسْأَلْهُ أَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَى تَرْكِ الْمُنَاهِي، كَمَا يَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ،
وَلِيَجْعَلَ الدَّاعِيَ لَهُ عَلَى التَّرْكِ امْتِثَالَ طَاعَةِ اللَّهِ، لِيَكُنْ تَرْكُهُ عِبَادَةً، كَمَا كَانَ فِعْلُهُ
عِبَادَةً.

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ تَارِكٍ لَهُ فَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ تَوْبَةً جَازِمَةً، وَلْيُبَادِرْ وَلَا تَمْنَعَهُ
الشَّهَوَاتُ الدُّنْيَا عَنْ مُجَانِبَةِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَ هَذِهِ
الْمَطَالِبِ وَغَيْرِهَا، عَامِلًا عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَإِنَّهُ مَاشٍ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالطَّرِيقَةِ
الْمُثَلَّى فِيهَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْتِزَادِ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَحَصَلَ لَهُ بِذَلِكَ عِلْمٌ غَزِيرٌ، وَخَيْرٌ
كَثِيرٌ.

التعاليق

خُلاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

بَيَّنَ الْمُؤَلِّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ عُلُومَ الْقُرْآنِ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، فِيهِ كُلُّ الْعُلُومِ؛ فِيهِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا أَعْلَاهَا وَأَجَلُّهَا، وَالْعِلْمُ بِرُسُلِهِ، وَالْعِلْمُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْعِلْمُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْكُونِيَّةِ، وَالْعِلْمُ بِالْجَزَاءِ، وَالْعِلْمُ بِمَا فِي الْكَوْنِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَالْعِلْمُ بِأَوْصَافِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ لِأَجْلِ أَنْ نَتَّصِفَ بِمَا اتَّصَفَ بِهِ أَهْلُ الْخَيْرِ، وَنَتَّعَدَّ عَمَّا اتَّصَفَ بِهِ أَهْلُ الشَّرِّ.



القاعدةُ الثلاثون:

أَرْكَانُ الْإِيمَانِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ثَلَاثَةٌ:
إِيمَانُنَا بِالْإِسْمِ وَبِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى وَبِمَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنَ الْأَنْوَاعِ

وهذه القاعدةُ العظيمةُ خاصّةٌ بِأَسْمَاءِ الرَّبِّ، وفي القرآنِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى مَا يُنَيِّفُ عَنْ ثَمَانِينَ اسْمًا، كُرِّرَتْ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَسَبِ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ، كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ الْإِشَارَةِ إِلَى الْمُنَاسَبَةِ بِهَا.

وهذه القاعدةُ تَنْفَعُكَ فِي كُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْخَلْقِ، وَالْأَمْرِ، وَالنَّوَابِ، وَالْعِقَابِ؛ فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ وَذُو عِلْمٍ عَظِيمٍ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَدِيرٌ ذُو قُدْرَةٍ وَقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَرَحِيمٌ ذُو رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ، وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

وَالثَّلَاثَةُ مُتَلَازِمَةٌ؛ فَالْإِسْمُ دَلٌّ عَلَى الْوَصْفِ، وَذَلِكَ دَلٌّ عَلَى الْمُتَعَلِّقِ. فَمَنْ نَفَى وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتِمَّ إِيْمَانُهُ بِأَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ، الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّوْحِيدِ، وَلَنُكْتَفَ بِهَذَا الْأَنْمُودَجِ؛ لِيَعْرِفَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا عَلَى هَذَا النَّمَطِ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ الثَّلَاثَةَ فِيمَا إِذَا كَانَ الْإِسْمُ مُتَعَدِّيًا؛ مِثْلُ: السَّمِيعِ، وَالْعَلِيمِ،

والخلاق، وما أشبه ذلك. أمّا إذا كان لازماً، فإنّه يُؤمنُ بالاسمِ والصفةِ فقط؛ فمثلاً:
الحَيُّ، تُؤمنُ بهذا الاسمِ اسماً من أسماء الله، وتؤمنُ بأنّه ذو حياةٍ، وهذه هي الصفةُ،
لكنّ ليس لها أصلٌ تتعلّقُ به؛ لأنّ هذه الصفةُ اللازمة لا تتعدّى موصوفها، والذي
أنكرَ دلالةَ الاسمِ على الصفةِ هم المعتزلةُ، قالوا: نُؤمنُ بالاسمِ بدوّنِ أن يكونَ له
صفةٌ، فهو سَمِيعٌ بلا سَمْعٍ، وبَصِيرٌ بلا بَصَرٍ! ويدّعون أنّ اللهَ سَمِيعٌ بذاته لا بصفةٍ
هي السَّمْعُ، عَلِيمٌ بذاته لا بصفةٍ هي العِلْمُ.



القاعدة الحادية والثلاثون:

رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَوْعَيْنِ: عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ

كُتِرَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ لِعِبَادِهِ، وَمُتَعَلِّقَاتِهَا، وَلَوَازِمِهَا، وَهِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ:

رُبُوبِيَّةٌ عَامَّةٌ: تَدْخُلُ فِيهَا الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا؛ بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا، بَلْ مُكَلَّفُوهَا وَغَيْرُ الْمُكَلَّفِينَ، حَتَّى الْجَاهِدَاتُ، وَهِيَ: أَنَّهُ تَعَالَى الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِهَا، وَرِزْقِهَا، وَتَدْبِيرِهَا، وَإِعْطَائِهَا مَا مَحْتَاجُهُ، أَوْ تَضَطُّرُّ إِلَيْهِ فِي بَقَائِهَا، وَحُصُولِ مَنَافِعِهَا وَمَقَاصِدِهَا، فَهَذِهِ التَّرْبِيَّةُ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا أَحَدٌ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: فِي تَرْبِيَّتِهِ لِأَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَيُرَبِّيهِم بِالْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَيُوقِّفُهُم لِتَكْمِيلِهِ، وَيُكَمِّلُهُم بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْأَخْلَاقَ الرَّذِيلَةَ، وَيُسِّرُّهُمْ لِلْيُسْرَى، وَيَجْنِبُهُمُ الْعُسْرَى.

وَحَقِيقَتُهَا: التَّوْفِيقُ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَالْحِفْظُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَإِنَالَةُ الْمَحْبُوبَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَصَرْفُ الْمَكْرُوهَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ.

فَحَيْثُ أَطْلَقَتْ رُبُوبِيَّتُهُ تَعَالَى فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْمَعْنَى الْأَوَّلَ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ أَلَسْمِيتَ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَحَيْثُ قِيدَتْ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، أَوْ وَقَعَ السُّؤَالُ بِهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتِّبَاعِهِمْ، فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا النَّوْعُ الثَّانِي، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِلنَّوْعِ الْأَوَّلِ؛ وَلِهَذَا نَحْدُ أَسْئَلَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتِّبَاعِهِمْ فِي الْقُرْآنِ بِلَفْظِ

الرُّبُوبِيَّةَ غَالِبًا؛ فَإِنَّ مَطَالِبَهُمْ كُلَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ رُبُوبِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ؛ لِيَلْحَظَ الْعَبْدُ هَذَا الْمَعْنَى النَّافِعَ.

وَنَظِيرُ هَذَا الْمَعْنَى الْجَلِيلِ: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِبَادُهُ وَعَبِيدُهُ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فَكُلُّهُمْ تَمَالِيكُهُ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَالْأَمْرِ شَيْءٌ.

وَيُخْبِرُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ عِبَادَهُ بَعْضُ خَلْقِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِهِمُ الْجَلِيلَةَ. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عِبَادَهُ﴾ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] فَالْمُرَادُ بِهَذَا النَّوعِ مَنْ قَامُوا بِعُبُودِيَّةِ اللَّهِ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الدِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ.

فَالْعُبُودِيَّةُ الْأُولَى: يَدْخُلُ فِيهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْعُبُودِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: صِفَةُ الْأَبْرَارِ. وَلَكِنْ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ: أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ وَصْفُ الرَّبِّ وَفِعْلُهُ، وَالْعُبُودِيَّةُ وَصْفُ الْعَبْدِ وَفِعْلُهُمْ.

التعليق

أَفَادَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ عَلَى نَوْعَيْنِ: وَالْعُبُودِيَّةَ عَلَى نَوْعَيْنِ. الرُّبُوبِيَّةُ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ. وَالْعُبُودِيَّةُ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ. وَالْعُبُودِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بِالْعَبْدِ، وَالرُّبُوبِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بِالرَّبِّ.

فَالْعُبُودِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالرُّبُوبِيَّةِ هِيَ الْعَامَّةُ، الَّتِي مَعْنَاهَا الْمُلْكُ وَالتَّدْبِيرُ وَالْخَلْقُ. وَالْعُبُودِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْعَبْدِ مَعْنَاهَا: طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هَذِهِ خَاصَّةٌ بِمَنْ أَطَاعَ. وَقَدْ اجْتَمَعَ

الصَّنَفَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣٨) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١-١٢٢] (رَبُّ الْعَالَمِينَ) هَذِهِ عَامَّةٌ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ هَذِهِ خَاصَّةٌ. ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] هَذِهِ خَاصَّةٌ. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] عَامَّةٌ. «يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ»^(١) عَامَّةٌ. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] خَاصَّةٌ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١١) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ، عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴿[النحل: ٩٩-١٠٠]. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿[ص: ٨٢-٨٣] خَاصَّةٌ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القاعدةُ الثَّانِيَةُ والثَّلَاثُونَ:

إِذَا أَمَرَ اللَّهُ بِشَيْءٍ كَانَ نَاهِيًا عَنْ ضِدِّهِ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ كَانَ أَمْرًا بِضِدِّهِ
وَإِذَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ بَنَفِي شَيْءٍ مِنَ النَّقَائِصِ
كَانَ ذَلِكَ إِنْبَاءًا لِلْكَمَالِ

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ امْتِسَالَ الْأَمْرِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ إِلَّا بِتَرْكِ ضِدِّهِ؛ فَحَيْثُ أَمَرَ
بِالتَّوْحِيدِ، وَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ،
وَالْعَدْلِ، كَانَ نَهْيًا عَنِ الشُّرْكِ، وَعَنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَتَرْكِ الزَّكَاةِ، وَتَرْكِ الصَّوْمِ،
وَتَرْكِ الْحَجِّ، وَعَنِ الْعُقُوقِ وَالْقَطِيعَةِ.

وَحَيْثُ نَهَى عَنِ الشُّرْكِ، وَإِضَاعَةِ الصَّلَاةِ، إِلَى آخِرِ الْمَذْكُورَاتِ، كَانَ أَمْرًا
بِالتَّوْحِيدِ، وَفِعْلِ الصَّلَاةِ، إِلَى آخِرِهَا.

وَحَيْثُ أَمَرَ بِالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ، وَإِقْبَالِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ: إِنْابَةً، وَمَحَبَّةً، وَخَوْفًا،
وَرَجَاءً -كَانَ مَهْيًا عَنِ الْجَزَعِ، وَالسَّخَطِ، وَكُفْرَانِ النِّعَمِ، وَإِعْرَاضِ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ فِي
تَعَلُّقِ هَذِهِ الْأُمُورِ بغيرِهِ.

وَحَيْثُ نَهَى عَنِ الْجَزَعِ، وَكُفْرَانِ النِّعَمِ، وَغَفْلَةِ الْقَلْبِ -كَانَ أَمْرًا بِالصَّبْرِ... إِلَى
آخِرِ الْمَذْكُورَاتِ، وَهَذَا ضَرْبُ مَثَلٍ، وَإِلَّا فَكُلُّ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي عَلَى هَذَا النَّمَطِ.

وَكَذَلِكَ الْمَدْحُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِثْبَاتِ الْكَمَالَاتِ؛ فَحَيْثُ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَذَكَرَ
تَنْزَهُهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ: كَالنَّوْمِ، وَالسَّنَةِ، وَاللُّغُوبِ، وَالْمَوْتِ، وَخَفَاءِ شَيْءٍ فِي

العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها، والظلم؛ فلتضمن ذلك الشاء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله؛ لأنَّ العدم المحض لا كمال فيه حتى ينفى تكميلاً للكمال.

وكذلك إذا نفى الله عن كتابه الرِّيب، والاختلاف، والشك، والإخبار بخلاف الواقع - كان ذلك لكمال دلالة على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الأحكام، والانتظام التام، والصدق الكامل، إلى غير ذلك من صفات كتابه.

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب، والتقول، والجنون، والسحر، والشعر، والغلط، ونحوها - كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلى وحى يوحى، ولكمال عقله، ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتعطف لهذه القاعدة في كل ما يمرُّ عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها تنل خيراً كثيراً. والله أعلم.

النهي

المؤلف رحمه الله يقول في هذه القاعدة: إن الله إذا أمر بالشيء كان نهياً عن ترك الشيء الذي عبّر عنه بضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضد ذلك الشيء. وهذه القاعدة ليست على العموم عند التسبّع؛ فإن ترك المستحبات المندوبات لا يستلزم وقوع الإنسان في النهي؛ ولهذا لا نقول: إن ترك المستحب مكروه؛ فالكروه شيء، وترك المستحب شيء آخر.

نعم، إذا كان الأمر واجباً كان تركه حراماً. وأمّا إذا كان الشيء مستحباً فإنه لا يلزم من تركه أن يقع الإنسان في النهي، وهذا شيء ذكره أهل العلم في الأصول.

أَمَّا إِذَا كَانَ النَّفْيُ مِنْ بَابِ الْمَدْحِ وَالتَّمْدِيحِ بِالشَّيْءِ فَإِنَّهُ إِثْبَاتٌ لِضِدِّهِ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى اتِّصَالِهِ بِكَمَالِ ضِدِّهِ، فَإِذَا نَفَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ النَّوْمَ؛ فَلِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ، وَإِذَا نَفَى عَنْ نَفْسِهِ التَّعَبَ وَالْإِعْيَاءَ؛ فَلِكَمَالِ قُدْرَتِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، يَعْنِي: مِنْ تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ؛ وَذَلِكَ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقُوَّتِهِ، وَعَلَى هَذَا فَفَقَسْ.

وَأِنَّمَا قُلْنَا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ، وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَضَلًّا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: مَا مِنْ صِفَةٍ نَفَاهَا اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا وَهِيَ تَتَضَمَّنُ ثُبُوتَ مُقَابِلٍ لِهَذَا النَّفْيِ، وَإِلَّا لَوْ كَانَتْ نَفْيًا مَحْضًا لَمْ تَكُنْ كَمَالًا.



القاعدةُ الثَّانِيَةُ والثَّلَاثُونَ:

الْمَرَضُ فِي الْقُرْآنِ - مَرَضُ الْقُلُوبِ - نَوْعَانِ: مَرَضُ شُبُهَاتٍ وَشُكُوكٍ،
وَمَرَضُ شَهَوَاتٍ مُحَرَّمَاتٍ

وَالطَّرِيقُ إِلَى تَمْيِيزِ هَذَا مِنْ هَذَا - مَعَ كَثْرَةِ وُرُودِهِمَا فِي الْقُرْآنِ - يُدْرِكُ مِنَ السِّيَاقِ، فَإِنْ كَانَ السِّيَاقُ فِي ذِمِّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُخَالِفِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، كَانَ هَذَا مَرَضَ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ، وَإِنْ كَانَ السِّيَاقُ فِي ذِكْرِ الْمَعَاصِي وَالْمِيلِ إِلَيْهَا كَانَ مَرَضَ شَهْوَةٍ.

وَوَجْهُ انْحِصَارِ الْمَرَضِ فِي هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ: أَنَّ مَرَضَ الْقَلْبِ خِلَافُ صِحَّتِهِ، وَصِحَّةُ الْقَلْبِ الْكَامِلَةُ بِشَيْئَيْنِ: كِمَالِ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَبِقِيْنِهِ، وَكِمَالِ إِرَادَتِهِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَالْقَلْبُ الصَّحِيحُ هُوَ الَّذِي عَرَفَ الْحَقَّ وَاتَّبَعَهُ، وَعَرَفَ الْبَاطِلَ وَتَرَكَهُ، فَإِنْ كَانَ عِلْمُهُ شَكًّا، وَعِنْدَهُ شُبُهَاتٌ تُعَارِضُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ كَانَ عِلْمُهُ مُنْحَرِفًا، وَكَانَ مَرَضُ قَلْبِهِ قُوَّةً وَضَعْفًا بِحَسَبِ هَذِهِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ، وَإِنْ كَانَتْ إِرَادَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ مَائِلَةً لَشَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ كَانَ ذَلِكَ انْحِرَافًا فِي إِرَادَتِهِ وَمَرَضًا. وَقَدْ يَجْتَمِعُ الْأَمْرَانِ، فَيَكُونُ الْقَلْبُ مُنْحَرِفًا فِي عِلْمِهِ، وَفِي إِرَادَتِهِ.

فَمِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وَهِيَ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ الْمُعَارِضَةُ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] عُقُوبَةً عَلَى ذَلِكَ الْمَرَضِ النَّاتِجِ عَنْ أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّهَا مِنْهُمْ، وَهُمْ فِيهَا غَيْرُ مَعْذُورِينَ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣] فَإِنَّ مَرِيضَ الْقَلْبِ بِالشُّكُوكِ، وَضَعْفِ الْعِلْمِ أَقْلُ شَيْءٍ يُرِيْبُهُ، وَيُؤَثِّرُ فِيهِ، وَيَفْتِنُ بِهِ.

وَمِنَ الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أَيْ: مَرَضُ شَهْوَةٍ وَإِرَادَةٍ لِلْفُجُورِ، أَقْلُ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الْافْتِتَانِ يُوقِعُهُ فِي الْفِتْنَةِ طَمَعًا أَوْ فِعْلًا، فَكُلُّ مَنْ أَرَادَ شَيْئًا مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ فَقَلْبُهُ مَرِيضٌ مَرَضُ شَهْوَةٍ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا لَا تَصِفَ بِصِفَاتِ الْأَذْكَيَاءِ، الْأَبْرِيَاءِ، الْأَتْقِيَاءِ، الْمُؤَصِّفِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧-٨] فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فَلْيَحْمَدْهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا يَقَاوِمُهَا شَيْءٌ مِنَ النِّعَمِ، وَلْيَسْأَلِ اللَّهَ الثَّبَاتَ عَلَى ذَلِكَ، وَالزِّيَادَةَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

التعليق

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

أَنَّ مَرَضَ الْقُلُوبِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: مَرَضُ شُبْهَةٍ، وَهُوَ نَقْصٌ فِي الْعِلْمِ، وَمَرَضُ شَهْوَةٍ، وَهُوَ نَقْصٌ فِي الْإِرَادَةِ، فَإِذَا اعْتَلَّتْ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِمَعْنَى صَارَتْ إِرَادَتُهُ بغير مَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَذَلِكَ مَرَضُ الشَّهْوَةِ. وَإِذَا اعْتَلَّ الْقَلْبُ بِالْجَهْلِ صَارَ مَرَضُهُ مَرَضُ شُبْهَةٍ؛ لِأَنَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ، فَصَارَ مَرِيضًا بِذَلِكَ.

وَصِحَّةُ الْقَلْبِ وَسَلَامَتُهُ أَنْ يُؤْمِنَ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ فَيَجْتَمِعَ فِي قَلْبِهِ كَمَالُ الْعِلْمِ

وَكَمَالُ الْإِرَادَةِ. فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الْقَلْبِ كَمَالُ الْعِلْمِ وَكَمَالُ الْإِرَادَةِ، فَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ الصَّحِيحُ السَّلِيمُ. وَفَتَّشْ نَفْسَكَ! فَتَّشْ قَلْبَكَ! عَاجِلْهُ! أَعْتَقِدْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُطَهِّرُ بَدَنَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِالصَّابُونِ، وَأَسْنَانَهُ بِالْفُرْشَاةِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ فِيهَا وَسَخٌ وَدَرَنٌ، لَكِنِ الْقَلْبُ الْمُسْكِينُ مَتْرُوكٌ يَسْتَبِيهِ عَلَيْهِ الْحَقُّ، وَيَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ، فَلَا يُهِمُّهُ ذَلِكَ.

ولهذا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُطَهِّرَ قُلُوبَنَا، وَنَنْظُرَ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ، نَضَعُهَا فِي الْمُخْتَبَرِ وَالتَّمْجِيسِ؛ حَتَّى نَنْظُرَ أَصْحِيحَةً هِيَ أَمْ مَرِيضَةٌ؟ وَلَعَلَّكَ تَقُولُ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْقُرْآنُ سَبَبًا لَزِيَادَةِ الْإِيمَانِ فِي قَوْمٍ، وَسَبَبًا لَزِيَادَةِ الرَّجْسِ فِي قَوْمٍ آخَرِينَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَزَدَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴿[التوبة: ١٢٤-١٢٥]؟ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا نَزَلَتْ الْآيَةُ صَدَّقُوا بِهَا، وَالتَّصْدِيقُ زِيَادَةٌ فِي الْإِيمَانِ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَإِذَا نَزَلَتْ الْآيَةُ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، وَشَكُّوا فِيهَا وَكَذَّبُوا، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ.



القاعدةُ الرَّابِعةُ والثَّلَاثونُ:

دَلَّ الْقُرْآنُ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ أَنَّ مَنْ تَرَكَ مَا يَنْفَعُهُ مَعَ الْإِمْكَانِ
ابْتُلِيَ بِالْإِسْتِغَالِ بِمَا يَضُرُّهُ، وَحُرِّمَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ

وذلك أَنَّهُ وَرَدَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا زَهَدُوا فِي عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ابْتُلُوا
بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَمَّا اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلرُّسُلِ بَزَعِمِهِمْ أَنَّهُمْ بَشَرٌ ابْتُلُوا بِالْإِنْقِيَادِ
لِكُلِّ مَارِجِ الْعَقْلِ وَالذِّينِ، ...

التَّعْلِيلُ

هَذَا وَاضِحٌ، لَمَّا عَدَلُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَبْدُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَلَمَّا لَمْ يَنْقَادُوا
لَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اتَّبَعُوا أَبَا جَهْلٍ وَأَشْبَاهَهُ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:
هَرَبُوا مِنَ الرَّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ^(١)
فَكَانُوا عِبَادًا لِلشَّيَاطِينِ وَلَا نَفْسِهِمْ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ.

... وَلَمَّا عُرِضَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَعَرَفُوهُ ثُمَّ تَرَكَوهُ؛ فَلَبَّ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ،
وَطَبَعَ عَلَيْهَا وَخَتَمَ، فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، وَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُمُ الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ، وَزَاعُوا عَنْهُ اخْتِيَارًا وَرِضًا بِطَرِيقِ الْغَيِّ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى عُوِقُوا بِأَنَّ

(١) نونية ابن القيم (ص: ٣٠٨).

أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ حَائِرِينَ فِي طَرِيقِهِمْ، وَلَمَّا أَهَانُوا آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلَهُ أَهَانَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ، وَلَمَّا اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ أَذَلَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَمَّا مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَأَخْرَبُوهَا مَا كَانَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا، يُخْبِرُ فِيهَا أَنَّ الْعَبْدَ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ بَصْدَدٍ أَنْ يَهْتَدِيَ، وَأَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَةَ، ثُمَّ إِذَا تَرَكَهَا بَعْدَ أَنْ عَرَفَهَا، وَزَهَدَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ سَلَكَهَا، أَنَّهُ يُعَاقَبُ، وَيَصِيرُ الْاهْتِدَاءُ غَيْرَ مُمَكِّنٍ فِي حَقِّهِ، جَزَاءً عَلَى فِعْلِهِ؛ كَقَوْلِهِ عَنِ الْيَهُودِ: ﴿بَدَّ وَرَيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ طُغُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴿[البقرة: ١٠١]- ١٠٢﴾ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا أَجَلَ الْكِتَابِ وَأَنْفَعَهَا، وَأَصْدَقَهَا، فَابْتَلُوا بِاتِّبَاعِ أَرْضِهَا، وَأَكْذَبَهَا، وَأَضَرَّهَا، وَالْمَحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرُسُولِهِ تَرَكُوا إِتْفَاقَ أُمُومِهِمْ فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ، وَأَنْفَقُوهَا فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ!!



القاعدة الخامسة والثلاثون:

فِي الْقُرْآنِ عِدَّةُ آيَاتٍ فِيهَا الْحُثُّ عَلَى أَعْلَى الْمَصْلَحَتَيْنِ وَتَقْدِيمُ أَهْوَنِ الْمَفْسَدَتَيْنِ
وَمَنْعُ مَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَرْجَحَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ

وهذه قاعدة جليلة نبه الله عليها في آيات كثيرة.

فَمِنَ الْأَوَّلِ: الْمَفَاضَلَةُ بَيْنَ الْأَعْمَالِ، وَتَقْدِيمُ الْأَعْلَى مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ الآية [الحديد: ١٠] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] بَيْنَ تَعَالَى أَنَّ مَا نَقَمَهُ الْكُفَّارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ قِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مَفْسَدَةً، فَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَبِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقَتْلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] فَكَفَّهُمُ اللَّهُ عَنِ الْقِتَالِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، مَعَ وُجُودِ الْمُقْتَضِي مِنَ الْكُفَّارِ، خَوْفُ الْمَفْسَدَةِ الْمَتَرَبِّتَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إصَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ وَمَضَرَّتِهِ. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا جَرَى فِي الْحُدُودِ مِنْ هَذَا الْبَابِ، مِنْ التَّرَامِ تِلْكَ الشُّرُوطِ

الَّتِي ظَاهِرُهَا ضَرَرٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ صَارَتْ هِيَ عَيْنَ الْمَصْلَحَةِ لَهُمْ.

وَمِنْ هَذَا: أَمْرُهُ بِكَفِّ الْأَيْدِي قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَعْظَمُ ضَرَرًا مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِخْلَادِ إِلَى السَّكِينَةِ. وَلَعَلَّ مِنْ هَذَا مَفْهُومُ قَوْلِهِ: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، يَعْنِي: فَإِنْ ضَرَّتْ فَتَرُكُ التَّذْكِيرِ الْمَوْجِبِ لِلضَّرَرِ الْكَثِيرِ هُوَ الْمُتَعَيَّنُ، وَالآيَاتُ فِي هَذَا النَّوعِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَمِنَ الثَّالِثِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] هَذَا كَالْتَّعْلِيلِ الْعَامِّ: أَنَّ كُلَّ مَا كَانَتْ مَضَرَّتُهُ وَإِثْمُهُ أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ حِكْمَتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَمْنَعَ مِنْهُ عِبَادَهُ وَيُحَرِّمَهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ كَمَا أَنَّهُ ثَابِتٌ شَرْعًا فَإِنَّهُ هُوَ الْمَقْضِيُّ بَيْنَ النَّاسِ الْمَفْطُورِينَ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعاليق

وَالْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: «دَفْعُ الْمَفْسَدَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصْلَحَةِ» لِأَنَّ سَبَّ آلِهِتِهِمْ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ، لَكِنْ سَبُّ اللَّهِ أَعْظَمُ جُرْمًا.

وَهُنَاكَ قَاعِدَةٌ ثَالِثَةٌ، وَهِيَ: «أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ جَاءَ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ، وَتَقْلِيلِ الْمَفَاسِدِ مَا أُمْكَنَ» هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا هَذَا الدِّينُ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فَالِدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ جَاءَ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ، وَتَقْلِيلِ الْمَفَاسِدِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.

وَهَذَا يَجْمَعُ الْقَوَاعِدَ الثَّلَاثَةَ؛ لِأَنَّ الْمَصَالِحَ الْمُرْسَلَةَ الصَّحِيحُ أَنَّهَا لَيْسَتْ ثَابِتَةً، وَأَنَّ الْمَصْلَحَةَ إِنْ شَهِدَ الشَّرْعُ لَهَا فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْمَصَالِحِ الشَّرْعِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ

لَهَا الشَّرْعُ، أَوْ شَهِدَ بِقُبْحِهَا فَهِيَ لَيْسَتْ مَصْلَحَةً وَإِنْ ظَنَّ صَاحِبُهَا أَنَّهَا مَصْلَحَةٌ، فَلَا تُثَبِّتُ دَلِيلًا يُسَمَّى (المَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ) لِأَنَّ إِثْبَاتَهَا دَلِيلًا يَجْعَلُ كُلَّ إِنْسَانٍ يَقُولُ: هَذَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ! كَمَا قِيلَ فِي تَحْلِيلِ رَبِّا الْبُنُوكِ: إِنَّهُ مِنَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ.

فَائِدَةٌ: رَجُلٌ يَفْعَلُ مُنْكَرًا، لَوْ نَهَيْتُهُ عَنْهُ لَانْتَقَلَ إِلَى مُنْكَرٍ أَنْكَرَ! فَدَعُهُ يَبْقَى عَلَى مُنْكَرِهِ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ، كَمَا ذُكِرَ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ حِينَ اسْتَوَلَى التَّارُ عَلَى الشَّامِ مَرَّ بِطَائِفَةٍ مِنْ الْجُنْدِ يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ، وَيَعْبَثُونَ بِاللَّهْوِ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ شَيْئًا! وَكَانَ مَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ إِذَا لَمْ تَنْهَ هَؤُلَاءِ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: لِأَنِّي لَوْ نَهَيْتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لَتَرَكُوهُ وَذَهَبُوا يَعِيشُونَ فَسَادًا فِي أَرْضِي وَأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَقَاؤُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُنْكَرِ أَهْوَنُ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى حُرْمَاتِهِمْ^(١).



(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ١٣).

القاعدة السادسة والثلاثون:

طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ إِبَاحَةُ الْاِفْتِصَاصِ مِنَ الْمُعْتَدِي، وَمُقَابَلَتُهُ بِمِثْلِ عُدْوَانِهِ،
وَالنَّهْيُ عَنْ ظُلْمِهِ، وَالنَّدْبُ إِلَى الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ

التعليق

هَذِهِ ثَلَاثُ حَالَاتٍ: اقْتِصَاصٌ جَائِزٌ، ظُلْمٌ مَمْنُوعٌ، عَفْوٌ وَإِحْسَانٌ مَطْلُوبٌ.
لَكِنْ هَذَا الْأَخِيرُ يَجِبُ أَنْ يُقَيَّدَ بِمَا إِذَا كَانَ فِيهِ إِصْلَاحٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أَمَّا لَوْ جَاءَنَا رَجُلٌ مُجْرِمٌ قَدْ فَعَلَ جَرِيْمَتَهُ، وَقُلْنَا لَهُ: عَفَوْنَا عَنْكَ! فَقَالَ: اللَّهُ
يُعَافِيكُمْ، ثُمَّ أَخَذَ الْعَصَا وَذَهَبَ يَضْرِبُ النَّاسَ، فَهَلْ فِي عَفْوِنَا هَذَا إِصْلَاحٌ؟
الْجَوَابُ: لَا؛ وَلِهَذَا يَجِبُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْأُمُورِ بِعَيْنِ الْعَقْلِ،
لَا بِعَيْنِ الْعَاطِفَةِ.

يَأْتِي رَجُلٌ مُتَهَوِّرٌ -مثلاً- وَيَدْهُسُ ابْنًا لَكَ أَوْ أَخًا، فَيَجِيءُ النَّاسُ الَّذِينَ
عَفَوْلُهُمْ فِي عُيُونِهِمْ فَقَطْ، يَصِيحُونَ عَلَيْكَ: ارْحَمْ هَذَا الرَّجُلَ! أَعْتِقْهُ! لَهُ أَوْلَادٌ،
لَهُ كَذَا، لَهُ كَذَا! وَيَأْتُونَ بِمَا يُرَقِّقُ النَّفْسَ لِلْعَفْوِ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
هَذَا الرَّجُلَ لَوْ عَفَوْنَا عَنْهُ الْآنَ لَأَتَانَا بِبَلِيَّةٍ أُخْرَى فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَهَذَا لَيْسَ أَهْلًا
لِلْعَفْوِ؛ فَكُلُّ النُّصُوصِ الَّتِي تَحْتُّ عَلَى الْعَفْوِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُقَيَّدَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَ الْعَفْوِ إِصْلَاحٌ كَانَ ظَالِمًا، وَالظُّلْمُ مَمْنُوعٌ.



وهذا في آيات كثيرة، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] ﴿وَحَزُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ الثَّلَاثَ؛ وَلَمَّا كَانَ الْقِتَالُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مُحَرَّمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴿[البقرة: ١٩١-١٩٤] وَهُوَ كُلُّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَأَمَرَ بِاحْتِرَامِهِ، فَمَنْ انْتَهَكَهُ فَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ الْاِقْتِصَاصَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا اعْتَدَى بِهِ لَا أَكْثَرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُيِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [الآية المائدة: ٤٥] ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعليق

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ هُوَ سُلْطَانٌ شَرْعِيٌّ طَبْعًا، وَرَبًّا كَوْنِيًّا أَيْضًا؛ بَأْنِ يُسَرُّ اللَّهُ الْعُتُورَ عَلَى هَذَا الْقَاتِلِ، فَيُقْتَلُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ

العامّة: «الْقَاتِلُ مَقْتُولٌ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِوَالِهِ سُلْطَنًا﴾.

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا - أَنَّهُ شَامِلٌ لِلسُّلْطَانِ الْكُونِيِّ وَالشَّرْعِيِّ - قَوْلُهُ: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ يَعْنِي: كَأَنَّ الْأَمْرَ مَفْرُوعٌ مِنْهُ، وَأَنَّ هَذَا الْقَاتِلَ لَا بُدَّ أَنْ يُقْتَلَ، لَكِنْ لَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِهِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ وَيَتَعَدَّى.



القاعدة السابعة والثلاثون:

اعْتَبَرَ اللهُ الْقَصْدَ وَالْإِرَادَةَ فِي تَرْتُّبِ الْأَحْكَامِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ

وَهَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ صَرَّحَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١) وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ وَرَدَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي هَذَا الْأَصْلِ.

فَمِنْهَا: وَهُوَ أَعْظَمُهَا أَنَّهُ رَتَّبَ حُصُولَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ عَلَى الْأَعْمَالِ بِإِرَادَةِ وَجْهِهِ، لَمَّا ذَكَرَ الصَّدَقَةَ، وَالْمَعْرُوفَ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ قَالَ: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ١١٤]...

التفصيل

الْأَمْرُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ خَيْرٌ، مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ. لَكِنْ ثَوَابُ الْآخِرَةِ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالنِّيَّةِ الْخَالِصَةِ: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». أَمَّا مَنْ يَفْعَلُهُ رِيَاءً وَسُمْعَةً، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ تَرْتَّبَ عَلَى فِعْلِهِ الْخَيْرُ، وَحَصَلَ الْإِصْلَاحُ، وَالصَّدَقَةُ وَالْمَعْرُوفُ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْتَى عَلَيْهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمامة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

... وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وفي مُقَابِلِهِ قَالَ: ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨]. وَوَصَفَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَخِيَارَ خَلْقِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِأَتَمِّهِمْ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى فِي الرَّجْعَةِ: ﴿وَيُؤْمِنُ أَتَقَىٰ بِرَبِّهِمْ فِي ذَلِكَ إِن آَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨] ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرَ مُضَكَّرٍ﴾ [النساء: ١٢] ﴿وَمَا اتَّوَا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيَّتًا﴾ [النساء: ٤] وَ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَأَخَوْنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وَفِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وَذَكَرَ اللَّهُ قَتْلَ الْخَطَا، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الدِّيَّةَ وَالْكَفَّارَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وَقَالَ فِي الصَّيْدِ: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥] وَقَالَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْإِبْدَانِ، وَأَقْوَالَ اللِّسَانِ؛ صِحَّتُهَا وَفَسَادُهَا، وَتَرْتُّبُ أَجْرِهَا أَوْ وَزْرِهَا، بِحَسَبِ مَا قَامَ بِالْقَلْبِ.



القاعدة الثامنة والثلاثون:

قَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى جَبْرِ خَاطِرِ الْمُنْكَسِرِ قَلْبُهُ وَمَنْ تَشَوَّفَتْ نَفْسُهُ
لَأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِيحَابًا أَوْ اسْتِجَابًا

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري، وأرشد عباده إليها في عدة آيات:

منها: المطلقة، فإنه لما كانت في الغالب منكسرة القلب، حزينه على فراق بعلها - أمر الله بمُتَعَتِهَا عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ.

وكذلك مَنْ مَاتَ زَوْجُهَا عَنْهَا، فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ جَبْرِ خَاطِرِهَا أَنْ تَمُكُثَ عِنْدَ أَهْلِهَا سَنَةً كَامِلَةً، وَصِيَّةً وَمُتْعَةً مُرَغَّبًا فِيهَا. وكذلك أَوْجَبَ اللهُ لِلزَّوْجَةِ عَلَى الزَّوْجِ النَّفَقَةَ وَالكِسُوفَةَ فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ إِذَا كَانَتْ رَجْعِيَّةً، أَوْ كَانَتْ حَامِلًا مُطْلَقًا.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

ويَدْخُلُ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَاوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

[الأنعام: ١٤١].

التعليق

وذلك لِأَنَّ يَوْمَ الْحَصَادِ يَحْضُرُهُ الْفُقَرَاءُ فِي الْغَالِبِ، فَكَانَ إِعْطَاؤُهُمْ مُنَاسِبًا جِدًّا؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ تَحْصُدُ الزَّرْعَ، وَتُكَدِّسُهُ، وَتَدْخِرُهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تُحْرِمَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءَ مِنْهُ.

وَكَذَلِكَ إِخْبَارُهُ عَنْ عُقُوبَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ،
وَتَوَاصَوْا أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَلْعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفِي
وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿٢٤﴾﴾
[الإسراء: ٢٣-٢٤].

التعليق

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَلْعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ لِأَنَّهُ إِذَا بَلَغَتِ الْأُمُّ وَالْأَبُ الْكِبَرَ ضَعُفَتْ
نَفْسُهُمَا وَرَقَّتْ، وَاحْتِاجَا إِلَى مَنْ يَرْحُمُهُمَا، هَذَا مِنْ وَجْهِ.
وَمِنْ وَجْهِ آخَرَ: إِذَا بَلَغَا الْكِبَرَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَمَلُّ مِنْهُمَا وَيَتَعَبُ، وَيَحْتَاجُ أَنْ
يُوصَى بِهِمَا خَيْرًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ.



إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٦].
وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ جَبْرَهُ لِقُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ أَوْقَاتَ الشَّدَاتِ، وَإِجَابَتُهُ لِأَدْعِيَّتِهِمْ
أَوْقَاتَ الْحَاجَاتِ وَالضَّرُورَاتِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِانْتِظَارِ الْفَرَجِ عِنْدَ الْأَزْمَاتِ، فَهَذَا أَصْلُ
قَدْ اعْتَبَرَهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ بَالِهِ فِي وَقْتِ الْمُنَاسَبَاتِ،
وَيَعْتَبِرُهُ عِنْدَ وُجُودِ سَبَبِهِ.

التعليق

هَذَا مِنَ الْأَدَابِ الْعَالِيَةِ، وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ، أَنَّهُ عِنْدَمَا تَحْدُ الْإِنْسَانُ مُنْكَسِرَ

الْقَلْبِ إِمَّا لِفَوَاتٍ مَحْبُوبٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ - فَيَنْبَغِي أَنْ تُدْخَلَ عَلَيْهِ الْفَرَحَ وَالشُّرُورَ،
وَتُهَوَّنَ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ بِتَذْكِيرِهِ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ، فَإِذَا تَلَفَ لَهُ مَالٌ، تَقُولُ: إِنَّ مِنَ النَّاسِ
مَنْ تَلَفَتْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا، وَإِذَا أُصِيبَ بِمَرَضٍ فِي عَيْنِهِ، تَقُولُ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ
قَدْ يُصَابُ بِالْعَمَى، وَهَكَذَا؛ حَتَّى تُخَفِّفَ عَلَيْهِ الْأُمُورَ، وَمِنْ ذَلِكَ تَعَزِيَةُ الْمُصَابِ.



القاعدة التاسعة والثلاثون:

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاسد، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وإخباره عن المؤمنين أن أمرهم شورى بينهم؛ فالأمر مفرد مضاف إلى المؤمنين، وفي الآية الأولى قد دخلت عليه (أل) المفيدة للعموم والاستغراق، يعني: أن جميع أمور المؤمنين، وشؤونهم، واستجلاب مصالحهم، واستدفاع مضارهم، معلق بالشورى، والتراود على تعيين الأمر الذي يجرون عليه.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصالح الديني والدنيوي هو طريق الشورى، فالمسلمون قد أرشدتهم الله إلى أن يهتدوا إلى مصالحهم، وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المصرة في طريق تركوه، وإذا كان في ذلك مصلحة ومصرة نظروا أيها أقوى، وأدخل، وأحسن عاقبة، وإذا رأوا أمراً من الأمور هو المصلحة، ولكن ليست أسبابه عيدة عندهم، ولا لهم قدرة عليها -نظروا بأي شيء تدرك تلك الأسباب، وبأي حالة تنال على وجه لا يضر.

وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة، والاختراعات

الباهرة - سَعَوْا لذلك بحَسَبِ اقْتِدَارِهِمْ، وَلَمْ يَمْلِكُ لَهُمُ الْيَأْسُ وَالِاتِّكَالُ عَلَى غَيْرِهِمْ الْمُلقِي إِلَى التَّهْلُكَةِ.

وَإِذَا عَرَفُوا - وَقَدْ عَرَفُوا - أَنَّ السَّعْيَ لَا تَفَاقِ الْكَلِمَةَ، وَتَوْحِيدِ الْأُمَّةِ، هُوَ الطَّرِيقُ الْأَقْوَمُ لِلقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ - جَدُّوا فِي هَذَا وَاجْتَهَدُوا. وَإِذَا رَأَوْا الْمَصْلَحَةَ فِي الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُهَاجِمَةِ، أَوْ فِي الْمُسَالَمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، سَلَكَوا مَا تَعَيَّنَتْ مَصْلَحَتُهُ، فَيُقَدِّمُونَ فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ، وَيُجْجِمُونَ فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: لَا يَدْعُونَ مَصْلَحَةَ دَاخِلِيَّةَ وَلَا خَارِجِيَّةَ، دَقِيقَةً وَلَا جَلِيلَةً - إِلَّا تَشَاوَرُوا فِيهَا، وَفِي طَرِيقِ تَحْصِيلِهَا وَتَنْمِيتِهَا، وَدَفْعِ مَا يُضَادُّهَا وَيَنْقُضُهَا. فَهَذَا النِّظَامُ الْعَجِيبُ الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَصْلُحُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَفِي كُلِّ أُمَّةٍ ضَعِيفَةٍ أَوْ قَوِيَّةٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فهذه الآية نَصٌّ صَرِيحٌ بِوُجُوبِ الاسْتِعْدَادِ لِلْأَعْدَاءِ بِمَا اسْتَطَاعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، وَمَعْنَوِيَّةٍ، وَمَادِّيَّةٍ، بِمَا لَا يُمَكِّنُ حَضْرَ أَفْرَادِهِ، وَفِي كُلِّ وَقْتٍ يَتَعَيَّنُ سُلُوكُ مَا يُلَائِمُ ذَلِكَ الْوَقْتَ وَيُنَاسِبُهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَرْشَدَ اللَّهُ فِيهَا إِلَى التَّحَرُّزِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَكُلُّ طَرِيقٍ وَسَبَبٍ يُتَحَرَّزُ بِهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي هَذَا، وَلِكُلِّ وَقْتٍ لَبُؤُسُهُ.

وَمِنْ عَجِيبِ مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ النِّظَامِ الْوَاحِدِ: أَنَّ اللَّهَ عَاتَبَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَى

أَعْقَبِكُمْ ﴿[آل عمران: ١٤٤] فَأَرْشَدَ عِبَادَهُ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا بِحَالَةٍ مِنْ جَرَيَانِ الْأُمُورِ عَلَى طَرِيقِهَا، لَا يُزْعِزُهُمْ عَنْهَا فَقَدْ رَئِيسٍ وَإِنْ عَظُمَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِأَنْ يَسْتَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ بَعْدَهُ أَنْاسٍ إِذَا فَقَدْ أَحَدُهُمْ قَامَ بِهِ غَيْرُهُ، وَأَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ مُتَوَحِّدَةً فِي إِرَادَتِهَا، وَعَزْمِهَا، وَمَقَاصِدِهَا، وَجَمِيعِ شُؤْنِهَا، قَصْدُهُمْ جَمِيعًا أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَأَنْ تَقُومَ جَمِيعُ الْأُمُورِ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أَي: اتَّقُوا غَضَبَهُ وَعِقَابَهُ بِالْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ لَكُمْ جَمَاعَةً وَمُنْفَرِدِينَ، فَكُلُّ مَصْلَحَةٍ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَهِيَ مُتَوَقَّفَةٌ فِي حُصُولِهَا أَوْ فِي كَمَالِهَا عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ السَّابِقَةِ أَوْ اللاحِقَةِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ تَحْصِيلُهَا بِحَسَبِ الْإِسْطِطَاعَةِ، فَلَا يُكَلِّفُهُمُ اللَّهُ مَا لَا يُطِيقُونَ.

وكَذَلِكَ كُلُّ مَفْسَدَةٍ وَمَضَرَّةٍ لَا يُمَكِّنُ اجْتِنَابُهَا إِلَّا بِسُلُوكِ بَعْضِ الطَّرِيقِ السَّابِقَةِ أَوْ اللاحِقَةِ، فَإِنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ لَزِمَ الْحَقُّ حَقًّا، وَالْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ.

التغابن

أَشَارَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى شَيْئَيْنِ:

الْأَوَّلُ: الشُّورَى، بِأَنْ يَجْتَمِعَ الْأُمَّةُ، وَتَشَاوَرَ فِي أُمُورِهَا الدَّاخِلِيَّةِ وَالْخَارِجِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَدَرَ الْأَمْرُ مِنَ الشُّورَى لَمْ يَكُنْ رَأْيًا وَاحِدًا، بَلْ عِدَّةُ آرَاءٍ. وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ تَعَدُّدَ الْآرَاءِ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ مِنَ الرَّأْيِ الْوَاحِدِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ أَحْيَانًا إِذَا كَرَّرَ النَّظَرَ فِي الْأَمْرِ يَبَيِّنُ لَهُ خَطَأَ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

أَحْيَانًا يُنْفَذُ شَيْئًا، ثُمَّ يَقُولُ: لَيْتَنِي لَمْ أَنْفِذْ، لَيْتَنِي بَقِيتُ أَتَرَوَى فِي الْأَمْرِ وَأَنْظُرُ،

حَتَّى يَكُونَ الْحُكْمُ عَلَى يَقِينٍ وَتُؤَدَّ.

هَذَا وَهُوَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كُلَّمَا كَرَّرَ الْأَمْرَ وَنَظَرَ فِيهِ، كَانَ إِلَى الصَّوَابِ أَقْرَبَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً؟! وَلَكِنِ الْمَشْكِلُ فِي زَمَنِنَا هَذَا هُوَ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ شَخْصًا حَسَنَ النِّيَّةِ، مُخْلِصًا، وَهَذِهِ هِيَ الْبَلِيَّةُ. لَا تَكَادُ تَجِدُ إِنْسَانًا يَتَكَلَّمُ فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ، وَهُوَ يَقْصِدُ مَصْلَحَةَ الْأُمَّةِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَتَحَيَّرُ أَحْيَانًا، وَيَقُولُ: مَاذَا تَنْفَعُ الشُّورَى، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَتَشَاوِرِينَ لَا يَسْعَى إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ خَاصَّةٍ؟!

وَلِهَذَا تَأْمَلُ قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] يَعْني: يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ وَالَّذِي هُوَ أَمْرُ الْجَمِيعِ، وَلَيْسَ أَمْرًا خَاصًّا؛ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ نَحْصُلَ عَلَى الشُّورَى؟ وَأَيْنَ مَنْ نَتَّقُ بِدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ وَنُصَحِهِ؟ هَذَا قَلِيلٌ، لَوْ وَجَدْنَا شَخْصًا جَيِّدًا فِي الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ، قَدْ يَكُونُ خَائِنًا مِنْ حَيْثُ الْأَمَانَةُ. وَلَوْ وَجَدْنَا أَمِينًا مُخْلِصًا، فَقَدْ يَكُونُ ضَعِيفًا مِنْ جِهَةِ الرَّأْيِ وَالتَّفْكِيرِ. فَأَمْرُ الشُّورَى لَا شَكَّ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَلَكِنْ مُشْكِلتُهُ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلشُّورَى.

الْأَمْرُ الثَّانِي مِمَّا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلنَّاسِ أَنْ يَعْتَزُّوا بِأَنْفُسِهِمْ لَا بِقَوَادِهِمْ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ نَفْسُ ذَلِكَ الْقَائِدِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا جَعَلُوا الْقِيَادَةَ لَوَاحِدٍ، حَقِيقَةً، وَظَاهِرًا، وَتَصَرُّفًا، فَإِنَّهَا تَهْوُنُ نُفُوسُهُمْ إِذَا فُقِدَ ذَلِكَ الْوَاحِدُ، وَقَدْ أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] هَلْ إِذَا مَاتَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَا يَبْقَى

لَكُمْ بَقِيَّةٌ عَلَى الْإِسْلَامِ؟ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وهكذا ينبغي لنا أن لا نُركِّزَ عَلَى الرَّئِيسِ الْوَاحِدِ، بَلْ نَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّنَا قَائِمٌ مَقَامَ هَذَا الرَّجُلِ؛ حَتَّى لَا نَفْقِدَهُ إِذَا فَقَدَ، وَأَنْ نَجْعَلَ الْعَمَلَ سَائِرًا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ مُهِمَّانِ؛ وَلِهَذَا يُذَكِّرُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ إِذَا رَأَى قَائِدًا قَدْ رَكِبَهُ النَّاسُ وَأَعْجَبُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَغْرِزُهُ.

وَأَنَّمَا يَغْرِزُهُ لِسَبَبَيْنِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: أَنْ لَا يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهِ.

وَالسَّبَبُ الثَّانِي: طَرْدًا لِإِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ، وَازْتِفَاعِهِ، وَتَعَالِيهِ، وَتَكْبِيرِهِ؛ فَهَذِهِ أَيْضًا مُهِمَّةٌ جَدًّا؛ وَلِهَذَا نَسْمَعُ عَنْ بَعْضِ الْخُطَبَاءِ مِنْ رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْقُلُوبَ فِي وَقْتِهِمْ، يَقُولُ: أَنَا لَسْتُ فُلَانًا، وَيُسَمِّي نَفْسَهُ، وَلَكِنْ كُنْتُ كُلُّكُمْ فُلَانًا، فَانْظُرْ كَيْفَ يَكُونُ التَّأْثِيرُ وَالتَّوْجِيهُ! كُلُّكُمْ فُلَانًا! يَعْنِي: أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ السِّيَاسَةُ قَدْ أَعْجَبَتْكُمْ، وَأَنَا مُحَلٌّ إِعْجَابِكُمْ فَلَا يَجِبُ أَنْ تَجْعَلُونِي وَكَأَنِّي أَتَصَرَّفُ لِشَخْصِي أَنَا، وَلَكِنْ اجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ، كُلَّكُمْ، أَنْتُمْ ذَلِكَ الرَّجُلَ، وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ تُشِيرُ إِلَى هَذَا.

وَمِنْ الْمُهْمِّ أَيْضًا إِعْدَادُ الْقُوَّةِ لِلْأَعْدَاءِ، وَتَأَمُّلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ تَجِدُ أَنَّهَا نَكِيرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] لَكِنَّهَا لَا تَتَعَيَّنُ بِقُوَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَإِذَا كَانَ أَعْدَاؤُنَا يُحَارِبُونَنَا بِالسَّلَاحِ، فَإِعْدَادُ الْقُوَّةِ يَكُونُ بِالسَّلَاحِ. وَإِذَا كَانُوا يُحَارِبُونَنَا بِالْأَفْكَارِ، فَإِعْدَادُ الْقُوَّةِ يَكُونُ بِالْأَفْكَارِ، وَأَنْ نَدْرُسَ أَفْكَارَهُمْ هَذِهِ؛ لِنَرُدَّ عَلَيْهِمَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَعْرِفَ الْبَاطِلَ حَتَّى نَقْرَأَهُ وَنَتَعَلَّمَهُ؛

ولهذا قال النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ» ^(١) أي: فادرس أحوالهم.

لَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَرُدَّ عَلَى صَاحِبِ الْبَاطِلِ، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ بَاطِلَهُ، هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ؟ أبدأ، بَلْ اَعْرِفْ بَاطِلَهُ لِتَرُدَّ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْعُلَمَاءِ، كَيْفَ فَتَدَّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْوَالَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمَنَاطِقَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ؟ لِأَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ دَرَسَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَعَرَفَهَا.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ نَكْرَةٌ، لَا تَتَعَيَّنُ بِقُوَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ فَأَيُّ سِلَاحٍ يَغْزُونَنَا بِهِ فَإِنَّا نَعِدُّ لَهُمْ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ. وَعَلَى هَذَا، فَإِذَا غَزَوْنَا بِالْأَخْلَاقِ، أَوْ بِالْأَفْكَارِ، أَوْ بِالسَّلَاحِ، يَجِبُ أَنْ نَسْتَعِدَّ لَهُمْ بِكُلِّ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ؛ حَتَّى يُمَكِّنَ أَنْ تُقَابِلَهُمْ.

وَهَلْ يُشْتَرِطُ الْمِثْلُ مِنَ السَّلَاحِ؟ يُشْتَرِطُ أَكْثَرُ، فَإِنْ لَمْ نَسْتَطِعْ فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَكُونُ بِقَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ مِنْ قُوَّةٍ، وَأَعْدَاؤُنَا الْآنَ سَبَقُونَا بِمَرَاحِلَ، لَكِنْ أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ؟ أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَشْتَرِيَ مِنْهُمْ مَا اسْتَطَعْنَا؟ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يُجَادِعُونَ! فَيَسْبِقُونَ عَلَيْنَا التَّالِفَ فِي الْحَزَائِنِ! وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ يُسَبِّبُونَ الْمَشَاكِلَ بَيْنَنَا؛ لِأَنَّ هَذَا السَّلَاحَ مَا يَنْفَدُ إِلَّا إِذَا وَقَعَتْ مَشَاكِلُ بَيْنَنَا، فَيُسَوِّقُونَهُ عَلَيْنَا؛ وَهُمْ خُبَاءٌ، لَا يَرِيدُونَ السَّلَامَ أَبَدًا، وَلَوْ نَطَحُوا لَطَحْنُوا الْعَالَمَ، وَلَكِنَّهُمْ أَذْكِيَاءُ، قَالُوا: لَمَّا تَقَدَّمْنَا هَذَا التَّقَدُّمَ الْبَاهِرَ فِي الصَّنَاعَةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم

(١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَالسَّلَاحَ وَغَيْرَهُمَا، نَأْتِي بِالسَّلَاحِ الَّذِي كُنَّا أَعْدَدْنَاهُ أَوَّلًا، وَتَخَلَّصُ مِنْهُ، فَنُعْطِيهِ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ، وَنَعْمَلُ لَهُمْ مَسَاكِلَ، وَنَجْعَلُهُمْ يَتَقَاتِلُونَ.

أَمَّا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ فَلَوْ طَبَقْنَا الْإِسْلَامَ بِمَحَاسِنِهِ وَتَشْرِيعَاتِهِ السَّامِيَةِ، وَبَدَّلْنَا الْوَاجِبَ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ - فَإِنَّ مُعْظَمَ شُعُوبِهِمْ سَيَأْتُونَنَا وَإِلَيْنَا وَيَدْعُونَ ضَلَالَاتِهِمْ؛ لِأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ.



وَمِنَ الْآيَاتِ الْجَامِعَةِ فِي السِّيَاسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨] وَالْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؛ فَالْأَمَانَاتُ يَدْخُلُ فِيهَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ، مِنْ أَجْلِهَا الْوَلَايَاتُ الْكَبِيرَةُ، وَالصَّغِيرَةُ، وَالْمُتَوَسِّطَةُ، الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُؤَدَّى إِلَى أَهْلِهَا بِأَنْ يُجْعَلَ فِيهَا الْأَكْفَاءُ لَهَا، وَكُلُّ وَلايَةٍ لَهَا أَكْفَاءٌ مَخْصُوصُونَ، فَهَذَا الطَّرِيقُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي الْوَلَايَاتِ مِنْ أَصْلَحِ الطَّرِيقِ لِصَلَاحِ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، فَإِنَّ صَلَاحَ الْأُمُورِ بِصَلَاحِ الْمُتَوَلِّينَ وَالرُّؤُسَاءِ فِيهَا، وَالْمُدَبِّرِينَ لَهَا، وَالْعَامِلِينَ لَهَا،...

التعليق

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ السِّيَاسَةِ الْمَوْجَّهَةِ لِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ، أَنْ يُخْتَصَّصُوا بِهِ، فَلَوْ أَنَّنَا أَرَدْنَا أَنْ نُؤَلِّيَ شَخْصًا مِنْ مُتَخَرِّجِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ لِيَكُونَ قَائِمًا بِتَدْرِيسِ كُلِّيَّةِ الْهَنْدَسَةِ لَمْ يَصْلُحْ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَسَبَ الْاِخْتِصَاصِ، فَيَجِبُ أَنْ تُؤَدَّى الْأَمَانَاتُ إِلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومُوا بِهَا، وَيُؤَدُّوا الْأَمَانَةَ فِيهَا، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلَا نَجْعَلُ عَالِمَ الْفِقْهِ يُدَرِّسُ النَّحْوَ، أَوْ الْعَالِمَ بِالنَّحْوِ يُدَرِّسُ الْفِقْهَ! لَا يُمَكِّنُ، هَذِهِ تُعْتَبَرُ خِيَانَةً.

هَذِهِ هِيَ السِّيَاسَةُ، هَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ السِّيَاسَاتِ، لَوْ أَنَّ وُلاَةَ الْأُمُورِ لَاحَظُوهَا، وَجَعَلُوا كُلَّ إِنْسَانٍ لَهُ اخْتِصَاصٌ بِعَمَلٍ أَنْ يَشْغَلَ عَمَلَهُ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ خَرِيجُ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ الَّذِي أَنْفَقَتْ عَلَيْهِ الْحُكُومَةُ مَا أَنْفَقَتْ مِنَ الْأَمْوَالِ، ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلًا كِتَابِيًّا! هَذَا ضَيَاعٌ لِلْوَقْتِ، وَضَيَاعٌ لِلْمَالِ، وَضَيَاعٌ لِلرِّجَالِ وَلِلْأَعْمَالِ.

الْعَمَلُ الْكِتَابِيُّ كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ، وَإِذَا طَبَّقْنَا هَذِهِ الْحَالَةَ عَلَى الْآيَةِ وَجَدْنَا أَنَّهَا تَضِيعُ لِلْأَمَانَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ لَكِنْ مَا الَّذِي يَجْعَلُ الْمُتَخَرِّجَ مِنْ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ كَاتِبَ آلَةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟ وَيَفْرَحُ بِذَلِكَ أَيْضًا! لِأَنَّهُ رَبَّمَا اجْتَنَزَاجُ اخْتِبَارِهِ بِالْعِشِّ، وَإِذَا صَارَ بِالْعِشِّ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ حَصِيلَةٌ. وَإِنْ وَقَفَ يُدَرِّسُ الطَّلَبَةَ ارْتَبَكَ أَمَامَهُمْ، وَاجْتَنَزَاجُ وَهُمْ يُلْقُونَ عَلَيْهِ سُؤَالَ صَغِيرًا؛ وَلِهَذَا يَنْفِرُ بَعْضُ الْمُتَخَرِّجِينَ مِنْ عَمَلِ التَّدْرِيسِ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُخَفِّقُونَ؛ فَلِذَلِكَ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُعَلِّمُوا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



وَيَحِبُّ تَوَلِيَّةَ الْأَمَثَلِ فَالْأَمَثَلِ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسَتَجَرْتَ أَلْفَوْهُ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فَصَلَاحُ الْمُتَوَلِّينَ لِلْوِلَايَاتِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى عَنْوَانُ صَلَاحِ الْأُمَّةِ، وَضِدُّهُ بُضْدُهُ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، الَّذِي مَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا بِهِ،...

التعليق

قَوْلُهُ: «يَحِبُّ تَوَلِيَّةَ الْأَمَثَلِ فَالْأَمَثَلِ» ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَشْرَةَ شُرُوطٍ لِلْقَاضِي، لَوْ فَتَشْتَ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ عَمَّنْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مَا وَجَدْتَ أَحَدًا، لَكِنْ قَالَ

حَبْرَ زَمَانِهِ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ يُوَلَّى الْأُمُثْلَ فَلَا أُمُثْلَ، حَتَّى إِنَّهُ يُوَلَّى
أَعْدَلَ الْفَاسِقِينَ إِذَا لَمْ تَجِدْ عَدْلًا، تُوَلِّيه وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا، وَلَا نَدْعُ الْأُمُورَ تَذْهَبُ
بِدُونِ وَلَايَةٍ^(١). فَيُنْظَرُ الْأُمُثْلُ فَلَا أُمُثْلَ، وَمَنْ كَانَ أُمُثْلَ فِي الْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَوُلِّيَ
مَنْ هُوَ دُونُهُ، كَانَ ذَلِكَ خِيَانَةً.



... فَالْعَدْلُ قَوَامُ الْأُمُورِ وَرُوحُهَا، وَبِفَقْدِهِ تَفْسُدُ الْأُمُورُ، وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ
مِنْ لَزِمِهِ مَعْرِفَةُ الْعَدْلِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، فَإِذَا كَانَ الْمُتَوَلَّى لِلْوِلَايَاتِ هُمُ
الْكُمَلِّ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْأَكْفَاءُ لِلْأَعْمَالِ، وَجَرَتْ تَدَابِيرُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ عَلَى الْعَدْلِ
وَالسَّادِدِ، مُتَجَنِّبِينَ لِلظُّلْمِ وَالْفَسَادِ، تَرَقَّتِ الْأُمَّةُ وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهَا، وَتَمَامَ ذَلِكَ فِي
الآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ فِيهَا بِطَاعَةِ وُلاَةِ الْأُمُورِ، فَهَلْ يُوجَدُ أَكْمَلُ وَأَعْلَى مِنْ
هَذِهِ السِّيَاسَةِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي عَوَاقِبُهَا أَحْمَدُ الْعَوَاقِبِ؟

السَّالِبُ

طَاعَةُ وُلاَةِ الْأُمُورِ تَبَعٌ لَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وَلَمْ يَقُلْ:
«وَأَطِيعُوا أُولِيَ الْأَمْرِ» بَلْ قَالَ: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ وُلاَةِ الْأُمُورِ
تَابِعَةٌ لَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وعليه، فَإِذَا أَمَرَ وُلاَةُ الْأُمُورِ بِأَمْرٍ فِيهِ مَعْصِيَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُمْ لَا يُطَاعُونَ،
وَإِذَا أَمَرُوا بِأَمْرٍ فِيهِ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُمْ يُطَاعُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(١) الفتاوى الكبرى (٥/٥٥٦).

أَوَّلًا: أَنَّ هَذَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ مِنْ طَاعَةِ وُلاَةِ الْأُمُورِ.

وَإِذَا أَمَرُوا بِأَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ طَاعَةٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ، وَجَبَتْ طَاعَتُهُمْ، وَهَذِهِ هِيَ النُّقْطَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُرَكِّزَ عَلَيْهَا، وَإِلَّا لَوْ قُلْنَا: إِنَّهُمْ لَا يُطَاعُونَ إِلَّا فِيمَا هُوَ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ لَكَانُوا كَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ لَوْ أَمَرَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ كَانَ أَمْرُهُ مُطَاعًا، لَا لِأَمْرِهِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُطِيعَ وُلاَةَ الْأُمُورِ فِيمَا نَظْمُوهُ لِمَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فِي ذَاتِهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَعْصِيَةً. وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ الْجُهَّالِ: نَحْنُ مَا نُطِيعُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ هَذَا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَهَذَا مُصَادِمَةٌ لِلنَّصِّ، مُصَادِمَةٌ لِدَلَالَتِهِ، وَمُصَادِمَةٌ لَهُ أَيْضًا، وَاللَّهُ أَمَرَ بِطَاعَةِ وُلاَةِ الْأُمُورِ إِلَّا فِي الْمَعْصِيَةِ.

وظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَوَّلَى الْأَمْرِ﴾ أَنَّهُ مَا دَامَتْ إِمْرَتُهُمْ بَاقِيَةً، فَلَهُمُ الطَّاعَةُ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا عُدُولًا، بَلْ حَتَّى لَوْ رَأَيْنَا مِنْ بَعْضِهِمْ مَا هُوَ مَعْصِيَةٌ، فَإِنَّهُ يَجِبُ طَاعَتُهُ، مَا نَقُولُ: وَاللَّهِ مَا نُطِيعُهُ إِلَّا إِذَا أَطَاعَ اللَّهُ! بَلْ أَطِيعُهُ، وَإِنْ صَرَبَ ظَهْرُكَ، وَأَخَذَ مَالُكَ، مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَلِهَذَا نَحْدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَعْتَبِرُهُمْ سُفَهَاءَ، خَرَجُوا عَلَى وُلاَةِ الْأَمْرِ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ رَأَوْهُمْ فَسَقَةً! فَمَاذَا حَصَلَ؟

حَصَلَ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْوُلاَةِ، أَقْرَأُ التَّارِيخِ - مِنْ حِينَ حَصَلَ الْاِخْتِلَافُ عَلَى الْأَئِمَّةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا - تَحْدِ الشُّرُورِ وَالْفَسَادِ كُلَّهُ فِي الْخُرُوجِ عَلَى وُلاَةِ الْأُمُورِ. مَاذَا حَصَلَ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ وَمِنْ قَتْلِ عَلِيٍّ

ابْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ وَمِنْ قَتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ بَقِيَّةِ الْخُلَفَاءِ؟ حَصَلَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ حَتَّى أُولَئِكَ السُّفَهَاءُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى وُلَايَتِهِمْ، وَاسْتَحَلُّوا كَرَائِسِهِمْ، وَسَمَّوْهَا ثَوْرَةً وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مَاذَا حَصَلَ مِنْهُمْ؟ هَلْ أَصْلَحُوا الْوَضْعَ؟ أَبَدًا، بَلْ إِنَّ الْمُنَاطَّلَ يَجِدُ أَنَّ الْوَضْعَ الَّذِي كَانَ فِي السَّابِقِ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْخُرُوجِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

فَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي الصَّبْرِ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَطَاعَتِهِمْ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ - لَرَأَوْا خَيْرًا كَثِيرًا، حَتَّى لَوْ رَأَيْتَهُمْ يَعْصُونَ اللَّهَ فِي أُمُورٍ فَأَطَعْتَهُمْ، فَطَاعَتُكَ إِيَّاهُمْ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنَّمُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ قَالُوا: لَا تَتَكَلَّمْ، فَلَا تَتَكَلَّمْ، وَانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ إِنْ تَمَكَّنْتَ، وَإِلَّا فَأَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ.

يُذَكَّرُ أَنَّ بَعْضَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ سَمِعَ كَلَامًا مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، قَالَ: لِمَ لَا يَكُونُ هَذَا الْخَلِيفَةُ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، مِثْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، مِثْلَ كَذَا، مِثْلَ كَذَا؟ فَجَمَعَ النَّاسُ وَالْوُجَهَاءُ، وَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: كُونُوا مِثْلَ النَّاسِ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَكُنْ لَكُمْ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ! فَخَصَمَهُمْ.

وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ، كَمَا تَكُونُونَ يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ. وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ وَاحِدٌ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِقَوْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وَصْفِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِثْلَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ: يَا عَلِيُّ! لِمَ رَاحَ النَّاسُ عَنْكَ، وَلَمْ يَقْبَلُوا عَلَيْكَ وَيَلْتَفُّوا حَوْلَكَ، كَمَا التَّفُّوا حَوْلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟ قَالَ: لِأَنَّ

رِجَالِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَنَا وَأَمَثَلِي، وَرِجَالِي أَنْتَ وَأَمَثَالُكَ. فَخَصَّمَهُ.

فَالْوَلَاةُ الْآنَ، عَلَيْكَ أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ لَهُمُ الْعَافِيَةَ فِيمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ، وَلَكِنْ لَا تُثِيرِ النَّاسَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفِيدُ أَبَدًا، بَلْ مَا يَزِيدُ الْأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ وَغَيْرُهُ: يُوَلَّى عَلَى النَّاسِ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ، وَلَوْ رَجَعْنَا إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مِنْ حُكَّامِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَوَجَدْنَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَغْيِ وَالْحَقْدِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ! بَلْ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَحْوَالَهُمْ لَوَجَدْتَ غَايَةَ مَا عِنْدَهُمْ أَنْ يَنَالُوا الْمَنْصِبَ فَقَطْ! وَلَا تَحْجِدُ مِنْهُمْ التَّقْوَى الْحَقِيقِيَّةَ، وَالْإِنَابَةَ، وَالرُّجُوعَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، بَلْ هُمْ مُتْسَاهِلُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْمَنَاصِبِ فَقَطْ.

وَهَذَا أَمْرٌ مَشْهُورٌ عَمَّنِ اسْتَهْرَ بِمَحَبَّةِ الْخُرُوجِ عَلَى الْأَيِّمَةِ، وَأَنَّ الْغَالِبَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَى الثَّرَاءِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى أَنْ نَضَعَ النُّقْطَ عَلَى الْحُرُوفِ، وَنَقُولَ: مِثْلُ كَذَا وَكَذَا؛ فَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ. كَانُوا فِي الْأَوَّلِ إِذَا قَامُوا عَلَى مَنْ قَامُوا عَلَيْهِ يُرِيدُونَ أَنْ يُمْكِّنُوا حُكْمَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَصَارُوا شِبْهَ الْأَوَّلِ.

فَالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ أَنْ نَمْشِيَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ اسْمَعْ وَأَطِعْ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرُكَ، وَمَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُ فَلْيَصْبِرْ إِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ، لَوْ قَالَ لِلنَّاسِ: تَعَالَوْا؛ اضْرِبُوا عَلَى الْعُودِ، غَنُّوا، وَارْقُصُوا، قُلْنَا لَهُ: لَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ. أَوْ قَالَ: اظْلِمُوا النَّاسَ، وَكُلُّوا أَمْوَالَهُمْ، وَاضْرِبُوا أَبْشَارَهُمْ؛ مَا أَطْعَمْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا مَعْصِيَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ. أَنَا لَا أَقُولُ: اسْكُتْ! أَنَا أَقُولُ: انْصَحْهُمْ، وَنَاصِحُهُمْ، لَكِنْ لَا تَخْرُجْ عَلَيْهِمْ.



وَمِنَ الْآيَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ: جَمِيعُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُدُودِ عَلَى الْجَرَائِمِ، وَالْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى حُقُوقِهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، وَهِيَ فِي غَايَةِ الْعَدَالَةِ وَالْحُسْنِ، وَرَدَّعِ الْمُجْرِمِينَ، وَالنَّكَالِ وَالتَّخْوِيفِ لِأَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَفِيهَا صِيَانَةٌ لِدِمَاءِ الْخَلْقِ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ.

وَالْآيَاتُ الَّتِي فِيهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالتَّكَلُّمُ بِالْحَقِّ مَعَ مَنْ كَانَ، وَفِي أَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَكَذَلِكَ مَا فِيهِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ فِيهِ إِرْشَادٌ لِلْحُرِّيَّةِ النَّافِعَةِ، الَّتِي مَعْنَاهَا التَّكَلُّمُ بِالْحَقِّ، وَفِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَحْذُورَ فِيهَا، كَمَا أَنَّ الْحُدُودَ وَالْعُقُوبَاتِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ، وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ، فِيهَا رَدُّ الْحُرِّيَّةِ الْبَاطِلَةِ، فَإِنَّ مِيزَانَ الْحُرِّيَّةِ الصَّحِيحَةِ النَّافِعَةِ: هُوَ مَا أَرَشَدَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ.

وَأَمَّا إِطْلَاقُ عِنَانِ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَالْأَقْوَالِ الضَّارَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ، وَالْمُحَلَّلَةِ لِلْأَخْلَاقِ - فَإِنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَانْحِلَالِ الْأُمُورِ، وَالْفَوْضُويَّةِ الْمُخْضَةِ؛ فَنتائجُ الْحُرِّيَّةِ الصَّحِيحَةِ أَحْسَنُ النَّتَائِجِ، وَنتائجُ الْحُرِّيَّةِ الْفَاسِدَةِ أَقْبَحُ النَّتَائِجِ؛ فَالشَّارِعُ فَتَحَ الْبَابَ لِلأُولَى، وَأَغْلَقَهُ عَنِ الثَّانِيَةِ؛ تَحْصِيلًا لِلْمَصَالِحِ، وَدَفْعًا لِلْمَضَارِّ وَالْمَفَاسِدِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعاليق

هَذَا صَحِيحٌ؛ فَإِنَّ الْحُرِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ لِشَخْصٍ مَا تَكُونُ عَلَى حِسَابِ حُرِّيَّةٍ غَيْرِهِ. لَوْ أَطْلَقْنَا لِشَخْصٍ الْحُرِّيَّةَ لَقَالَ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَمَتَّعَ بِأَمْوَالِ النَّاسِ، وَمَسَاكِينِهِمْ، وَمَرَائِكِهِمْ، وَحَتَّى زَوْجَاتِهِمْ أَيْضًا! سَيَكُونُ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِينَ. وَلَكِنْ نَقُولُ: لَكَ حُرِّيَّةٌ فِيمَا تَمْلِكُ فَقَطْ، وَلِلْآخَرِينَ حُرِّيَّةٌ فِيمَا يَمْلِكُونَ؛ فَالْحُرِّيَّةُ الْكَامِلَةُ هِيَ الْمَبْنِيَّةُ

عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلَا أَحَدَ أَحْكَمُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا أَعْدَلَ مِنْهُ. وَقَدْ عَدَلَ عَزَّجَلَّ فِي الْحُرِّيَّةِ الَّتِي مَنَحَهَا لِعِبَادِهِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حُرِّيَّةً لَا يَعْتَدِي بِهَا عَلَى حُرِّيَّةِ الْآخَرِينَ. وَهَذَا أَيْضًا مِنَ السِّيَاسَةِ، فَالْحُرِّيَّةُ الظَّالِمَةُ، الْجَائِزَةُ، هِيَ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْخَيْرِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرِّ.

وَالْحُرِّيَّةُ الْحَقَّةُ هِيَ الَّتِي تُطْلَقُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ فِيمَا هُوَ مِنْ حَقِّهِ، هَذِهِ حُرِّيَّةٌ صَحِيحَةٌ، نَافِعَةٌ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، يَعْنِي: حَتَّى وَإِنْ مَلَكَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ، وَأَنْ نَفْعَلَ، وَكَانَ الْمَقَامُ يُقْتَضِي أَنْ لَا نَقُولَ، وَأَنْ لَا نَفْعَلَ، فَإِنَّا لَا نَقُولُ، وَلَا نَفْعَلُ، وَلَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ.

وَالسِّيَاسَةُ أَصْلًا مَأْخُودَةٌ مِنْ سَاسِ الشَّيْءِ يَسُوءُهُ، وَالسَّائِسُ فِي الْأَصْلِ: هُوَ الْمُتَوَلَّى لِلْحَيَوَانِ، فَسَائِسُ الْحَيَوَانِ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِمَصَالِحِهِ، فَالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الشَّرْعِ، وَالسِّيَاسَةُ الْوَضْعِيَّةُ هِيَ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ. يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ السِّيَاسَةَ غَيْرُ الدِّينِ، وَإِنَّ الدِّينَ شَيْءٌ وَالسِّيَاسَةُ شَيْءٌ آخَرُ! فَنَقُولُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ! فَالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ السِّيَاسَةُ الْحَقَّةُ، وَقَدْ جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ، وَمَنْ أَرَادَ الْمَزِيدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ (السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي إِصْلَاحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ) لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَإِلَى كِتَابِ (الطُّرُقُ الْحُكْمِيَّةُ) لِتَلْمِيزِهِ ابْنَ الْقَيْمِ، وَقَدْ ذَكَرَ الرَّجُلَانِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا تَقُومُ بِهِ مَصَالِحُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ.



القاعدة الأربعون:

في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحماية عن الأمور الضارة، ودفع ما عرض للبدن من المؤذيات. ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد، وقد نبه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] فأمر بالأكل والشرب اللذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك؛ ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلئم الإنسان وينفعه في كل وقت وحال، ونهى عن الإسراف في ذلك: إمّا زيادة في كثرة المأكولات والمشروبات، وإمّا بالتخليط. وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان، فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب إذا صار بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر مَنع منه، فكيف بغيره؟!

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره؛ حمية له عن المضرات كلها، وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يخلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ، وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضره أكثر من هذا؟ ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة، فدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمُدافعة الذي لم يقع والتحرز عنه، وبمعالجة الحادث بالطريقة الطبية النافعة.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا؛ كَالْجِهَادِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَبَقِيَّةِ الْأَعْمَالِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْهَا نَيْلَ رِضَى اللَّهِ، وَقُرْبِهِ، وَثَوَابِهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى عِبِيدِهِ، فَإِنَّ فِيهَا صِحَّةً لِلْأَبْدَانِ، وَتَمَرِينًا لَهَا، وَرِيَاضَةً، وَرَاحَةً لِلنَّفْسِ، وَفَرَحًا لِلْقَلْبِ، وَأَسْرَارًا خَاصَّةً تَحْفَظُ الصِّحَّةَ، وَتُنَمِّيُهَا، وَتُزِيلُ عَنْهَا الْمُؤْذِيَّاتِ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَإِنَّ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ تَرْجِعُ إِلَى صَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَالْأَرْوَاحِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالْأَبْدَانِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هَذِهِ أَيْضًا قَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ، خُلِصَتْهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ أَرْشَدَ إِلَى أَصُولِ الطِّبِّ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ التَّقْيِيدُ بِمَا يَحْفَظُ الصِّحَّةَ وَالْبَدْنَ، وَالْحِمْيَةُ عَمَّا يَضُرُّهُ، وَإِزَالَةُ مَا يُؤْذِيهِ، ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّهَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ هَذَا اسْتِعْمَالُ مَا يَحْفَظُ الصِّحَّةَ ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ هَذَا الْحِمْيَةُ عَمَّا يَضُرُّ، أَمَّا دَفْعُ مَا كَانَ ضَارًّا فَذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُ فِدْيَةَ الْأَذَى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] يَعْنِي: فَلْيُحْلِقْهُ، فَبِهِ هَذَا إِزَالَةُ الْمُؤْذِي. وَإِذَا تَمَّ لِلْبَدَنِ حِفْظُ الصِّحَّةِ، وَحِمَايَتُهُ مِمَّا يَضُرُّهُ أَوْ يُؤْذِيهِ، وَرَفَعُ مَا أَصْرَبَ بِهِ وَآذَاهُ - تَمَّتْ صِحَّتُهُ.



القَاعِدَةُ الْحَادِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ:

يُرْشِدُ اللَّهُ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ إِلَى قَصْرِ نَظَرِهِمْ إِلَى الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ
الَّتِي هُمْ فِيهَا وَمِنْ جِهَةِ التَّرْغِيبِ فِيهِ وَالتَّرْهِيبِ مِنْ ضِدِّهِ إِلَى مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا
مِنَ الْمَصَالِحِ وَمِنْ جِهَةِ النَّعَمِ: إِلَى النَّظَرِ إِلَى ضِدِّهَا

وهذه القاعدة الجليلة دلَّ عليها القرآنُ في آياتٍ عديدة، وهي من أعظم
مَا يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُرْقِي الْعَامِلِينَ إِلَى خَيْرِ دِينِي وَدُنْيَوِي، فَإِنَّ
الْعَامِلَ إِذَا كَانَ مُشْتَغلاً بِعَمَلِهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفُهُ وَقْتِهِ، فَإِنْ قَصَرَ فِكْرُهُ وَظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ
عَلَيْهِ نَجَحَ وَتَمَّ بِحَسَبِ حَالِهِ، وَإِنْ نَظَرَ وَتَشَوَّقَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى لَمْ يَحِنْ
وَقْتُهَا بَعْدُ فَتَرَتْ عَزِيمَتَهُ، وَانْحَلَّتْ هِمَّتُهُ، وَصَارَ نَظَرُهُ إِلَى الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى يَنْقُصُ
مِنْ إِتْقَانِ عَمَلِهِ الْحَاضِرِ وَجَمْعِ الْهِمَّةِ عَلَيْهِ.

ثُمَّ إِذَا جَاءَتْ وَظِيفَةُ الْعَمَلِ الْآخِرِ جَاءَتْ وَقَدْ ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ، وَقَلَّ نَشَاطُهُ، وَرَبَّيَا
كَانَ الثَّانِي مُتَوَقِّفاً عَلَى الْأَوَّلِ فِي حُصُولِهِ أَوْ تَكْمِيلِهِ، فَيَقُوتُ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي، بِخِلَافِ
مَنْ جَمَعَ قَلْبَهُ وَقَالَ بَهُ، وَصَارَ أَكْبَرُ هِمَّةِ الْقِيَامِ بِعَمَلِهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفُهُ وَقْتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَ
الْعَمَلُ الثَّانِي فَإِذَا هُوَ قَدْ اسْتَعَدَّ لَهُ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَتَلَقَّاهُ بِشَوْقٍ، وَصَارَ قِيَامُهُ بِالْأَوَّلِ
مَعُونَةً عَلَى قِيَامِهِ بِالثَّانِي، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى مُصَرِّحاً بِهَذَا الْمَعْنَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ
لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] فَنَظَرُ كَيْفَ حَالِهِمُ الْأَوَّلَى وَأُمْنِيَّتُهُمْ وَهُمْ

مَأْمُورُونَ بِكَفِّ الْأَيْدِي، فَلَمَّا جَاءَ الْعَمَلُ الثَّانِي ضَعُفُوا كُلَّ الضَّعْفِ عَنْهُ.

وَنَظِيرُ هَذَا مَا عَاتَبَ اللَّهُ بِهِ أَهْلَ أُحُدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] وَقَدْ كَشَفَ هَذَا الْمَعْنَى كُلَّ الْكَشْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنًا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ [النساء: ٦٦] لِأَنَّ فِيهِ تَكْمِيلًا لِلْعَمَلِ الْأَوَّلِ، وَتَثْبِيثًا مِنَ اللَّهِ، وَتَمَرُّنًا عَلَى الْعَمَلِ الثَّانِي.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿[التوبة: ٧٥-٧٧] فَاللَّهُ أَرْشَدَ الْعِبَادَ أَنْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ وَفْتِهِمْ، وَأَنْ يَقُومُوا بِالْعَمَلِ الْحَاضِرِ، وَوُظِفَتْهُ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ الْعَمَلُ الْآخِرُ صَارَ وَظِيفَةُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَاجْتَمَعَتْ تِلْكَ الْهِمَّةُ وَالْعَزِيمَةُ عَلَيْهِ، وَصَارَ الْقِيَامُ بِالْعَمَلِ الْأَوَّلِ مُعِينًا عَلَى الثَّانِي، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

التعليق

الشُّقُّ الْأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَغْتَنِيَ بِالْعَمَلِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ هُوَ وَظِيفَةُ وَقْتِكَ. بَعْضُ النَّاسِ يُقِرُّطُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَتَسَاهَلَ وَيَتَهَاوَنَ، وَيَقُولَ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ بَسِيطَةٌ، هَذَا عَمَلٌ قَلِيلٌ، فَيَضِيعُ عَلَيْهِ الْوَقْتُ، فَإِذَا حَصَرَ الْوَقْتُ عَجَزَ، وَإِذَا عَجَزَ عَنْهُ انْتَقَلَ هَذَا الْعَمَلُ

مَنْ وَظِفَتْهُ الزَّمِينَةُ إِلَى وَظِيفَةِ الْعَمَلِ الثَّانِي، فَصَاقَ عَلَيْهِ، وَعَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِهِمَا. وَعَلَى هَذَا قَوْلُ صَاحِبِ الْحِكْمَةِ: «لَا تُؤَخِّرْ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى الْغَدِ» وَمَا أَكْثَرَ مَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ سَيَخْلُصُ مِنْهُ، ثُمَّ يَتِمَادَى بِهِ الْأَمْرُ فَيَعْجِزُ! وَإِذَا قَابَلَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْعَمَلَ، وَقَامَ بِهِ بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَبَدَأَ بِهِ فَوْرًا، وَلَمْ يَتَوَانَ فِيهِ -أَدْرَكَهُ عَلَى سُهُولَةٍ، وَاتَّقَنَهُ وَأَجَادَهُ.

وهذه تَقَعُ فِي الْأَعْمَالِ الْيَوْمِيَّةِ، تَقُولُ: هَذَا يَسِيرٌ، أَكْتُبُ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، فَيَمُضِي الْوَقْتُ وَلَمْ تَكْتُبْهُ! لَكِنْ إِذَا عَمِلْتَ اسْتَرَحْتَ، وَجَرَّبَ لِحْدٍ، وَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ، كَمَا قِيلَ: «انْتَهَزِ الْفُرْصَةَ؛ إِنْ الْفُرْصَةَ تَكُونُ إِنْ لَمْ تَنْتَهِزْهَا غُصَّةٌ».

الشُّقُّ الثَّانِي الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَهُونُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، يَقُولُ: هَذَا الْعَمَلُ خَفِيفٌ وَأَنَا أُرِيدُ عَمَلًا أَشَدَّ! وَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: دَعُونَا نَقْرَأُ كِتَابًا وَمَهَارًا، وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، هَذَا مَا يَنْبَغِي، بَلْ هُوَ عَلَى نَفْسِكَ؛ لِأَنَّكَ بِذَلِكَ تُرْهِقُ نَفْسَكَ، وَلَا تُتَقِنُ الْعَمَلَ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ الْعَمَلُ يَسِيرًا، تَحَمَّلْتَهُ النَّفْسُ وَاتَّقَنْتَهُ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى الْعَمَلِ الثَّانِي وَهِيَ قَدْ أَجَادَتْ الْعَمَلَ الْأَوَّلَ، فَتَلَقَّنَتْهُ بِالنَّشْرَاحِ وَنَشَاطٍ.

فهذان وجهان في هذه المسألة. مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَهَاوَنُ بِالْعَمَلِ، وَيَقُولُ: هَذَا عَمَلٌ قَلِيلٌ، أَوْ خَرُهُ! فَيَضِيعُ عَلَيْهِ وَقْتُهُ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَقِلُّ هَذَا الْعَمَلَ وَيُرِيدُ عَمَلًا أَكْثَرَ، فَإِذَا ابْتَدَى بِهِ عَجَزَ عَنْهُ! وَلِهَذَا قَالَ فِي الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَمَرَ تَرِ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] كَذَلِكَ الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنَبَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا

أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ [النساء: ٦٦].

وانظر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، حينما قال: «والله لأقومنَّ الليلَ ما عشتُ، ولأصومنَّ النهارَ ما عشتُ» فدعاه الرسول ﷺ وسأله: «أهو الذي قال كذا؟» قال: نعم! فبدأ النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام يحاططه، ويُنازله، حتَّى وصل إلى أن يصومَ يوماً ويدعُ يوماً^(١). فماذا كانت حال عبد الله في آخر عمره؟

شقَّ عليه ذلك، فكان يصومُ خمسةَ عشرَ يوماً سرِّداً، ويفطرُ خمسةَ عشرَ يوماً، وقال: لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ!

وكذلك قراءةُ كُتُبِ الْعِلْمِ؛ يُقال: إنَّ الشَّيخَ عَبْدَ اللَّهِ أَبَا بَطِينٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَكَانَ يُلقَّبُ (مُفتيَ الدِّيارِ النُّجْدِيَّةِ) وَكَانَ عالِماً جَيِّداً فِي الفِقْهِ، يَقُولُ: إِنِّي مَا قرَأْتُ إِلَّا (الرَّوْضَ المُرْبِعُ فِي شَرْحِ زادِ المُسْتَفِيعِ) وَهُوَ شَرْحٌ مُختَصَرٌ، لَكِنَّهُ كَانَ يُكرِّرُهُ، وَيَتَأَمَّلُ فِيهِ، وَيَأْخُذُ بِمَنْطَوْقِهِ، وَمَفْهُومِهِ، وَإِشارَتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ صَارَ عالِماً بَحْراً فِي الفِقْهِ!

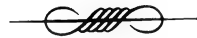
وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ يَقْفِزُ مِنْ غُصْنٍ إِلَى غُصْنٍ، مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِلَى ذَاكَ الْكِتَابِ! يَوْمًا يُطالِعُ فِي هَذَا، وَيَوْمًا يُطالِعُ فِي هَذَا! يَذْهَبُ عَلَيْهِ الْوَقْتُ. أحياناً يَأْتِي الْإِنْسَانُ يُريدُ أَنْ يُطالِعَ حُكْمَ مَسْأَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَإِذَا فَتَحَ الْكِتَابَ إِذَا هُوَ كَالْبَحْرِ، وَإِذَا السَّمَكُ أَمَامَهُ، وَقَدْ كَانَ يُريدُ حُوتاً مُعَيَّناً، فَجَعَلَتِ الْأَسْمَاكَ تُتَرَارِقُ أَمَامَهُ، فَصَارَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم (١٩٧٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩)، من حديث ابن عمرو رضي الله عنه.

يَأْخُذُ هَذِهِ، وَيَأْخُذُ هَذِهِ، وَيَضِيعُ عَلَيْهِ الْوَقْتُ، وَلَمْ يُرَاجِعِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي كَانَ يَطْلُبُهَا! فَعَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ أَنَّهُ يُرِيدُ مَسْأَلَةً مُعَيَّنَةً أَنْ يَبْدَأَ أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ بِهَا، وَإِذَا حَصَلَ عِنْدَهُ فَضْلٌ وَقْتُ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى الْمَسَائِلِ الْأُخْرَى. لَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، مَعَ شَغَفِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ، يَقُولُ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ جَيِّدَةٌ، أَقْرَأُهَا، وَهَكَذَا يَذْهَبُ عَلَيْهِ الْوَقْتُ.

ثُمَّ شَيْءٌ آخَرُ أَيْضًا: أَحْيَانًا تَمُرُّ عَلَيْهِ مَسْأَلَةٌ نَادِرَةٌ الْوُجُودِ، وَلَوْ طَلَبَهَا فِي مَحَلِّهَا مَا وَجَدَهَا، ثُمَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ يَقُولُ: حَفِظْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَلَنْ أَنْسَاهَا أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُقَيِّدْهَا! ثُمَّ مَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى يَنْسَاهَا، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَهَا فَلَا يَجِدُهَا، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ أَيْضًا يَنْبَغِي لَطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يُلَاحِظَهَا.

إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ، إِمَّا قَاعِدَةٌ مَا تَكَادُ تَجِدُهَا فِي الْكُتُبِ، أَوْ مَسْأَلَةٌ -فَاحْفَظْهَا وَقَيِّدْهَا عِنْدَكَ، وَلَا تَقُلْ: الْآنَ اسْتَقَرَّتْ فِي ذَهْنِي، وَلَنْ أَنْسَاهَا. فَإِذَا قَيَّدْتَهَا تَرَجَّعْ لَهَا؛ فَاجْعَلْ عِنْدَكَ دَفْتَرًا، وَلَا بِنِ الْقِيَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ سَنَاهُ (بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ) لَمْ يُؤَلِّفْهُ تَأْلِيفًا مُنَسَّقًا، كَانَ كُلَّمَا طَرَأَ عَلَى ذَهْنِهِ مَسْأَلَةٌ كَتَبَهَا، وَابْنُ الْجَوَازِيِّ لَهُ كِتَابُ اسْمُهُ (صَيْدُ الْخَاطِرِ) يُقَيِّدُ فِيهِ مَا يَرِدُ فِي خَاطِرِهِ، فَهَذِهِ أَيْضًا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُلَاحِظَهَا، فَيَجْعَلَ عِنْدَهُ كِتَابًا يُقَيِّدُ فِيهِ كُلَّ الْمَسَائِلِ النَّادِرَةِ الَّتِي إِذَا طَلَبَهَا الْإِنْسَانُ تَعَبَ فِي وَجُودِهَا، يُقَيِّدْهَا وَلَوْ بِالْخُلَاصَةِ.



وَأَمَّا الْأُمُورُ الْمُتَأَخَّرَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُرْشِدُ الْعَامِلِينَ إِلَى مُلَاحَظَتِهَا؛ لِتَقْوَى هِمَمُهُمْ عَلَى الْعَمَلِ الْمُثْمِرِ لِلْمَصَالِحِ وَالْخَيْرَاتِ، وَهَذَا كَالْتَرَّغِيبِ الْمُتَنَوِّعِ مِنَ اللَّهِ عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَالتَّزْهِيهِ مِنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ بِذِكْرِ عُقُوبَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا الدِّيمَةِ، فَاعْرِفِ الْفَرْقَ

بَيْنَ النَّظَرِ إِلَى الْعَمَلِ الْآخِرِ الَّذِي لَمْ يَجِئْ وَقْتُهُ، وَبَيْنَ النَّظَرِ إِلَى ثَوَابِ الْعَمَلِ الْحَاضِرِ الَّذِي كُلَّمَا فَتَرْتُ هِمَّتُ صَاحِبِهِ وَتَأَمَّلَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيْرَاتِ اسْتَجَدَّ نَشَاطُهُ، وَقَوِيَ عَلَيْهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ مَشَقَّتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

التعابن

هَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا اجْعَلْهَا عَلَى بَالِكَ! كُلُّ عَدُوٍّ لَكَ إِذَا كُنْتَ تُعَانِي مِنْهُ فَإِنَّهُ يُعَانِي مِنْكَ مِثْلًا تُعَانِي مِنْهُ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ عَدُوًّا بِالسَّلَاحِ، أَوْ بِالْأَفْكَارِ، أَوْ بِأَيِّ شَيْءٍ. لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ هَذَا يُخَفِّفُ عَنَّا كَثِيرًا؛ إِذَا كَانُوا يَأْمُونُونَ كَمَا نَأْلَمُ، فَهَذَا مِنْ بَابِ التَّأْسِي والتَّسْلِي، وَالثَّانِي إِذَا كُنَّا نَرْجُو مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ، فَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْقِي، نَحْنُ أَرْقَى مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ الْمُؤْمِنُونَ لِأَيِّ سُفْيَانٍ: «لَا سَوَاءَ؛ قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتَلَكُمُ فِي النَّارِ»^(١).



وَأَمَّا إِزْشَادُهُ مِنْ جِهَةِ النِّعَمِ الَّتِي عَلَى الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ بِالنَّظَرِ إِلَى ضِدِّهَا؛ لِيَعْرِفَ قَدْرَهَا، وَيَزْدَادَ شُكْرُهُ لِلَّهِ، فَفِي الْقُرْآنِ مِنْهُ كَثِيرٌ، يُذَكِّرُ عِبَادَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمُ بِالَّذِينَ وَالْإِسْلَامِ، وَمَا تَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/١)، والطبراني في الكبير (٣٠١/١٠) رقم (١٠٧٣١)، والحاكم في المستدرک (٣١٦٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿آل عمران: ١٠٣﴾ أي: إلى الزيادة لشكر نعم الله.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسُ فَتَأْوِسَكُمْ وَانْتَدِمُ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْيَلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إلى آخر الآيات [القصص: ٧١] حَيْثُ يُذَكِّرُهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى ضِدِّ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْحَقِيرِ؛ لِيَعْرِفُوا قَدْرَ مَا هُمْ فِيهِ، وَهَذَا الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»^(١). وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقوله: ﴿أَلَمْ يَحْذِكْ يَتِيمًا فَتَأْوَى ۖ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۖ﴾ إِلَى آخِرِهَا [الضحى: ٦-٨].



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه.... حديث رقم (٦٤٩٠)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، رقم (٢٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القاعدةُ الثانيةُ والأربعونُ:

فِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَيَّزَ فِي كِتَابِهِ بَيْنَ حَقِّهِ الْخَاصِّ وَحَقِّ رَسُولِهِ الْخَاصِّ،
وَالْحَقِّ الْمُشْتَرَكِ

الْحَقُّوقُ ثَلَاثَةٌ: حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ. وَحَقُّ لِرَسُولِهِ ﷺ خَاصٌّ، وَهُوَ: التَّغْزِيرُ، وَالتَّوْقِيرُ، وَالْقِيَامُ
بِحَقِّهِ اللَّائِقِ، وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ. وَحَقُّ مُشْتَرَكٌ، وَهُوَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَطَاعَةُ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْحَقُّوقَ الثَّلَاثَةَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ
الْقُرْآنِ.

فَأَمَّا حَقُّهُ، فَكُلُّ آيَةٍ فِيهَا الْأَمْرُ بِعِبَادَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَالتَّرَغِيبِ فِي
ذَلِكَ، وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُخَصَّى، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
[الفتح: ٩] فَهَذَا مُشْتَرَكٌ ﴿وَتُعْزِرُوهُ وَتُقَرِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّسُولِ
﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] فَهَذَا حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ [النساء: ٥٩، المائدة: ٩٢، النور: ٥٤،
محمد: ٣٣، التغابن: ١٢]. وَكَذَلِكَ: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:
﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَيُوتِيَنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] فَهَذَا مُشْتَرَكٌ ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] هَذَا مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ
تَعَالَى.

ولكن يُنبغي أن يَعْرِفَ الْعَبْدُ أَنَّ الْحَقَّ الْمُسْتَرَكَّ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ مَا لِلَّهِ مِنْهُ يَثْبُتُ
نَظِيرُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ لِرَسُولِهِ؛ بَلِ الْمَحَبَّةُ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَصْحَبَهَا
التَّعَبُّدُ، وَالتَّعْظِيمُ لِلَّهِ، وَالخُضُوعُ. وَأَمَّا الْمُتَعَلِّقُ بِالرَّسُولِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ حُبٌّ فِي اللَّهِ،
وِطَاعَةٌ لِأَجْلِ أَنْ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، بَلِ حَقُّ الرَّسُولِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ
حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُ بِهِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَعُبُودِيَّةً لَهُ، وَقِيَامًا بِحَقِّ رَسُولِهِ،
وِطَاعَةً لَهُ.

وإنَّما قِيلَ لَهُ: «حَقُّ الرَّسُولِ» لِتَعَلُّقِهِ بِالرَّسُولِ، وَإِلَّا فَجَمِيعُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَحَثَّ
عَلَيْهِ مِنَ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ رَسُولِهِ، وَحُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْأَقَارِبِ وَغَيْرِهِمْ، كُلُّهُ حَقٌّ لِلَّهِ
تَعَالَى، فَيَقُومُ بِهِ الْعَبْدُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَتَعَبُّدًا لَهُ، وَقِيَامًا بِحَقِّ ذِي الْحَقِّ، وَإِحْسَانًا
إِلَيْهِ؛ إِلَّا الرَّسُولَ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ مِنْهُ كُلُّهُ إِلَى أُمَّتِهِ، فَمَا وَصَلَ إِلَيْهِمْ خَيْرٌ إِلَّا عَلَى يَدَيْهِ
ﷺ تَسْلِيمًا.

التعاقب

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْحُقُوقَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: حَقُّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ،
وَحَقُّ لِلرَّسُولِ ﷺ وَحَقُّ مُسْتَرَكٍّ. وَهُنَاكَ أَيْضًا حَقٌّ رَابِعٌ، لَا لِلَّهِ، وَلَا لِلرَّسُولِ، وَلَكِنَّهُ
لِذَوِي الْحُقُوقِ؛ كَحَقُّ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقَارِبِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَلَكِنْ كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ الْأَخِيرُ
يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، سَوَاءً مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ أَوْ مِمَّا يَكُونُ لِحَلْقِهِ - فَهُوَ بِالْمَعْنَى
الْعَامَّةِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ؛ لِأَنِّي حِينَئِذَا أَبْرُ بَوَالِدِي فَإِنِّي أَقُومُ بِذَلِكَ تَعَبُّدًا لِلَّهِ، وَامْتِثَالًا
لِأَمْرِ اللَّهِ.

كَذَلِكَ حَقُّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ بِالرَّسَالَةِ، وَأَوْجَبَ عَلَيْنَا

تَصْدِيقُهُ وَاتِّبَاعُهُ لَكَانَ هُوَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ. وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى صَارَ بِهَذِهِ الْمَكَانَةِ؛ فَالْإِيْمَانُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ لَا يَسْتَوِيَانِ، وَإِنْ اتَّفَقَا فِي أَصْلِهِمَا، لَكِنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ؛ الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ لِدَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ، وَالْإِيْمَانُ بِالرَّسُولِ ﷺ إِيْمَانٌ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ وَأَمَرَنَا بِالْإِيْمَانِ بِهِ، فَهُمَا وَإِنْ اتَّفَقَا فِي الْأَصْلِ، لَكِنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ.

وَمِنْ سَفَهٍ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ حَقَّ اللَّهِ مُتَأَخِّرًا عَنْ حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ! وَيُقَدِّمُونَ حَقَّ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى حَقِّ اللَّهِ! وَمَا عَلِمُوا أَنَّ تَعْظِيمَ الرَّسُولِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ، وَلَيْسَ تَعْظِيمُ اللَّهِ مِنْ تَعْظِيمِ الرَّسُولِ؛ بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، تَعْظِيمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

إِذَا: هَذِهِ الْقَاعِدَةُ مِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ، وَهِيَ أَنَّنَا إِذَا تَأَمَّلْنَا الْقُرْآنَ وَجَدْنَا أَنَّ الْحُقُوقَ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: حَقُّ اللَّهِ، وَحَقُّ لِلرَّسُولِ، وَحَقُّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمَا، وَحَقُّ رَابِعٌ لِدَوِي الْحُقُوقِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] إِلَى آخِرِهِ. فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هَذَا يَتَضَمَّنُ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. أَمَّا ﴿وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ إِلَى آخِرِهِ، فَهَذَا مِنْ حُقُوقِ دَوِي الْحُقُوقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] كَيْفَ عَرَفْنَا أَنَّ بَعْضَهَا لِلَّهِ، وَبَعْضَهَا لِلرَّسُولِ، وَبَعْضَهَا مُشْتَرَكٌ؟ لِأَنَّ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَاضِحٌ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِشْرَاطُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ.

﴿وَنَعَزُّوهُ وَنُوقِرُّوهُ﴾ التَّعْزِيرُ وَالتَّنْصِرَةُ وَالتَّوْقِيرُ وَالْإِخْتِرَامُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
 ﴿وَنُسَيِّحُوهُ﴾ التَّسْيِيحُ لِلَّهِ؛ إِذْ إِنَّا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ مِنَ الدِّينِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ:
 سُبْحَانَ النَّبِيِّ! أَبَدًا! بَلْ نَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَصَارَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْحُقُوقَ مِنْهَا
 مُحْتَصٌ وَمِنْهَا مُشْتَرَكٌ، إِمَّا مِنْ نَفْسِ الْآيَةِ، وَإِمَّا مِنْ أُدْلَةٍ أُخْرَى.



القاعدة الثالثة والأربعون:

يَأْمُرُ اللَّهُ بِالتَّوْبَةِ وَعَدَمِ الْعَجَلَةِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُخْشَى مِنْ عَوَاقِبِهَا
وَيَأْمُرُ وَيَحْتُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى أُمُورِ الْخَيْرِ الَّتِي يُخْشَى فَوَائِهَا

وهذه القاعدة في القرآن كثير، قَالَ تَعَالَى فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾. وَقَالَ تَعَالَى:
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالِهِمْ﴾ [الحجرات: ٦]
وَقَدْ عَاتَبَ اللَّهُ الْمُسْرِعِينَ إِلَى إِذَاعَةِ الْأَخْبَارِ الَّتِي يُخْشَى مِنْ إِذَاعَتِهَا، فَقَالَ تَعَالَى:
﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى
الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا
بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: الْأَمْرُ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي الْأُمُورِ، وَأَخَذِ الْحَذَرِ، وَالْأَيْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ
مَا لَا يَعْلَمُ، وَفِي هَذَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي، فَقَوْلُهُ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الْآيَاتِ [آل عمران: ١٣٣] ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿أُولَئِكَ
يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]
أَي: السَّابِقُونَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْخَيْرَاتِ هُمُ السَّابِقُونَ فِي الْآخِرَةِ إِلَى الْجَنَّاتِ وَالْكَرَامَاتِ،
وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَهَذَا الَّذِي أَرْشَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَيْهِ هُوَ الْكَمَالُ، أَنْ يَكُونُوا حَازِمِينَ، لَا يُفَوِّتُونَ
فُرْصَ الْخَيْرَاتِ، وَأَنْ يَكُونُوا مُتَشَبِّهِينَ؛ خَشْيَةً وَقُوعِ الْمَكْرُوهَاتِ وَالْمَضَرَّاتِ ﴿وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

السَّابِقُ

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ جَدًّا، فَالْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ: مَا عَلِمْتَ مَضَرَّتُهُ،
فَالْإِقْدَامُ إِلَيْهِ لَا يَجُوزُ، لَا بِالْمُسَارَعَةِ وَلَا بِالتَّأَنِّي. وَمَا عَلِمْتَ مَنَفَعَتُهُ، فَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهِ
هِيَ الْأَكْمَلُ، وَجُوبًا أَوْ تَطَوُّعًا، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ، لَكِنْ هُنَا، قَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ
مَنَفَعَةً فِي ذَاتِهِ، وَلَكِنْ يَتَرَدَّدُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ كَوْنِ غَيْرِهِ أَنْفَعَ مِنْهُ، أَوْ هُوَ أَنْفَعُ مِنْ غَيْرِهِ،
وَحِينَئِذٍ يَجِبُ التَّثَبُّتُ وَالتَّرَوُّي.

وَحَيْرٌ فِي ذَاتِهِ، لَكِنْ يَتَرَدَّدُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ كَوْنِ غَيْرِهِ أَنْفَعَ، أَوْ هُوَ أَنْفَعُ، فَحِينَئِذٍ
يَتَثَبَّتُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَدْرِي أَحْيَرُ هُوَ أَمْ غَيْرُ خَيْرٍ؟ لَا بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ، وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ
غَيْرِهِ. إِذَا: هَذَا يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي، وَهُوَ الْمَشْكُوكُ فِيهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَتَثَبَّتَ فِيهِ.
فَهُنَا ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ: قِسْمٌ عَلِمَ مَضَرَّتُهُ، فَلَا نُقَدِّمُ عَلَيْهِ، لَا مُبَادَرَةً وَلَا تَأَنِّيًا. وَقِسْمٌ
آخَرُ عَلِمْتَ مَنَفَعَتَهُ، فَنُقَدِّمُ عَلَيْهِ. وَقِسْمٌ ثَالِثٌ يَتَرَدَّدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، وَيَحْتَاجُ إِلَى تَثَبُّتٍ،
فَتَثَبَّتُ فِيهِ قَبْلَ أَنْ نُقَدِّمَ عَلَيْهِ. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا أَشْكِلُ عَلَيْنَا بِذَاتِهِ، وَمَا أَشْكِلُ عَلَيْنَا
بِمُقَارَنَتِهِ مَعَ غَيْرِهِ، هَلْ هُوَ أَنْفَعُ أَمْ غَيْرُهُ أَنْفَعُ؟ وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

قَدْ بُدِرَكَ الْمَتَانِي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجَلِ الزَّلَلُ
وَرُبَّمَا فَاتَ قَوْمًا جُلَّ أَمْرِهِمْ مَعَ التَّأَنِّي وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجَلُوا^(١)

(١) الأبيات للقطامي في ديوانه (ص: ٣).

فَهُنَا ذَكَرَ الْحَالَيْنِ: فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ يُشِيرُ إِلَى التَّانِي فِي الْأُمُورِ، وَالتَّانِي، مَثَلًا إِذَا عَنَّ لَكَ أَنْ تَقُومَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَهُنَا لَا تَتَأَخَّرُ، إِذَا كَانَ الْحَالُ تَتَطَلَّبُ إِزَالَةَ مَانِعٍ مِنْ مَوَانِعِ الصَّلَاةِ - مَثَلًا - فَلَا تَتَأَخَّرُ؛ وَلِهَذَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا أَصَابَتْهُ نَجَاسَةٌ يُبَادِرُ بِإِزَالَتِهَا، أَوْ بِالْأَمْرِ بِإِزَالَتِهَا؛ بَالٍ عَلَيْهِ صَبِيٌّ فِي حِجْرِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ^(١) وَلَمْ يَقُلْ: أُنْتَظِرُ حَتَّى أَصِلَ إِلَى الْبَيْتِ. وَبَالٍ أَعْرَابِيٌّ فِي طَائِفَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَمَرَ بِدَلْوٍ بِهِ مَاءً فَأَرِيقَ عَلَيْهِ^(٢).

وَالتَّأخِيرُ قَدْ يُسَبِّبُ لِلإِنْسَانِ إِحْرَاجًا، أَنْظِرْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَمَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ذَاتَ مَرَّةٍ وَحَضَرَ، وَلَمَّا تَقَدَّمَ لِيُكَبِّرَ، أَوْ كَبَّرَ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَغْتَسِلْ، فَقَالَ: «مَكَانَكُمْ» ثُمَّ ذَهَبَ وَاغْتَسَلَ، وَجَاءَ وَصَلَّى بِهِمْ، بَعْدَ أَنْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ^(٣)!

أَنْظِرِ التَّأخِيرَ كَيْفَ يُسَبِّبُ! وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَجْرِي عَلَيْهِ مِثْلُ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَسُنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ مِثْلُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ.



-
- (١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب بول الصبيان، رقم (٢٢٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (٢٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
- (٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد، رقم (٢١٩)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٤، ٢٨٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٣) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب إذا ذكر في المسجد أنه جنب، يخرج كما هو، ولا يتيمم، رقم (٢٧٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب متى يقوم الناس للصلاة، رقم (٦٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القاعدة الرابعة والأربعون:

عِنْدَ مِيلَانِ النَّفْسِ أَوْ خَوْفِ مِيلَانِهَا إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي
يُذَكِّرُهَا اللَّهُ مَا يَفُوتُهَا مِنَ الْخَيْرِ وَمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الضَّرَرِ

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة؛ لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي حتى يُقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد أضعافاً مضاعفة على المحبوب الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه، كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] فهنا لما ذكر فتنه الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن الاستقامة قال مُذَكِّرًا لَهُمْ مَا يَفُوتُهُمْ إِنْ افْتَنُوا، وما يحصل لهم إِنْ سَلِمُوا مِنَ الْفِتْنَةِ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَآتَيْنَهُمْ هَوَآءَهُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [٢٠٩] مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً. فإذا بان للنَّاطِرِ أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المتقرر. والله أعلم.

التعاليق

يُفِيدُ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ فِي حَدِّ ذَاتِهَا قَدْ لَا تَكْفِي فِي اسْتِقَامَةِ الْعَبْدِ، لَكِنْ إِذَا ذُكِرَ لَهُ مَا فِي تَنْفِيذِ الْأَمْرِ مِنْ فَائِدَةٍ نَشِطَ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّ مَا يُلَاثِمُهَا.

وَإِذَا ذُكِرَ لَهُ فِي النَّهْيِ مَا يَقْتَضِي الْعُقُوبَةَ، فَإِنَّهُ يَحْذَرُ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةً عَلَى النَّفُورِ بِمَا لَا يُلَاثِمُهَا. وَهَذَا وَاضِحٌ حَتَّى فِي أَوَامِرِكَ أَنْتَ لَوْلَاكَ؛ لَوْ قُلْتَ لَوْلَاكَ: أَفْعَلْ كَذَا! قَدْ يَتَوَانَى. لَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ جَائِزَةٌ، أَوْ قُلْتَ: لَكَ جَائِزَةٌ؛ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ.

فَاللَّهُ عَزَّجَلَ أَحْيَانًا، إِذَا ذُكِرَ حَالًا مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَمِيلُ إِلَيْهَا النَّفْسُ، وَرُبَّمَا تَنْسَى مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ - ذَكَرَهَا، فَهَنَا قَالَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ يَعْنِي: يَفْتِنُ بِهَا الْإِنْسَانُ، وَيَنْشَغِلُ بِهَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَلَمَّا كَانَ هَذَا سَبَبًا لِمِيلِ الْإِنْسَانِ إِلَى أَمْوَالِهِ وَأَوْلَادِهِ، قَالَ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فَلَا تُقَدِّمُوا هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادَ وَالْأَمْوَالَ عَلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ.

وكَذَلِكَ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةَ اللَّهِ: ﴿هَتَانِئْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَلِنَفَرِضَ أَنَّكُمْ نَجَحْتُمْ فِي ذَلِكَ، لَكِنْ ﴿فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ أَيْضًا؛ فَنَقُولُ لِمَنْ جَادَلَ بِالْبَاطِلِ: لِنَفَرِضْ أَنَّكَ لَيِّسَانُكَ وَفَصَاحَتُكَ غَلَبَتْ صَاحِبَ الْحَقِّ، وَلَكِنْ هَلْ تَغْلِبُ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ؟ لَا.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَنْ دَافَعَ عَنْ بَاطِلٍ، وَتَوَكَّلَ عَنْ إِنْسَانٍ فِي قَضِيَّةٍ مَالِيَّةٍ يُدَافِعُ عَنْهُ بِبَاطِلٍ، فَنَقُولُ: لِنَفَرِضْ أَنَّكَ نَجَحْتَ، وَخَاصَمْتَ خَصْمَكَ، لَكِنْ مَنْ يُجَادِلُ

اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وَهَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَذَكَّرَهَا، كُلَّمَا هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ يَقُومَ بِمُخَالَفَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وكَذَلِكَ أَيْضًا الْآيَةُ الثَّالِثَةُ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا: ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ مُقَيَّدَةٌ بِآيَاتٍ أُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

إِذَا: لَا يَخْصُلُ لَهُ كُلُّ مَا يُرِيدُ، بَلْ هُمْ مُقَرَّبُونَ بِمَشِئَةِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ نَاسًا يَسْعَوْنَ لِلدُّنْيَا، وَهُمْ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الدُّنْيَا، وَلَا يَنَالُونَ مِنْهَا شَيْئًا؛ وَلِهَذَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِفَقِيرِ النَّصَارَى، إِذَا أَفْلَسَ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، قِيلَ لَهُ: أَنْتَ مِثْلُ فَقِيرِ النَّصَارَى، لَا حَصَلَ دِينًا وَلَا دُنْيَا!

وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّصَارَى وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ يَسْعَوْنَ لِلدُّنْيَا لَا لِلْآخِرَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ قَدْ يُصَابُونَ بِالْفَقْرِ الْمُدْقِعِ، وَبِالْهَلَاكِ، وَبِالْأَمْرَاضِ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ مَكْتُوبٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ يَقِينًا.

لَوْ نَظَرْنَا إِلَى الْآيَةِ هَذِهِ نَفْسَهَا لَكَانَتْ دَلَالَتُهَا يَقِينًا؛ لِأَنَّهَا جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ، وَالْخَبَرُ لَا يُخْلَفُ، لَكِنَّهَا مُقَيَّدَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].



القاعدة الخامسة والأربعون:

حَثُّ الْبَارِي فِي كِتَابِهِ عَلَى الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ مِنْ أَعَمِّ الْقَوَاعِدِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ دَاخِلًا تَحْتَهَا، ...

التفصيل

الْأَفْصَحُ أَنْ يُقَالَ: يَكَادُ يَكُونُ كَذَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكْذِبْهَا﴾ [النور: ٤٠]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] لَا أَنْ يَفْعَلُوا.

قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

وَكَوْنُهُ بِدُونِ أَنْ بَعْدَ عَسَى نَزَرُ وَكَادَ الْأَمْرُ فِيهِ عَكْسًا^(١)

... فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالصَّلَاحِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَالْإِصْلَاحِ، وَأَثْنَى عَلَى الصَّالِحِينَ
وَالْمُصْلِحِينَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ.

وَالصَّلَاحُ: أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ كُلُّهَا مُسْتَقِيمَةً مُعْتَدِلَةً، مَقْصُودًا بِهَا غَايَاتُهَا
الْحَمِيدَةُ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَأَثْنَى عَلَى الصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْخَيْرِ تُصْلِحُ
الْقُلُوبَ وَالْإِيْمَانَ، وَتُصْلِحُ الدِّينَ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَضِدُّهَا فُسَادُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٢٠).

وَكَذَلِكَ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِيهَا الثَّنَاءُ عَلَى الْمُصْلِحِينَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ، وَالْمُصْلِحِينَ بَيْنَ النَّاسِ، وَالتَّصَالِحِ فِيمَا بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَأَخْبَرَ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ أَنَّ الصُّلَحَ خَيْرٌ؛ فإِصْلَاحُ الْأُمُورِ الْفَاسِدَةِ: السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشُّرُورِ وَالضَّرَرِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ.

وَمِنْ أَهَمِّ أَنْوَاعِ الْإِصْلَاحِ: السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، فِي إِصْلَاحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨] فُكِّلَ سَاعٍ فِي مَصْلَحَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ دُنْيَوِيَّةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ مُصْلِحٌ، وَاللَّهُ يَهْدِيهِ وَيُرْشِدُهُ وَيُسَدِّدُهُ، وَكُلُّ سَاعٍ بَصْدٌ ذَلِكَ فَهُوَ مُفْسِدٌ، وَاللَّهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ.

التعاليق

مِنَ الْآيَاتِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمُصْلِحِينَ: ﴿وَالَّذِينَ يُسَيِّئُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى بَيَّنَّ اللَّهُ جَزَاءَهُمْ، وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا ارْتَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ الْإِصْلَاحِ. وَانْتَبَهَ لِهَذَا الشَّرْطِ: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَأَهْلُهَا صَالِحُونَ!

إِذَا: فَالْصَّلَاحُ فِي الْأُمَّةِ بِدُونِ إِصْلَاحِ لَا يَضْمَنُ ارْتِفَاعَ الْهَلَاكِ عَنْهُمْ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُصْلِحِينَ، آمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ، نَاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ صَلَاحِ أَنْفُسِهِمْ.

أَمَّا الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ فَكَقَوْلِهِ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴿النساء: ١٢٨﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَنَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].



وَمِنْ أَهَمِّ مَا يَكُونُ أَيْضًا: السَّعْيُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي الدِّمَاءِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْحُقُوقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَالوَاجِبُ أَنْ يُصْلَحَ بِالْعَدْلِ، وَيُسْلِكَ كُلُّ طَرِيقٍ تُوَصِّلُ إِلَى الْمُلَاطَمَةِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، فَإِنَّ أَثَارَ الصُّلْحِ بَرَكَهٌ وَخَيْرٌ وَصَلَاحٌ، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا جَنَحَ الْكُفَّارُ الْحَرْبِيُّونَ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالَحَةِ أَنْ يُوَافِقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ.

وَأُمُثْلُهُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ لَا تَنْحَصِرُ، وَحَقِيقَتُهَا: السَّعْيُ فِي الْكَمَالِ الْمُمَكِّنِ حَسَبَ الْقُدْرَةِ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ أَوْ تَكْمِيلِهَا، أَوْ إِزَالَةِ الْمَفَاسِدِ وَالْمَضَارِّ أَوْ تَقْلِيلِهَا، الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ، الْمُتَعَدِّيَةِ وَالْقَاصِرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعاليق

إِذَا جَنَحَ الْكُفَّارُ إِلَى الْمُسَالَمَةِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] وَهَذَا فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا فِي حَالِ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مُقَاتَلَةَ الْكُفَّارِ ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] أَوْ يُسَلِّمُوا، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَذَاكَ، وَإِلَّا بَدَلُهُ الْجِزْيَةُ، فَإِنْ أَبَوْا وَجَبَ عَلَيْنَا قِتَالُهُمْ إِصْلَاحًا لَهُمْ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُمْ إِذَا رَأَاهُمْ قَدْ قُوتِلُوا مِنْ أَجْلِ كُفْرِهِمْ، رَبِّمَا يُسَلِّمُونَ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ.

ونحنُ إِذَا قَاتَلْنَاهُمْ، لَا نَقُولُ لَهُمْ: ادْخُلُوا فِي دِينِنَا؛ لِأَنَّهُ دِينُنَا، وَلَكِنْ نَقُولُ: ادْخُلُوا فِي دِينِنَا؛ لِأَنَّهُ دِينُنَا وَدِينُكُمْ، وَوَاجِبٌ عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا دِينَكُمْ؛ لِأَنَّهُ دِينُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ عِبَادُ اللَّهِ، فَكَانَ هَذَا الدِّينُ وَاجِبًا عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ، لَكِنْ أَنْتُمْ خَرَجْتُمْ مِنْهُ، فَتُرِيدُ أَنْ تُرَدَّكُمْ إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ شُعَيْبٌ: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

فَالْإِنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَنَّنَا لَا نُقَاتِلُهُمْ تَعَصُّبًا لِدِينٍ نَحْنُ عَلَيْهِ فِي مُقَابِلِ دِينِهِمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، لَكِنَّا نُقَاتِلُهُمْ؛ لِيَدْخُلُوا فِي دِينٍ هُوَ لَنَا وَلَهُمْ، مَفْرُوضٌ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ دِينُ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَأَمَرَنَا بِقَاتِلِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي دِينِ اللَّهِ، أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

وَالْإِنْسَانُ الْخَرُّ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يُعْطِيَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُوَ صَاغِرٌ، فَيَكُونُ فِي هَذَا عَذَابٌ نَفْسِيٌّ يُوجِبُ لَهُمْ فِي النِّهَايَةِ أَنْ يُسَلِّمُوا.

الْخُلَاصَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى فَائِدَةِ الصُّلْحِ، وَإِلَى فَائِدَةِ الْإِصْلَاحِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ صَاحِلًا لِنَفْسِهِ، سَاعِيًا فِي إِصْلَاحِ غَيْرِهِ؛ هَذَا أَوَّلًا. وَثَانِيًا: عَلَيْهِ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَهَذَا خِلَافُ طَرِيقِ النَّهْمِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- الَّذِي يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الْإِفْسَادِ وَالْفُرْقَةِ، وَرُبَّمَا يَخْلُقُ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَضْلٌ، رُبَّمَا يَأْتِي إِلَى شَخْصٍ وَيَقُولُ: قَالَ فِيكَ فَلَانٌ: كَذَا، وَقَالَ فِيكَ فَلَانٌ: كَذَا، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ! لَكِنْ لِيُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ.

وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا يَسْلُكُهُ بَعْضُ النَّاسِ الظَّلَمَةِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- الَّذِينَ هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَشُونَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ،

وَيَأْتُونَ إِلَى فُلَانٍ يَقُولُونَ: أَرَأَيْتَ فُلَانًا مَاذَا قَالَ! قَالَ هَذَا الْكَلَامَ الْمُنْكَرَ. وَرُبَّمَا يَقُولُ:
قَالَ فِيكَ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ.

كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ إِفْسَادٌ وَلَيْسَتْ إِصْلَاحًا. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشُونَ بَيْنَ
أَهْلِ الْعِلْمِ، وَيُوقِعُونَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَالْأَخْذَ وَالرَّدَّ فِي أُمُورِ يَسَعُ الْمُسْلِمِينَ
الْخِلَافُ فِيهَا؛ لِكُونِهَا أُمُورًا اجْتِهَادِيَّةً، مَبْنِيَّةً عَلَى الْجَهْدِ، هَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ
أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وَهُمْ مُفْسِدُونَ؛ لِأَنَّ إِضْعَافَ جَانِبِ
حَمَلَةِ الشَّرْعِ هُوَ إِضْعَافُ لِحَافِ الشَّرْعِ، فَإِذَا أَضْعَفْنَا حَمَلَةَ الشَّرْعِ، وَجَعَلْنَا هُمْ خُصَمَاءَ
فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّا أَضْعَفْنَا الشَّرْعَ كُلَّهُ، وَصَارَ النَّاسُ لَا يَثِقُونَ بِأَحَدٍ، كُلَّمَا
أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَحْتَجَّ بِقَوْلِ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا: لَكِنْ انْظُرْ مَاذَا قَالَ، تَكَلَّمَ
فِيهِ فُلَانٌ، وَانْظُرْ مَاذَا أَحْدَثَ، وَانْظُرْ رَدَّ فُلَانٍ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ أَمْرٌ مُنْكَرٌ،
وَأَنَّ هَذَا مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ لِهَؤُلَاءِ الْأَغْرَارِ، الَّذِينَ نَعْتَبِرُهُمْ صِغَارَ الْعُقُولِ، وَسُفَهَاءَ
الْأَحْلَامِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِذَا رَأَوْا تَصَدَّعًا بَيْنَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا بَيْنَ عُلَمَائِهِمْ، أَنْ
يَقُومُوا بِالْإِصْلَاحِ، وَرَأْبِ الصَّدْعِ، وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ؛ حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً،
كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ، عَلَيْكُمْ إِذَا رَأَيْتُمْ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ أَنْ تُحَذِّرُوا النَّاسَ
مِنْهُمْ، وَمِنْ طَرِيقِهِمْ، وَتُبَيِّنُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ ضَرَرًا، لَيْسَ عَلَى الشَّخْصِ
الَّذِي يُهَاجِمُونَهُ فَحَسَبُ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى الْإِسْلَامِ، أَمَّا هُمْ فَقَدْ ضَلَّ
سَبِيلَهُمْ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

فالواجب علينا أن نُصلِحَ مَا اسْتَطَعْنَا. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ
 كَلِمَةَ الْحَقِّ، وَنُمكنُ إِظْهَارَ كَلِمَةِ الْحَقِّ بِأَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ الْحَقَّ بِدُونِ أَنْ يَتَعَرَّضَ
 لِلطَّغْنِ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ. فَلَا يَلْزَمُ أَنْ نَطْعَنَ فِي شَخْصٍ، بَلْ إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ الْحَقَّ،
 وَبَيَّنَّهُ بِأَدِلَّتِهِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، عَرَفَ النَّاسُ فَسَادَ ضِدِّهِ، وَبَقِيَتِ الْأُمُورُ لَيْسَ فِيهَا
 تَحْزُبٌ، وَلَيْسَ فِيهَا تَكْتُلٌ، وَلَيْسَ فِيهَا: «أَنْتَ مَعَ فُلَانٍ، وَأَنَا مَعَ فُلَانٍ» كَمَا هُوَ حَادِثٌ
 فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ. نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.



القاعدة السادسة والأربعون:

مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ إِلَّا أَنْ يُوجَّهَ إِلَى مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ
فَهَذَا أَمْرٌ لَهُ بِاللَّدْخُولِ فِيهِ وَإِذَا أَنْ يُوجَّهَ لِمَنْ دَخَلَ فِيهِ فَهَذَا أَمْرُهُ بِهِ لِيُصَحَّحَ
مَا وَجَدَ مِنْهُ، وَيَسْعَى فِي تَكْمِيلِ مَا لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُ

التعليق

هذه القاعدة مهمة: إِذَا وَجَّهَ الْخِطَابُ بَشْيءٍ إِلَى شَخْصٍ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ، فَهُوَ
أَمْرٌ بِفَعْلِهِ وَإِجَادِهِ، مِثْلُ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ
عَابِدِينَ لِلَّهِ، فَيَكُونُ الْخِطَابُ هُنَا مُوجَّهًا حَتَّى إِلَى الْكُفَّارِ، فَيَكُونُ أَمْرًا بِفَعْلٍ هَذَا
الشَّيْءِ.

أَمَّا إِذَا وَجَّهَ الْأَمْرُ إِلَى مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ وَاتَّصَفَ بِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ بِتَحْقِيقِهِ، وَتَكْمِيلِ
مَا نَقَصَ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي
نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَهَذِهِ
القاعدة مهمة؛ لِأَنَّهُ أَحْيَانًا يَرُدُّ عَلَى الْإِنْسَانِ: كَيْفَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ وَهُوَ يَأْتِي بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا؟ فَيَكُونُ أَمْرًا بِإِتْمَامِ مَا نَقَصَ مِنْهُ،
وَإِحْمَالِ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْهُ.

وهذه القاعدة مُطَرَّدةٌ في جميعِ الأوامرِ القرآنيَّةِ، أُصُولُهَا وفُرُوعُهَا، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [النساء: ٤٧] مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُونَ ءَامِنُونَ﴾ [النساء: ١٣٦] مِنَ الثَّانِي والثَّالِثِ، فَإِنَّهُ أَمَرُهُمْ بِمَا يُصَحِّحُ وَيُكَمِّلُ إِيْمَانَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَكَمَالِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَالنَّهْيِ عَمَّا يُفْسِدُهَا وَيَنْقُصُهَا.

وكَذَلِكَ أَمَرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَصُومُوا رَمَضَانَ، أَمْرٌ بِتَكْمِيلِ ذَلِكَ، وَالْقِيَامِ بِكُلِّ شَرْطٍ وَمُكَمِّلٍ لَذَلِكَ الْعَمَلِ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ مُفْسِدٍ وَمُنْقِصٍ لَذَلِكَ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ أَمَرُهُ لَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ وَالْإِنَابَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ هُوَ أَمْرٌ بِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، وَإِيجَادِ مَا لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُ.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، والله قد هداهم للإسلام، جوابه ما تضمنته هذه القاعدة، ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل!! فافهم هذا الأصل الجليل النافع الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزاً، وهو في غاية اليسر والوضوح.

التعليق

المؤمن يقول: ﴿أَمَدِنَا أَصْرَطَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الفاتحة: ٦] أَنْتَ قَدْ هَدَيْتَ، وَلَكِنْ بَقِيَ عَلَيْكَ تَكْمِيلٌ، فَمَا أَنَا فَاعِلُهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَكْمِيلٍ وَتَحْسِينٍ وَإِكْمَالٍ فِيمَا نَقَصَ مِنِّي، فَأَنْتَ مَثَلًا تُصَلِّي الصَّلَوَاتِ، لَكِنْ هَلْ تَأْتِي بِالرَّوَائِبِ كُلِّهَا؟ قَدْ لَا تَأْتِي بِهَا، تُصَلِّي الصَّلَوَاتِ، لَكِنْ هَلِ الصَّلَوَاتُ كَامِلَةٌ؟ قَدْ تَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاتِكَ وَلَمْ يُكْتَبْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْعُشْرُ مَثَلًا؟

فهذه القاعدة - كما قال شيخنا رحمه الله - قاعدة مهمة جداً، يزول بها إشكال كثير، ويستحضر الإنسان بها كيف يدعو الله جلَّ وعلا، إذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].



القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ:

إِذَا كَانَ سِيَاقُ الْآيَاتِ فِي أُمُورٍ خَاصَّةٍ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهَا،
وَذَلِكَ الْحُكْمُ لَا يَخْتَصُّ بِهَا بَلْ يَشْمَلُهَا وَيَشْمَلُ غَيْرَهَا - جَاءَ اللَّهُ بِالْحُكْمِ الْعَامِّ

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعِهِ، وأكبر دليل على إحكامِهِ وانتظامِهِ العَجِيبِ، وأمثلة هذه القاعدة كثيرةٌ، منها: لما ذكر الله المنافقين وذمَّهُمْ واستثنى مِنْهُمْ التَّائِبِينَ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] فلما أراد الله أن يحكم لَهُمْ بالأجر لم يقل: وَسَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا، بَلْ قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] لِيَشْمَلَهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ وَلئَلَّا يُظَنَّ اخْتِصَاصُ الْحُكْمِ بِهِمْ.

ولما قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥١] لَمْ يَقُلْ: «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ» لِلْحِكْمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَمِثْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٦٤] أَي: هَذِهِ الْحَالَةُ الَّتِي وَقَعَ السِّيَاقُ لِأَجْلِهَا «وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ» [الأنعام: ٦٤].

النتائج

وهذه أيضًا تقع كثيرًا في مقام الإظهار في موضع الإضمار؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أحيانًا يُظْهِرُ فِي مَوْضِعِ الضَّمِيرِ لِيُفِيدَ الْحُكْمَ بِالْعُمُومِ، فَالآيَاتُ الَّتِي ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ

وَاضِحَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي
اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لَوْ قَالَ: وَسَوْفَ يُؤْتِيهِمْ لَتَوْهُمْ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ
الْعَظِيمَ لَهُؤُلَاءِ فَقَطْ! وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَأُظْهِرَ فِي مَوْضِعِ
الْإِضْمَارِ، وَفَائِدَتُهُ أَنَّ الْحُكْمَ عَامٌّ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ.

وَهُنَاكَ فَائِدَةٌ أُخْرَى: أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ ثَبَتَ مِنْ أَجْلِ الْإِيمَانِ، فَكُلُّ مُؤْمِنٍ وَإِنْ
لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نِفَاقٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

وَالْمُهْمُّ أَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ - كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ - قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا، وَهِيَ أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَحْكُمُ بِحُكْمٍ عَامٍّ، يَشْمَلُ مَا سَبَقَ مِنْ أَجْلِهِ، وَمَا لَمْ يُذْكَرْ، وَهَذَا مِنْ بَدَائِعِ
الْقُرْآنِ، وَجَمْعِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ.



القاعدة الثامنة والأربعون:

مَتَى عَلَّقَ اللَّهُ عِلْمَهُ بِالْأُمُورِ بَعْدَ وُجُودِهَا كَانَ الْمَرَادُ بِذَلِكَ الْعِلْمُ
الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ

وذلك أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِالْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَالظُّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَالْجَلِيَّاتِ وَالْخَفِيَّاتِ، وَالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ عَلِمَ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوا الْأَعْمَالَ، وَقَدْ وَرَدَ عِدَّةُ آيَاتٍ يُخْبِرُ بِهَا أَنَّهُ شَرَعَ كَذَا، أَوْ قَدَّرَ كَذَا؛ لِيَعْلَمَ كَذَا.

فَوَجْهُ هَذَا: أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ. وَأَمَّا عِلْمُهُ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَمَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوا، فَذَلِكَ عِلْمٌ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُجَازَى عَلَى مَا وَجَدَ مِنَ الْأَعْمَالِ. وَعَلَى هَذَا الْأَصْلِ نَزَّلَ مَا يَرِدُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] وَقَوْلِهِ: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا عَلَى هَذَا الْأَصْلِ.

التعاليق

نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَفِي الْمَاضِي، وَفِي الْحَاضِرِ. وَهَذَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَرِدُ آيَاتٌ تُوجِبُ إِشْكَالًا، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟ بَلَى، ﴿لَتَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟ بَلَى. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

وَهَذَا يُوجِبُ الْإِشْكَالَ عَلَى الْإِنْسَانِ، فَأَرَادَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ الْجَوَابَ، فَقَالَ: إِنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ، وَعِلْمٌ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ؛ فَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بَأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ سَيَكُونُ، لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ. وَكَيْفَ يَتَرْتَّبُ الْجَزَاءُ عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ وَلَمْ يُنَهَ؟! وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ فَهَذَا عِلْمٌ بِمَا يَكُونُ لِيُجَازِيَ عَلَيْهِ، وَهَذَا وَاضِحٌ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِلَّا لِنَعْلَمَ عِلْمَ ظُهُورٍ، فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى إِطْلَاقِهَا فِيهَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ بِالشَّيْءِ قَبْلَ وَقُوعِهِ عِلْمٌ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. لَكِنْ إِنْ أَرَادُوا بِعِلْمِ الظُّهُورِ أَنْ تَعْلُقَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الشَّيْءِ قَبْلَ وَقُوعِهِ تَعْلُقٌ بِأَنَّ الشَّيْءَ سَيُوجَدُ، وَتَعْلُقُهُ بِهِ بَعْدَ الْوُجُودِ تَعْلُقٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، يَعْنِي: عِلْمُ اللَّهِ السَّابِقُ عَلَى الْوُقُوعِ عِلْمٌ بِأَنَّهُ سَيُوجَدُ، وَعِلْمُ اللَّهِ بَعْدَ الْوُقُوعِ عِلْمٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، هَذَا صَحِيحٌ.

وَهَذَا أَيْضًا فَرْقٌ ثَانٍ، بَأَنَّ اللَّهَ إِذَا عَلَّقَ الْعِلْمَ بِمَوْجُودٍ، فَهُوَ عِلْمٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، وَإِذَا تَعْلَّقَ عِلْمُهُ بِمَا سَيُوجَدُ فَهُوَ عِلْمٌ بِأَنَّهُ سَيُوجَدُ، لَا بِأَنَّهُ وُجِدَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عِلْمٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، صَارَ عَلَى خِلَافِ الْمَوْجُودِ.

القاعدة التاسعة والأربعون:

إِذَا مَنَعَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا تَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُمْ فَتَحَ لَهُمْ بَابًا أَنْفَعَ لَهُمْ مِنْهُ وَأَسْهَلَ وَأَوْلَى

وهَذَا مِنْ لُطْفِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] فَهَاهُمْ عَنِ التَّمَنِّي الَّذِي لَيْسَ بِنَافِعٍ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ وَبِلِسَانِ الْحَالِ؛ وَلَمَّا سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رُؤْيَا رَبِّهِ حِينَ سَمِعَ كَلَامَهُ وَمَنَعَهُ اللَّهُ مِنْهَا، سَلَّاهُ بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، قَالَ: ﴿يَسْأَلُكَ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠] وَفِي هَذَا الْمَعْنَى آيَاتٌ كَثِيرَةٌ.

التفصيل

وهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ بِهِ لُطْفَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِحْسَانَهُ إِلَى خَلْقِهِ؛ أَنَّهُ إِذَا مَنَعَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابًا خَيْرًا مِنْهُ، فَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، يَعْنِي: مِنَ الْعِلْمِ، وَالْمَالِ، وَالْجَاهِ، وَالرِّئَاسَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا تَتَمَنَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ مَا أَعْطَى اللَّهُ أَخَاكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾

وَلَمْ يَقُلْ: وَلَا تَتَمَنَّوْا مِثْلَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ؛ إِذْ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَجُوزُ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ.

يَجُوزُ أَنْ تَتَمَنَّى مِثْلَ عِلْمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -مَثَلًا- يُقَالُ: إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَقْهًا كَفَقْهِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ، وَنَحْوًا كَنَحْوِ ابْنِ هِشَامٍ! هَذَا جَائِزٌ، لَكِنْ لَوْ قُلْتَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي فَقْهَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ، يَغْنِي: اجْعَلْهُ لِي دُونَهُ، هَذَا لَا يَجُوزُ.

إِذَا: أَقُولُ: أَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْطِيَنِي مِثْلَ مَا أُعْطِيتَ هَذَا الرَّجُلَ، كَقَوْلِنَا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» فَهَذَا مِنْ أَلَطِ الْقَوَاعِدِ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

كَذَلِكَ أَيْضًا: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ رُبَّمَا يَنْدِمُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَسْخِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْضَ الْأَحْكَامِ، أَوْ بَعْضَ الْآيَاتِ، أَوْ يَنْدِمُ عَلَى تَنْسِيهِ إِيَّاهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَنُفِّرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿[الأعلى: ٦-٧]﴾. إِذَا نَدِمَ الْإِنْسَانُ، نَقُولُ: لَا تَنْدِمُ يَا أَخِي! إِنَّ اللَّهَ إِذَا نَسَخَ آيَةً، أَوْ أَنْسَاهَا، أَتَى بِخَيْرٍ مِنْهَا، أَوْ مِثْلَهَا. وَبَدَأَ بِالْخَيْرِيَّةِ أَوَّلًا، فَقَالَ: ﴿يُخَيِّرُ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾.

وَالْفَائِدَةُ مِنَ النَّسْخِ إِذَا كَانَتِ الْآيَةُ النَّاسِخَةُ مِثْلَ الْأُولَى اخْتِبَارُ الْعَبْدِ، هَلْ يَكُونُ قَابِلًا رَاضِيًا أَوْ لَا؟ وَانْظُرْ إِلَى نَسْخِ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ! الْعَمَلُ وَاحِدٌ، وَالْأَتَجَاهُ وَاحِدٌ، أَنْتَ لَا يُهِمُّكَ أَنْ تَتَّجِهَ إِلَى الْمَشْرِقِ أَوْ إِلَى الْمَغْرِبِ، أَوْ إِلَى الشَّمَالِ أَوْ إِلَى الْجَنُوبِ، لَكِنَّ الْفَائِدَةَ هِيَ امْتِحَانُ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا رَأَى النَّسْخَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- ارْتَدَّ! وَقَالَ: كَيْفَ

يُبَدِّلُ الشَّرْعُ؟! فَالْحَاصِلُ، أَنِّي أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا مَنَعَ الْعِبَادَ شَيْئًا فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابًا كَثِيرَةً مِثْلَهُ، أَوْ خَيْرًا مِنْهُ.

وَعَلَى هَذَا نَقُولُ: مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ. أَيْضًا، فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ اشْتَقَ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَرَاهُ؛ لِأَنَّ رُؤْيَا الْمُتَكَلِّمِ لَيْسَتْ كَسَمَاعِ كَلَامِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ- إِذَا خَاطَبَهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، اسْتَقْبَلُوهُ بِوُجُوهِهِمْ حَتَّى يَرَوْهُ، لَوْ حَدَّثَكَ أَحَدٌ بِحَدِيثٍ مِنْ وَرَاءِ الْجِدَارِ، تَسْمَعُ لِقَوْلِهِ لَكِنْ لَيْسَ كَمَا إِذَا رَأَيْتَهُ، أَنْتَ الْآنَ تَسْمَعُ فِي الْمُسْجَلِ كَلَامَ الرَّجُلِ بِنَفْسِكَ، لَكِنْ لَيْسَ كَحُضُورِكَ عِنْدَهُ وَهُوَ يُلْقِي الْكَلَامَ، فَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ؛ فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ اشْتَقَ لِرُؤْيَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ هَذَا مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّ نَقْصَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى.

ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ فَتَجَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْجَبَلِ، فَاذْكُ الْجَبَلُ! جَبَلٌ أَصَمٌّ، حَجَرٌ صُلْبٌ، لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لَهُ جَعَلَهُ دَكًّا، وَصَارَ تُرَابًا! لَمَّا رَأَى مُوسَى هَذَا الْأَمْرَ خَرَّ صَعِيقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: ﴿سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَمَا سَأَلْتُكَ الرُّؤْيَا عَنْ شَيْءٍ، وَلَكِنْ عَنْ شَوْقٍ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَلَا تَطْلُبْ مَا لَمْ تُؤْتِ﴾ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿هُنَا عَوَّضٌ عَنِ الرُّؤْيَا، أَوْ سُلِّيَ عَنِ الرُّؤْيَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾.

وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] يَعْنِي: لَا تَهِنُوا وَتَضَعُفُوا فِي طَلَبِ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي يُصِيبُكُمْ يُصِيبُهُمْ، هُمْ مِثْلُكُمْ بَشَرٌ، لَكِنَّ الْفَارِقُ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ يُسَلِّي الْمَرْءَ، وَيُوجِبُ لَهُ النَّشَاطَ فِي تَنْفِيزِ الْأَمْرِ.



القاعدة الخمسون:

آيَاتُ الرَّسُولِ هِيَ الَّتِي يُبْدِيهَا الْبَارِي وَيَبْتَدِيهَا
وَأَمَّا مَا أَبْدَاهُ الْمُكَذَّبُونَ لَهُ وَافْتَرَحُوهُ
فَلَيْسَتْ آيَاتٍ وَإِنَّمَا هِيَ تَعْتَثَاتٌ وَتَعْجِزَاتٌ

وبهذا يُعرفُ الفرقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآيَاتِ، وَهِيَ الْبَرَاهِينُ وَالْأَدِلَّةُ عَلَى صِدْقِ
الرَّسُولِ وَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَعَلَى صِدْقِ كُلِّ خَبَرٍ أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، وَأَنَّهَا الْأَدِلَّةُ وَالْبَرَاهِينُ
الَّتِي يَلْزَمُ مِنْ فَهْمِهَا عَلَى وَجْهِهَا صِدْقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ وَيَقِينُهُ.

وبهذا المعنى مَا أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ آمَنَ
البَشَرُ. وَأَمَّا مَا آتَى اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الْآيَاتِ، فَهِيَ لَا تُحَدُّ وَلَا تُعَدُّ مِنْ كَثَرَتِهَا وَقُوَّتِهَا
ووضوحها والله الحمد، فَلَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهَا عُذْرٌ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ اقْتِرَاحَ
الْمُكَذِّبِينَ لآيَاتٍ يُعَيِّنُونَهَا لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُمْ بِهَذَا أَنَّهُمْ وَطَّنُوا
أَنْفُسَهُمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ، وَعَدِمَ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَرَاهُمْ
شَوَاهِدَ الْآيَاتِ أَرَادُوا أَنْ يُبَرِّرُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ الْأَغْمَارِ وَالشَّفَهَاءِ بِقَوْلِهِمْ: ائْتِنَا بِالْآيَةِ
الْفُلَانِيَّةِ، وَالْآيَةِ الْفُلَانِيَّةِ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، وَإِنْ لَمْ تَأْتِ بِذَلِكَ فَلَا نُصَدِّقُكَ!! فَهَذِهِ
طَرِيقَةٌ لَا يَرْضِيهَا أَدْنَى مُنْصِفٍ؛ وَلِهَذَا يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا لَمْ
يُؤْمِنُوا؛ لِأَنَّهُمْ وَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الرِّضَى بِدِينِهِمْ، وَعَرَفُوا الْحَقَّ وَرَفَضُوهُ. وَأَيْضًا،
فَهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ فِي الْحَالِ وَالْمَالِ.

أَمَّا الْحَالُ: فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تُقْتَرَحُ وَتُعَيَّنُ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ الْمُقْتَرِحِينَ لَهَا لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمُ الْحَقَّ، فَإِذَا جَاءَتْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا عُوِجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ الْحَاضِرَةِ.

وَأَمَّا الْمَالُ: فَإِنَّهُمْ جَزَمُوا جَزْمًا لَا تَرَدُّدَ فِيهِ أَتَمَّا إِذَا جَاءَتْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا، وَهَذَا قَلْبٌ لِلْحَقَائِقِ، وَإِخْبَارٌ بغيرِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَوْ جَاءَتْهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَهَذَا النَّوعُ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَنِ الْمُكَذِّبِينَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا؛ كَقَوْلِهِمْ:

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٩٠].

التفاسير

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ٩٠ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ٩١ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَكُوتَ قَبِيلًا﴾ ٩٢ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفْرِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبَأًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ٩٣ ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٩٠-٩٤] إِلَى آخِرِهِ؛ فَيِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٩٦ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يُونُس: ٩٦-٩٧].

وبهذا نعرفُ مرادَ المؤلفِ في الكتابِ، مِنْ أَوَّلِ الْقَاعِدَةِ؛ حَيْثُ قَالَ: إِنَّ آيَاتِ الرَّسُولِ هِيَ الَّتِي يُبْدِيهَا الْبَارِي وَيُنْتَدِيهَا. وَأَمَّا مَا أَبْدَاهُ الْمُكَذِّبُونَ وَافْتَرَحُوهُ، فَلَيْسَتْ بِآيَةٍ مُرَادَةٍ، وَأَنَّ عَدَمَ وُجُودِهَا لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِلَّا لَوْ افْتَرَحُوا آيَةً،

وَجَاءَ بِهَا الرَّسُولُ، لَقُلْنَا: إِنَّهَا آيَةٌ. لَكِنْ مُرَادُهُ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا إِذَا لَمْ تَأْتِ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ لَيْسَ بِحَقٍّ.

أَمَّا لَوْ اقْتَرَحُوا آيَةً، وَجَاءَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا شَكَّ آيَةٌ، فَكَلَامُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ يُرِيدُ بِهِ الْأَمْرَ الْمُخَالَفَ. فَالْآيَاتُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ ابْتِدَاءً، وَاضِحٌ أَنَّهَا آيَاتٌ. وَالْآيَاتُ الَّتِي اقْتَرَحَتْ عَلَيْهِمْ، تَحْلُفُهَا لَا يَعْنِي أَنَّهُمْ غَيْرُ صَادِقِينَ، لَكِنْ إِذَا وُجِدَتْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ أَيْضًا. فَمَثَلًا: اقْتَرَحَ قَوْمٌ صَالِحٍ عَلَى صَالِحٍ آيَةً، فَجَاءَ بِالنَّاقَةِ. وَاقْتَرَحُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةً، فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ.



... وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١] إِلَى آخِرِهَا.

وَأَيْضًا إِذَا تَدَبَّرْتَ اقْتِرَاحَاتِ الَّتِي عَيَّنُوهَا لَمْ تَجِدْهَا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ جِنْسِ الْبَرَاهِينِ، وَإِنَّمَا هِيَ لَوْ فُرِضَ الْإِتْيَانُ تَكُونُ شَبِيهَةً بِآيَاتِ الْاضْطِرَارِ الَّتِي لَا يَنْفَعُ الْإِيْمَانُ مَعَهَا، وَيَصِيرُ شَهَادَةً، وَإِنَّمَا الْإِيْمَانُ النَّافِعُ هُوَ الْإِيْمَانُ بِالْغَيْبِ، ...

السَّعَابِ

هَذَا وَجْهٌ مُهِمٌّ جَدًّا، لَوْ جَاءَتْ الْآيَاتُ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا صَارَ إِيْمَانُهُمْ لَيْسَ إِيْمَانًا بِالْغَيْبِ، بَلْ هُوَ إِيْمَانٌ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْوَاقِعِ. حَيْثُذِ، لَا يَنْفَعُهُمْ؛ وَلِهَذَا فَالْغَالِبُ أَنَّهُ إِذَا أَتَتْ الرُّسُلُ بِالْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ وَلَمْ يُؤْمِنْ الْمُقْتَرِحُونَ، الْغَالِبُ أَنَّهُمْ يَهْلِكُونَ، وَأَنَّ الْعَذَابَ يَكُونُ مُقَارِنًا لَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فالحاصل: أَنَّ الآيَاتِ الْمُفْتَرَحَةَ إِذَا جَاءَتْ مُوَافِقَةً لِطَبِيقِ مَا اقْتَرَحُوهُ، صَارَ هَذَا الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ إِيْمَانًا بِالمُشَاهَدَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِثْلُ الْأَمَارَةِ الَّتِي يَجْعَلُهَا الْإِنْسَانُ لِشَخْصٍ، كَأَن أَقُولَ: إِذَا وَجَدْتَ السَّيَّارَةَ عِنْدَ الْبَابِ فَأَنَا فِي الْبَيْتِ، فَإِذَا جَاءَ وَوَجَدَ السَّيَّارَةَ عِنْدَ الْبَابِ، عَلِمَ أَنِّي فِي الْبَيْتِ. هَذَا إِيْمَانٌ مُشَاهَدَةٌ لَا غَيْبٌ.



... فَكَمَا أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَحُقُوقِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا حُكْمُهُ، وَأَنَّ مَنْ قَالَ: «يَنْبَغِي أَوْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ كَذَا وَكَذَا» فَهُوَ مُتَجَرِّئٌ عَلَى اللَّهِ، مُتَوَكِّبٌ عَلَى حُرْمَاتِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ -فَكَذَلِكَ بَرَاهِينُ أَحْكَامِهِ لَا يَتَوَلَّاهَا إِلَّا هُوَ، فَمَنْ اقْتَرَحَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَقَدْ ادَّعَى مُشَارَكَةَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ وَمُنَازَعَتِهِ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي يَهْدِي وَيُرْشِدُ بِهَا عِبَادَهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

التعابن

هَذَا أَيْضًا مُهِمٌّ جِدًّا، أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اقْتَرَحَ سَبِيلًا غَيْرَ سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ حُكْمًا غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مُنَازِعٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي حُكْمِهِ، وَفِي طَرِيقِ هِدَايَتِهِ لِخَلْقِهِ، لَوْ قَالَ مَثَلًا: يَنْبَغِي أَنْ يُوزَعَ الصَّوْمُ عَلَى كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَيَكُونُ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا، بَعْدَ أَنْ كَانَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَلَوْ كَانَ هَكَذَا لَكَانَ أَيْسَرَ عَلَى النَّاسِ وَأَسْهَلَ وَأَكْثَرَ!

نَقُولُ: إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ نَازَعْتَ اللَّهَ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ، وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْكَمُ وَأَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَقْتَرِحُ آيَةً عَلَى الرُّسُلِ؛ انْتُوا بِكَذَا

وكذا، ويقول: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَتَيْتُمْ بِهَا لَا تَكْفِي فِي إِقَامَةِ الْبُرْهَانِ عَلَى أَنَّكُمْ رُسُلٌ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَأْتُوا بِالْآيَاتِ الْفُلَانِيَّةِ الَّتِي اقْتَرَحْنَاهَا! وَهَذَا فِيهِ جَرَاءٌ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

والحاصل: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، سَوَاءً كَانَتْ مُوَافِقَةً لِمَا اقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ، أَمْ جَاءَتْ ابْتِدَاءً لَمْ تُقْتَرَحْ. وَنَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ حَقِيقَةً هِيَ الَّتِي جَاءَتْ ابْتِدَاءً. أَمَّا مَا جَاءَتْ جَوَابًا لاقْتِرَاحٍ فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ - كَمَا قَالَ الشَّيْخُ - كَالِإِيمَانِ بِالشَّهَادَةِ، وَلَيْسَتْ كَالِإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.



القاعدةُ الحاديةُ والخمسونُ:

كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ، وَالنَّهْيُ عَنِ دُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ،
وَالثَّنَاءُ عَلَى الدَّاعِينَ، تَنَاوَلَ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءُ الْعِبَادَةِ

وهذه قاعدة نافعة؛ فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة
دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ فَقَطْ، وَلَا يَظُنُّونَ دُخُولَ جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ فِي الدُّعَاءِ، وَيَدُلُّ عَلَى عُمُومِ
ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أي: أَسْتَجِبْ
طَلْبَكُمْ، وَأَتَقَبَّلُ عَمَلَكُمْ،...

التعليق

أَفَادَنَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّ الدُّعَاءَ سَوَاءٌ كَانَ أَمْرًا، أَوْ نَهْيًا، أَوْ ثَنَاءً،
يَشْمَلُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ، وَدُعَاءَ الْعِبَادَةِ؛ فَقَوْلُكَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ. وَصَلَاتُكَ
لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ؛ دُعَاءُ عِبَادَةٍ.

وَكَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ الدُّعَاءَ إِنَّمَا هُوَ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ،
وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءِ الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ الْعَابِدَ حَقِيقَةً
أَمْرُهُ وَحَالُهُ أَنَّهُ يَدْعُو اللَّهَ، لَكِنْ بِلِسَانِ الْحَالِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ أَيَّ إِنْسَانٍ يُصَلِّي،
أَوْ يَصُومُ، أَوْ يُزَكِّي، أَوْ يُحْجُّ، مَاذَا تُرِيدُ؟ لَقَالَ: أُرِيدُ مَغْفِرَةَ اللَّهِ.
إِذَا: هُوَ قَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِحَالِهِ، وَهَذَا وَجْهُ كَوْنِ الْعِبَادَةِ دُعَاءً.

... ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فَسَمَّى ذَلِكَ عِبَادَةً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الدَّاعِيَ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ يَطْلُبُ مَسْئُولَهُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ، وَالْعَابِدُ يَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ الْقَبُولَ، وَالثَّوَابَ، وَمَغْفِرَةَ ذُنُوبِهِ، بِلِسَانِ الْحَالِ، فَلَوْ سَأَلْتُهُ: مَا قَصْدُكَ بِصَلَاتِكَ، وَصِيَامِكَ، وَحَجَّكَ، وَقِيَامِكَ بِحَقِّ اللَّهِ، وَحَقِّ الْخَلْقِ؟ لَكَانَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ نَاطِقًا: بِأَنَّ قَصْدِي مِنْ ذَلِكَ رِضَى رَبِّي، وَنَيْلُ ثَوَابِهِ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ شَرْطًا لِصِحَّةِ الْأَعْمَالِ وَكَمَالِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] أَيُّ: أَخْلِصُوا لَهُ إِذَا طَلَبْتُمْ حَوَائِجَكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ أَعْمَالَ الْبِرِّ وَالطَّاعَةِ.

وَقَدْ يُقَيَّدُ أَحْيَانًا بِدُعَاءِ الطَّلَبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ؛ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢] فَيَدْخُلُ فِيهِ دُعَاءُ الطَّلَبِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ مُلِحًّا بِلِسَانِهِ، سَائِلًا دَفَعَ ضُرَّ وَرَثَتِهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ قَلْبَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ رَاجِيًا طَامِعًا، مُنْقَطِعًا عَنْ غَيْرِ اللَّهِ، عَالِمًا أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الشُّوْءَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا دُعَاءُ عِبَادَةٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يَدْخُلُ فِيهِ الْأَمْرَانِ؛ فَكَمَا أَنَّ مِنْ كِمَالِ دُعَاءِ الطَّلَبِ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ، وَالِإِلْحَاحِ، وَإِظْهَارِ الْفَقْرِ، وَالْمَسْكِنَةِ، وَإِخْفَاءَهُ ذَلِكَ، وَإِخْلَاصَهُ - فَكَذَلِكَ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ، لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ وَتَكْمُلُ إِلَّا بِالْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهَا، وَمُقَارَنَتِهِ الْخُشُوعَ وَالْخُضُوعَ، وَإِخْفَائِهَا، وَإِخْلَاصِهَا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَنْ خُلَاصَةِ الرُّسُلِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَعَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فَإِنَّ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ وَضَفُّ لَهُمْ إِذَا طَلَبُوا وَسَلَّلُوا،

وَوَصَفُ لَهُمْ إِذَا تَعَبَّدُوا وَتَقَرَّبُوا بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ وَالْقُرْبِ.

وقوله: ﴿فَلَا نَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] يَشْمَلُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ ودُعَاءَ الْعِبَادَةِ. فَكَمَا أَنَّ مَنْ طَلَبَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ حَاجَةً لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ، فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، فَكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ...

التعاليق

مَنْ طَلَبَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ حَاجَةً يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْمَطْلُوبُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِشْرِكٍ. فَلَوْ قُلْتَ لِرَجُلٍ: أَعِنِّي عَلَى حَمْلِ مَتَاعِي عَلَى سَيَّارَتِي، لَمْ يَكُنْ هَذَا شَرِكًا. لَكِنْ لَوْ قُلْتَ لِرَجُلٍ: ارْزُقْنِي وَلَدًا ذَكَرًا، صَارَ ذَلِكَ شَرِكًا. وَوَجْهُهُ وَاضِحٌ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ غَيْرَ اللَّهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، فَهُوَ سِثْلُ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ، وَالِدُعَاءُ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَا: مَنْ طَلَبَ مِنْ مَخْلُوقٍ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ كَمَا أَنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَمَنْ طَلَبَ مِنْ مَخْلُوقٍ أَمْرًا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَهُوَ غَيْرُ مُشْرِكٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ الْجَائِزِ، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الْكَمَالِ، فَالْكَمَالُ أَنْ لَا تَسْأَلَ مَخْلُوقًا شَيْئًا. وَكَانَ مِنَ جُمْلَةِ مَا بَايَعَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يَسْقُطُ عَصَاهُ مِنْ بَعِيرِهِ، فَيَنْزِلُ هُوَ بِنَفْسِهِ وَيَأْخُذُ الْعَصَا، وَيَرْكَبُ^(١).

وَأَمَّا الْجَهْلُ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ جَاهِلًا جَهْلًا لَا تَفْرِيطَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَعْدُورٌ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّفْرِيطُ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَهُ الْعِلْمُ وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَبْلُغُهُ عِلْمٌ عَنْ هَذَا الشَّيْءِ الْمَحْرَمِ، فَيَكُونُ مِنْ جِنْسِ النَّعَامَةِ، تَدُسُّ رَأْسَهَا فِي الرَّمْلِ؛ لِأَجْلِ أَلَّا يَرَاهَا الصَّيَّادُ! يُقَالُ لَهُ: يَا أَخِي، اسْأَلِ الْعُلَمَاءَ فَهَذَا حَرَامٌ. فَيَقُولُ: لَا، مَا أَنَا بِسَائِلٍ، أَخْشَى أَنْ أَسْأَلَ، فَيُقَالُ: هَذَا حَرَامٌ! ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾.

وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةً^(١)، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي كَلَامِ الثَّانِي فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ فِي أَصُولِ الدِّينِ^(٢)، وَلَكِنْ كَلَامُهُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ؛ أَنَّهُ يُعْذَرُ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُفَرِّطًا فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ، فَلَا يُعْذَرُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.



... وَمِثْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] كُلُّ هَذَا يَدْخُلُ فِيهِ الْأَمْرَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] يَشْمَلُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءَ الْعِبَادَةِ. أَمَّا دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ: فَإِنَّهُ يَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ بِاسْمِ يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْمَطْلُوبَ وَيُقْتَضِيهِ، فَمَنْ سَأَلَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَمَغْفِرَتَهُ دَعَاهُ بِاسْمِ الرَّحِيمِ الْعَفُورِ، وَحُصُولَ الرِّزْقِ بِاسْمِ الرَّزَّاقِ، وَهَكَذَا.

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص: ٧٠).

(٢) كشف الشبهات (ص: ١١).

التعاليق

إِذَنْ: مَعْنَى ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أَي: اجْعَلُوهَا وَسِيلَةً لِحُصُولِ مَطْلُوبٍ، وَوَسِيلَةَ الشَّيْءِ تُنَاسِبُهُ، فَعِنْدَمَا تَسْأَلُ الْمَغْفِرَةَ تَأْتِي بِاسْمِ الْغُفُورِ، فَتَقُولُ: يَا غُفُورُ، أَوْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ. وَعِنْدَمَا تَسْأَلُ الرِّزْقَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا رَزَّاقُ ارْزُقْنِي، أَوْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، فَإِنَّكَ الرِّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ، وَهَكَذَا. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَقُولَ -مَثَلًا-: اللَّهُمَّ يَا شَدِيدَ الْعِقَابِ اغْفِرْ لِي؛ لِأَنَّ هَذَا غَيْرُ مُنَاسِبٍ. كَيْفَ تَسْأَلُ الْمَغْفِرَةَ بِاسْمِ الْعُقُوبَةِ؟! هَذَا يَتَنَاقَى مَعَ الْأَدَبِ.



وَأَمَّا دُعَاءُ الْعِبَادَةِ: فَهُوَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، فَيَفْهَمُ أَوَّلًا مَعْنَى ذَلِكَ الْأَسْمِ الْكَرِيمِ، ثُمَّ يُدِيمُ اسْتِحْضَارَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ مِنْهُ؛ فَلِأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعَظَمَةِ، وَالْجَلَالِ، وَالْكِبَرِيَاءِ تَمَلُّأُ الْقَلْبَ تَعْظِيمًا وَاجْتِلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَالْفَضْلِ، وَالْإِحْسَانِ تَمَلُّأُ الْقَلْبَ طَمَعًا فِي فَضْلِ اللَّهِ، وَرَجَاءَ لِرَوْحِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الْوِدَادِ وَالْحُبِّ وَالْكَمَالِ تَمَلُّأُ الْقَلْبَ مَحَبَّةً وَوِدَادًا وَتَأَلُّهَا وَإِنَابَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ وَلَطِيفِ خَبْرِهِ تُوجِبُ لِلْعَبْدِ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْحَيَاءَ مِنْهُ.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب ويتصبع به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب دواعيه مُنْقَادَةً رَاغِبَةً، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية. فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته، ومحَبَّته، والإنابة إليه؛ فَإِنَّهُ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الدُّعَاءَ الْمَوْجُودَ فِي الْقُرْآنِ يَشْمَلُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءَ الْعِبَادَةِ، مَا لَمْ يُقَيَّدْ بِدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ فَيَكُونُ لِلْمَسْأَلَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ ١٠ فَفَتَحْنَا أَتَوَبَ السَّمَاءُ ﴿ [القمر: ١٠-١١] الْمُرَادُ بِهِ دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ أَنَّهُ يَشْمَلُ هَذَا وَهَذَا.

وَقَدْ بَيَّنَّ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَيْفِيَّةَ دُعَاءِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَأَنَّهُ يَدْعُوهُ بِهَا فِي دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ وَفِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ، وَكِلَاهُمَا لَا بُدَّ مِنْهُ، مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَدَعَا غَيْرَهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ.



القاعدةُ الثانيةُ والخمسونُ:

إِذَا وَضَحَ الْحَقُّ وَبَانَ لَمْ يَبْقَ لِلْمُعَارَضَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مَحَلٌّ

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن، وأرشد إليها في مواضع كثيرة؛ وذلك أنه من المعلوم أن محل المعارضة، وموضع الاستشكالات، وموضع التوقفات، ووقت المساورات، إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات، فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح، فأما إذا كان الشيء لا يتحمل إلا معنى واضحاً، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارض هنا لا يلتفت لا اعتراضاته؛ لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] يعني: وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل؛ لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية. فأما أمر قد اتضح أن مصالح الدارين مربوطة به، ومتعلقة به، فأى داع للإكراه، وأى موجب له؟!

التعليق

إذن: فقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ خبر على بابه، وليس نهياً. ليس المعنى: لا تُكْرَهُوا على الدين، بل المعنى: أنه لا محل للإكراه في الدين؛ لأنه قد تبين الرشد من الغي. وإذا تبين، فإن الإنسان لا يُكره؛ لأن كل عاقل تبين له الرشد من الغي فإنه سيتبع الرشد، فلا يُكره عليه. هذا هو المعنى الذي يتبادر من الآية الكريمة،

كَمَا شَرَحَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا إِكْرَاهَ﴾ أَيُّ: لَا تُكْرِهُوا أَحَدًا عَلَى الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ؛ فَإِمَّا أَنْ يَدِينَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَإِمَّا أَنْ يَدِينَ لِلطَّاغُوتِ وَيُؤَدِّيَ الْحِزْبَةَ.

لَكِنَّ الْآيَةَ كَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ، لَا يُحْمَلُ الْحَبْرُ عَلَى النَّهْيِ إِلَّا بِدَلِيلٍ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَبْقَى الْكَلَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ؛ النَّهْيُ لِلنَّفْيِ، وَالنَّهْيُ لِلنَّهْيِ. فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ وَاضِحًا، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَرَّفَ الْكَلَامُ عَنْ ظَاهِرِهِ. وَلَيْسَ الْمَعْنَيَانِ مُتَلَازِمَيْنِ، إِذَا قُلْنَا: إِنَّهَا لِلنَّهْيِ صَارَ مَعْنَاهَا: أَنَّا لَا نُكْرِهُ أَحَدًا عَلَى الدِّينِ، مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ. أَمَّا إِذَا كَانَتْ خَبْرًا، فَإِنَّهُ مَسْكُوتٌ عَنِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ، وَيُعْرَفُ مِنْ أُدْلَةٍ أُخْرَى.



وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أَيُّ: هَذَا الْحَقُّ الَّذِي قَامَتِ الْبَرَاهِينُ الْوَاضِحَةُ عَلَى حَقَّقِيَّتِهِ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أَيُّ: فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى مُشَاوَرَةٍ وَيُطْلَبُ فِيهَا وَجْهُ الْمَصْلَحَةِ، فَأَمَّا أَمْرٌ قَدْ تَعَيَّنَتْ مَصْلَحَتُهُ، وَظَهَرَ وَجُوبُهُ فَقَالَ فِيهِ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ هَذَا الْمَعْنَى غَايَةَ الْكَشْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ [الأنفال: ٦] أَيُّ: فَكُلُّ مَنْ جَادَلَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ عِلْمُهُ أَوْ طَرِيقُ عَمَلِهِ، فَإِنَّهُ غَالِطٌ شَرْعًا وَعَقْلًا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩] فلامَهُمْ عَلَى عَدَمِ التَّزَامِ الْأَكْلِ بِمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَذَكَرَ السَّبَبَ لِهَذَا اللَّوْمِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى فَصَّلَ لِعِبَادِهِ كُلِّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، فَمَا لَمْ يَذْكُرْ تَحْرِيمَهُ فَإِنَّهُ حَلَالٌ وَاضِحٌ، لَيْسَ لِلتَّوَقُّفِ عَنْهُ مَحَلٌّ.

التعليق

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا سَكَتَ عَنْهُ لَيْسَ حَرَامًا، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَحَرَّمَاتِ مُفَصَّلَاتٌ مُبَيَّنَاتٌ. فَإِذَا كَانَ مُبَيَّنًا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَكُونُ حَلَالًا، وَعَلَى هَذَا فنَقُولُ: الْأَصْلُ فِيمَا سَكَتَ عَنْهُ الْحِلُّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»^(١).



وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى وَجُوبِ الْإِيمَانِ وَبَيَّحَ وَلَا مَ الْمُتَوَقِّفِينَ عَنْهُ بَعْدَ الْبَيَانِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ [الأنشقاق: ٢٠-٢١] وَلَمَّا بَيَّنَّ جَلَالََةَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ أَعْلَى الْكَلَامِ وَأَصْدَقُهُ وَأَنْفَعُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتُهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجنات: ٦] وَلَمَّا ذَكَرَ عَظِيمَ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ نَسَمَائِي﴾ [النجم: ٥٥] ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]؛ وَكَذَلِكَ فِي آيَاتِ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، رقم (٣٨٠٠)، والحاكم (٤/١٢٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

كَثِيرَةٌ يَأْمُرُ بِمُجَادَلَةِ الْمُكَذِّبِينَ، وَيُجَادِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ مَعَهُمْ إِلَى حَالَةٍ وَضُوحِ الْحَقِّ التَّامِّ، وَإِزَالَةِ الشُّبْهِ كُلِّهَا، انْتَقَلَ مِنْ مُجَادَلَتِهِمْ إِلَى الْوَعِيدِ لَهُمْ بِعُقُوبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى الْجَلِيلِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

التعليق

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَدُورُ عَلَى أَنَّهُ مَتَى اتَّضَحَ الشَّيْءُ - سَوَاءً كَانَ حُكْمًا عَمَلِيًّا، أَوْ كَانَ خَبْرًا عِلْمِيًّا - فَإِنَّهُ لَا وَجْهَ لِلْمُجَادَلَةِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ وَاضِحٌ. وَإِنَّمَا يُجَادَلُ، وَيُثَبَّتُ، وَيُسَأَّلُ عَنِ الْأَمْرِ الْمُسْكِلِ الَّذِي يَخْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ. فَأَمَّا مَا كَانَ بَيِّنًا وَاضِحًا فَإِنَّهُ لَا تَجُوزُ الْمُجَادَلَةُ فِيهِ، وَيُنْكَرُ عَلَى مَنْ جَادَلَ وَيُذَمُّ؛ كَمَا فِي الْآيَاتِ الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَعَلَيْهِ: فَكُلُّ مَنْ جَادَلَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَقَدْ جَادَلَ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لِأَنَّ الدِّينَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ، قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرَّشْدَ مِنَ الْغَيِّ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ، فَلَا يُمَكِّنُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقَعَ جِدَالٌ أَوْ إِشْكَالٌ.



القاعدة الثالثة والخمسون:

مِنْ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ:

أَنَّهُ يُبَيَّنُّ أَنَّ الْأَجْرَ وَالْثَوَابَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ فِي طَرِيقِ الْعِبَادَةِ
وَيُبَيِّنُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ تَسْهِيلَهُ لَطَرِيقِ الْعِبَادَةِ مِنْ مَنَنِهِ وَإِحْسَانِهِ
وَأَنَّهَا لَا تَنْقُصُ الْأَجْرَ شَيْئًا

وهذه القاعدة تُبَيِّنُ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ، وَإِحْسَانِهِ بِالْعِبَادِ، وَحِكْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ؛ مَا هُوَ أَثَرٌ عَظِيمٌ مِنْ آثَارِ تَعْرِيفَاتِهِ، وَنَفْحَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ نَفَحَاتِهِ، وَأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ الْعَظِيمَةَ لِعَظَمِ مَصْلَحَتِهَا، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهَا الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، أَنَّهُ فَرَضَهَا عَلَى الْعِبَادِ وَإِنْ شَقَّتْ عَلَيْهِمْ، وَكَرِهَتْهَا أَنْفُسُهُمْ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْأَخْطَارِ، وَتَلَفِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَشَقَّاتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، بَلْ هِيَ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَإِحْسَانٌ صَرَفٌ مِنْ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ قَيَّضَ لَهُمْ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُوَصِّلُهُمْ إِلَى مَنَازِلَ لَوْلَاهَا لَمْ يَكُونُوا وَاصِلِيهَا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ

مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرِ ﴿١٠٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فَكُلَّمَا عَظُمَتْ مَشَقَّةُ الصَّابِرِ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَفِي تَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ - لِقُوَّةِ الدَّاعِي إِلَيْهَا - وَفِي الصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَاتِ، كَانَ الْأَجْرُ أَعْظَمَ، وَالثَّوَابُ أَكْثَرَ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ لُطْفِهِ فِي تَسْهِيلِ الْعِبَادَةِ الشَّاقَّةِ: ﴿إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢] فَذَكَرَ مِتُّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَيْسِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُسَهِّلَةً لِلْعِبَادَةِ، مُزِيلَةً لِمَشَقَّتِهَا، مُحْصِلَةً لِمَعْرَاتِهَا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا إِنَّا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] فَالْبُشْرَى الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَشْرَفِهَا وَأَجْلَلِهَا أَنَّهُ يُيسِّرُ لَهُمُ الْعِبَادَاتِ، وَيُهَيِّئُ عَلَيْهِمُ مَشَقَّةَ الْقُرْبَاتِ، وَأَنَّهُ يُيسِّرُهُمُ لِلْخَيْرِ، وَيَعْصِمُهُمُ مِنَ الشَّرِّ بِأَيْسَرِ عَمَلٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنَيسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧] أَيْ: لِكُلِّ حَالَةٍ فِيهَا تَيْسِيرُ أُمُورِهِ وَتَسْهِيلُهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وَمِنَ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يُرْزَقُونَهَا: ذَوْقُ حَلَاوَةِ الطَّاعَاتِ، وَاسْتِحْلَاءُ الْمَشَقَّاتِ فِي رِضَى اللَّهِ تَعَالَى.

فهذه الأحوال كلها خيرٌ للمؤمن، إن سهلَ الله له طريقَ العبادة وهونها حمدَ الله وشكره، وإن شقت على النفوس صبرٌ واحتسابٌ خيرٌ في عنائه ومشقته، ورجاءٌ عظيمُ الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آياتٍ متعددة. والله أعلم.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الأجر على قدر المشقة، وقد دلَّ عليها قوله ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّ أَجْرَكَ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكَ»^(١) نَصَبِكَ أَي: مَشَقَّتِكَ.

وفيها أيضًا: بيانُ المِنَّةِ عَلَى الْعِبَادِ بِتَسْهِيلِ الطَّاعَاتِ، وَأَنَّ تَسْهِيلَ الطَّاعَاتِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ. وَعَجَبًا لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْ يَسْلُكُوا بِأَنْفُسِهِمْ مَسْلَكَ الصُّعُوبَةِ وَالتَّعْسِيرِ فِي أُمُورِ الْعِبَادَةِ، وَهَذَا تَبَرُّأٌ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِنَّ قَوْمًا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ اجْتَمَعُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَصُومَ أَحَدُهُمْ وَلَا يُفْطِرَ، وَالْآخَرُ يَقُومُ وَلَا يَنَامُ، وَالثَّالِثُ لَا يَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَالرَّابِعُ لَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ؛ فَخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ يَصُومُ وَيُفْطِرُ، وَيَقُومُ وَيَنَامُ، وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَأَنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِ فَلَيْسَ مِنْهُ^(٢).

فَالَّذِينَ يَسْلُكُونَ طُرُقَ التَّعْسِيرِ مَعَ وُجُودِ التَّسْهِيلِ أَخْطَؤُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَزْكَبَ سَيَّارَةً فِيهَا مُكَيِّفٌ! بَلْ أَزْكَبُ سَيَّارَةً مَعِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مُكَيِّفٌ وَلَا مَظْلَةٌ، وَأَذْهَبُ إِلَى الْحَجِّ عَلَيْهَا! هَذَا خَطَأٌ، أَنْ يَذْهَبَ وَيُتْعَبَ نَفْسُهُ، وَيَتْرُكَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب أجر العمرة على قدر النصب، رقم (١٧٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَعَمْ، إِذَا كَانَتْ الْعِبَادَةُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُؤَدَّى إِلَّا بِمَشَقَّةٍ، هَذَا شَيْءٌ آخَرُ، هَذَا مِنْ اللَّهِ وَلَيْسَ بِإِرَادَتِكَ. أَمَّا أَنْ يَكُونَ أَمَامَكَ طَرِيقَانِ: سَهْلٌ وَصَعْبٌ، فَتَذَهَبُ إِلَى الصَّعْبِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، يَقُولُ الْعَامَّةُ أَوَّلَ مَا ظَهَرَتِ السَّيَّاراتُ: إِنَّ الْحَجَّ عَلَى الْإِبِلِ أَجْرُهُ كَامِلٌ، وَعَلَى السَّيَّاراتِ نِصْفُ الْأَجْرِ، وَعَلَى الطَّيَّاراتِ رُبْعُ الْأَجْرِ! وَيُمْكِنُ يَجِيءُ شَيْءٌ أَسْهَلُ مِنَ الطَّيَّاراتِ يَكُونُ عَلَى الثُّمَنِ؟! هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ.

صَحِيحٌ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَهَى عَنْ كَثْرَةِ الْإِرْفَاهِ، يَعْنِي: لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَنْغَمِسَ فِي التَّرَفِّهِ حَتَّى يَنْسَى الْحُشُونَةَ، فَكَانَ يَنْهَى عَنْ كَثْرَةِ الْإِرْفَاهِ، وَيَأْمُرُ بِالْاِحْتِفَاءِ أحياناً^(١) وَلَيْسَ دَائِماً. يَعْنِي: يَنْبَغِي لَنَا أحياناً أَنْ نَمْشِيَ حُفَاءً، حَتَّى لَوْ أَنَّ النَّاسَ شَهَرُوا بِنَا وَانْتَقَدُوا هَذَا الشَّيْءَ.

فَنَحْنُ مَا دَامَ اللَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْنَا، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْلُكَ بِأَنْفُسِنَا التَّيْسِيرَ. فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعُسْرِ فِي أَدَاءِ الْعِبَادَةِ فَإِنَّ الْأَجْرَ عَلَى حَسْبِهِ. لَوْ ذَهَبَتْ مَثَلًا إِلَى صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ، وَصَارَ عَلَيْكَ مَشَقَّةٌ، نَقُولُ: لَا بَأْسَ بِهَذَا، هَذَا لَكَ فِيهِ أَجْرٌ، وَمِنْ الرِّبَاطِ الَّذِي يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، وَيَمْحُو بِهِ الْخَطَايَا، إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ. وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فَلَكَ فِيهِ أَجْرٌ، وَلَوْ دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَنْ تُسَخِّنَ الْمَاءَ، وَأَنْ تَتَوَضَّأَ بِهِ بَارِدًا، فَالتَّسْخِينُ أَوْلَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يُكْرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ الْإِنْسَانُ بِمَا اشْتَدَّ حَرُّهُ أَوْ بَرْدُهُ، وَعَلَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَمْنَعُ كَمَالَ الطَّهَارَةِ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الرجل، رقم (٤١٦٠)، والنسائي: كتاب الزينة، باب الرجل، رقم (٥٢٣٩)، من حديث عبد الله بن بريدة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم.

القاعدة الرابعة والخمسون:

كثيراً ما ينفي الله الشيءَ لِإِنْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ وَثَمَرَتِهِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ
وَإِنْ كَانَتْ صُورَتُهُ مُوجُودَةً

وذلك أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَ فِيهِ الْقُوَى مِنَ السَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْفُؤَادِ،
وغيرها؛ لِيَعْرِفَ رَبَّهُ، وَيَقُومَ بِحَقِّهِ، فَهَذَا الْمَقْصُودُ مِنْهَا. وَبُجُودُ مَا خُلِقَتْ لَهُ
تَكْمُلُ وَيَكْمُلُ صَاحِبُهَا، وَبِفَقْدِ ذَلِكَ يَكُونُ وُجُودُهَا أَضَرَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ فَقْدِهَا،
فَإِنَّهَا حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَنِعْمَتُهُ الَّتِي تُوجَدُ بِهَا مَصَالِحُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، فِيمَا أَنْ
تَكُونَ نِعْمَةً تَامَةً إِذَا اقْتَرَنَ بِهَا مَقْصُودُهَا، أَوْ تَكُونَ مُحِنَّةً وَحُجَّةً عَلَى صَاحِبِهَا إِذَا
اسْتَعْمَلَهَا فِي غَيْرِ مَا خُلِقَتْ لَهُ؛ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَنْفِي اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ
مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَىٰ فُهُمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]
﴿وَأَكْذَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾
[الأعراف: ١٧٩] فَأَخْبَرَ أَنَّ صُورَهَا مُوجُودَةٌ، وَلَكِنْ فَوَائِدُهَا مَفْقُودَةٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾
[الحج: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدِيرِينَ﴾
[النمل: ٨٠] وَالآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ

اللَّهُ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء: ١٥٠-١٥١]﴾ فَأَثْبَتَ لَهُمُ الْكُفْرَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَلَمْ يَكُنْ دَعْوَاهُمْ الْإِيمَانَ بِبَعْضٍ مَا يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ بِمُوجِبِ لَهُمُ الدُّخُولَ بِالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ بِهِمْ مَفْقُودَةٌ فَإِثْبَاتُهُ؛ حَيْثُ كَذَّبُوهُمْ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ، وَحَيْثُ إِثْبَتَهُمْ أَنْكَرُوا مِنْ بَرَاهِينِ الْإِيمَانِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي أَثْبَتُوا بِهِ رِسَالَةَ مَنْ أَدْعَاوُ الْإِيمَانِ بِهِ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] لَمَّا كَانَ الْإِيمَانُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَتَّفِقُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ، وَهُوَ الْمُثْمِرُ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَقُولُونَ بِالْإِسْتِثْنَاءِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ -نَفَى عَنْهُمْ الْإِيمَانَ لَا نِثْيَاءَ فَإِثْبَاتِهِ وَثَمَرَتِهِ، وَيُشَبِّهُ هَذَا تَرْتِيبَ الْبَارِي كَثِيرًا مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْفُرُوضِ عَلَى الْإِيمَانِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] وَذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ الْوَاجِبَ يَقْتَضِي أَدَاءَ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَيَقْتَضِي اجْتِنَابَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَمَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ فَهُوَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَتِمَّ وَلَمْ يَتَحَقَّقْ، فَإِذَا وَجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ تَحَقَّقَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وَكَذَلِكَ لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِهِ، وَالْإِنْقِيَادَ لِكُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ؛ قَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنْحَرِفِينَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿أَلَنَخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] فَكَمَا أَنَّ فَقْدَ الْعِلْمِ جَهْلٌ، فَفَقْدُ الْعَمَلِ بِهِ جَهْلٌ قَبِيحٌ.

التعليق

خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَنْفِي الشَّيْءَ لَانْتِفَاءِ ثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ، وَهَذَا وَاقِعٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَهُمْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ، وَعِنْدَهُمْ عَقْلٌ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ صَارَ وُجُودُهُ كَعَدَمِهِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ»^(١) مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ تُوجَدُ، وَلَوْ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، لَكِنَّهُ نَفَاها لَانْتِفَاءِ فَائِدَتِهَا وَثَمَرَتِهَا؛ لِأَنَّ مَنْ يُدَافِعُ الْأَخْبَثَيْنِ أَوْ يَحْضُرُهُ طَعَامٌ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يُصَلِّي وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِهَذَا الشَّيْءِ، مُنْشَغِلٌ بِمُدَافَعَتِهِ، وَتَكُونُ صَلَاتُهُ كَأَنَّهَا لَا صَلَاةَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام، رقم (٥٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إِذَا: مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ نَأْخُذُ مَضْمُونَهَا: إِنَّ الشَّيْءَ قَدْ يُنْفَى لانتفاء حقيقته، وهذا هو الأصل، وقد يُنْفَى لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا كثير وإن كان خلاف الأصل، لكن ما لا يُنتفع به فوجوده كالعدم، بل إن وجوده أضر، فإن من لا يسمع إطلاقاً خيراً ممن يسمع ولا ينتفع، بلا شك.

فَإِذَا قَالَ لَكَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَقُولُ اللَّهُ لَهُؤُلَاءِ الْأَذْكَيَاءِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وما أشبه ذلك؟

نَقُولُ: لَا يَنْتَفِعُوا بِهَذَا الْعَقْلِ، فَصَارَ مَوْجُودًا كَأَنَّهُ مَعْدُومٌ.



القاعدة الخامسة والخمسون:

يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ عَمَلُهُ الَّذِي بَأْشَرَهُ وَيُكَمَّلُ لَهُ مَا شَرَعَ فِيهِ
وَعَجَزَ عَنْ تَكْمِيلِهِ وَيُكْتَبُ لَهُ مَا نَشَأَ عَنْ عَمَلِهِ

التفصيل

ثلاثة أمور:

الأول: يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ عَمَلُهُ الَّذِي بَأْشَرَهُ، وَهَذَا وَاضِحٌ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والثاني: يُكَمَّلُ لَهُ مَا شَرَعَ فِيهِ وَلَمْ يُكَمِّلْهُ: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

والثالث: يُكْتَبُ لَهُ مَا نَشَأَ عَنْ عَمَلِهِ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

وَيُكْتَبُ لَهُ مَا تَرَكَهُ لِعُذْرٍ وَكَانَ يَعْمَلُهُ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الرَّابِعُ، مِثْلُ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم

فهذه أَرْبَعَةُ أُمُورٍ كُلُّهَا تُكْتَبُ لِلإِنْسَانِ. أَمَّا مَجْرَدُ النِّيَّةِ فَإِنَّهَا تُكْتَبُ لِلإِنْسَانِ إِذَا تَمَّى الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ النِّيَّةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ قَسَمَ النَّاسَ إِلَى أَقْسَامٍ مِنْهُمْ: مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَيَنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَقَالَ الْآخَرُ الَّذِي لَمْ يُؤْتَ الْمَالَ: لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِفُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا عَمِلَ فُلَانٌ. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَهُوَ بَيْنَتِهِ، فَهِيَ بِالْأَجْرِ سَوَاءٌ»^(١) سَوَاءٌ بِالنِّيَّةِ لَا بِالْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ، وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْمَلَهُ، فَلَوْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْمَلَهُ لَكُتِبَ لَهُ مَا تَرَكَهُ مِنْهُ لِعُذْرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ فِي الْمَدِينَةِ لَأَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا أَوْ قَطَعْتُمْ وَاِدِيًا إِلَّا هُمْ مَعَكُمْ»؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ؟! قَالَ: «وَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»^(٢). فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يُشَارِكُونَ فِي أَجْرِ الْعَمَلِ، أَوْ ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ مُشَارِكُونَ فِي أَجْرِ الْعَمَلِ.

فَالْجَوَابُ: أَنْ يُحْمَلَ هَذَا عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمُ الْخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكِنْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ؛ فَهَؤُلَاءِ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ كَامِلًا. أَوْ يُقَالُ: «مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ» يَعْنِي: بَيْنَتِهِمْ، فَيَكُونُ لَهُمْ أَجْرُ النِّيَّةِ، لَا أَجْرُ الْعَمَلِ،

= (٢٩٩٦)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنباري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٤٢٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم (١٩١١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصَارَتِ الْأَقْسَامُ خَمْسَةً:

- ١- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا كُتِبَ لَهُ أَجْرٌ.
- ٢- وَمَنْ شَرَعَ فِيهِ وَلَمْ يُكْمَلْهُ كُتِبَ لَهُ أَجْرٌ.
- ٣- وَمَا نَشَأَ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى بَالِهِ حِينَ الْفِعْلِ، كُتِبَ لَهُ أَجْرٌ.
- ٤- وَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ وَتَرَكَهُ لِعُذْرٍ، يُكْتَبُ لَهُ أَجْرٌ.
- ٥- وَمَا تَمَتَّاهُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ كُتِبَ لَهُ بِهِ أَجْرٌ، وَلَكِنْ أَجْرُ النِّيَّةِ فَقَطْ لَا أَجْرُ الْعَمَلِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَجْرُ النِّيَّةِ فَقَطْ، أَنَّ الْفُقَرَاءَ لَمَّا جَاؤُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَشْكُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَبَقَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ^(١) وَالدرَجَاتِ الْعُلَى، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيُصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ يُسَبِّحُوا وَيُحَمِّدُوا وَيُكَبِّرُوا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، ذُبِرَ كُلُّ صَلَاةٍ، وَأَتَتْهُمْ بِذَلِكَ يُذَرِّكُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعَ الْأَغْنِيَاءُ بِذَلِكَ عَمِلُوا مِثْلَهُ، فَجَاءَ الْفُقَرَاءُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعَ إِخْوَانُنَا الْأَغْنِيَاءُ بِمَا صَنَعْنَا، وَعَمِلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤] وَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ: لَكُمْ أَجْرُهُمْ بِنِيَّتِكُمْ. فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ؛ لِأَنَّ مَنْ تَمَّتِ الْعَمَلُ، وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ فِعْلُهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُهُ بِالنِّيَّةِ.

(١) أخرج البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٣). ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَّا حَدِيثُ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ»^(١) فَيَدُلُّ عَلَى نَقْصِ دِينِهَا، وَلَكِنَّهُ نَقْصٌ لَا تُلَامُ عَلَيْهِ، وَيَكْفِيهَا أَجْرُ الْإِمْتِثَالِ؛ كَالْإِنْسَانِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ دِينُهُ؛ لِعَدَمِ الزَّكَاةِ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ الْأَجْرُ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ السَّبَبِ.

فَإِنْ قِيلَ: هِيَ كَانَتْ تَفْعَلُ الصَّلَاةَ وَالْعِبَادَاتِ؟ فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، لَكِنْ لَمَّا وَجَدَ الْمَانِعُ، طَغَى عَلَى السَّبَبِ، فَزَالَ أَثَرُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَيْسَ لَهَا أَجْرُ النِّيَّةِ وَلَا الْعَمَلِ، مَا لَهَا إِلَّا أَجْرُ الْإِمْتِثَالِ بِتَرْكِ الصَّلَاةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَرِيضِ الَّذِي كَانَ مِنْ عَادَتِهِ الْعَمَلُ، أَنَّ هَذِهِ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- لَمَّا مَنَعَهَا الشَّرْعُ وَهَاهَا عَنْ ذَلِكَ، صَارَتْ لَيْسَتْ مُحَلًّا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَالصَّوْمِ يَوْمَ الْعِيدِ، فَلَوْ صَامَهُ الْإِنْسَانُ لَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ تَمَنَّى أَنْ يَصُومَهُ لَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ نَوَى أَنَّهُ يَصُومُهُ -لَوْ لَا الْمَانِعُ- لَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ، هَذَا هُوَ الْفَرْقُ.



فهذه الأمور الثلاثة وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ:

أَمَّا الْأَعْمَالُ الَّتِي بَاشَرَهَا الْعَبْدُ: فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَيْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١] وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْأَعْمَالُ الَّتِي شَرَعَ الْعَبْدُ فِيهَا وَلَمَّا يُكْمَلْهَا، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات رقم (٧٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[النساء: ١٠٠] فَهَذَا خَرَجَ لِلْهِجْرَةِ وَأَذْرَكَهُ الْأَجَلَ قَبْلَ تَكْمِيلِ عَمَلِهِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ.

فَكُلُّ مَنْ شَرَعَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْحَيْرِ، ثُمَّ عَجَزَ عَنْ إِمْتَامِهِ بِمَوْتٍ، أَوْ عَجَزَ بِدَنِيٍّ، أَوْ عَجَزَ مَالِيٍّ، أَوْ مَانِعٍ دَاخِلِيٍّ أَوْ خَارِجِيٍّ، وَكَانَ مِنْ نِيَّتِهِ لَوْلَا الْمَانِعُ لِأَتَمَّهُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فَكُلُّ مَنْ اجْتَهَدَ فِي الْحَيْرِ هَدَاهُ اللَّهُ الطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ، سَوَاءً أَكْمَلَ ذَلِكَ الْعَمَلَ أَوْ حَصَلَ لَهُ عَائِقٌ عَنْهُ.

وَأَمَّا أَثَارُ أَعْمَالِ الْعَبْدِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أَيُّ: بَاشَرُوا عَمَلَهُ ﴿وَمَا أَثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] الَّتِي تَرْتَبَتْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ...

التعاليق

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١) فَلَا إِنْسَانَ يُكْتَبُ لَهُ أَثَارُ عَمَلِهِ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْهَا.

زَرَعَ رَجُلٌ زَرْعًا، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فَانْتَفَعَ بِهِ مَنْ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِهِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكُنْ بِيَالِهِ حِينَ غَرَسَ الْغَرْسَ أَوْ زَرَعَ الزَّرْعَ، لَكِنْ لِأَنَّهُ نَشَأَ عَنْ عَمَلِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

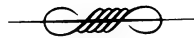
... وَقَالَ فِي الْمُجَاهِدِينَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] فِكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِمْ. ثُمَّ ذَكَرَ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَفْقُوتُ نَفَقَةً﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [التوبة: ١٢١].

وَالْأَعْمَالُ الَّتِي هِيَ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ نَوَعَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَقَعَ بغيرِ قَصْدٍ مِنَ الْإِنْسَانِ؛ كَأَنْ يَعْمَلَ أَعْمَالًا صَالِحَةً خَيْرِيَّةً، فَيَقْتَدِيَ بِهِ غَيْرُهُ فِي هَذَا الْخَيْرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ، وَكَمَنْ يَتَزَوَّجُ بغيرِ نِيَّةٍ حُصُولِ الْأَوْلَادِ الصَّالِحِينَ، فَيُعْطِيهِ اللَّهُ أَوْلَادًا صَالِحِينَ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِمْ وَبِدُعَائِهِمْ.

وَالثَّانِي - وَهُوَ أَشْرَفُ النَّوَاعِينِ -: أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ بِقَصْدِهِ، كَمَنْ عَلَّمَ عِلْمًا نَافِعًا، فَنَفَسُ تَعْلِيمِهِ وَمُبَاشَرَتِهِ لَهُ مِنْ أَجْلِ الْأَعْمَالِ، ثُمَّ مَا حَصَلَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ الْمُرْتَبِّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ، وَكَمَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لِيَقْتَدِيَ بِهِ النَّاسُ، أَوْ يَتَزَوَّجَ لِأَجْلِ حُصُولِ الذَّرِّيَّةِ الصَّالِحِينَ، فَيَحْصُلُ مُرَادُهُ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ يَزْرَعُ زَرْعًا، أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يُبَاشِرُ صِنَاعَةً مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَقَدْ قَصَدَ بِذَلِكَ حُصُولَ النَّفْعِ، فَمَا تَرْتَّبَ مِنْ نَفْعٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ، فَإِنَّهُ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ، وَإِنْ كَانَ يَأْخُذُ عَلَى عَمَلِهِ الْأَخِيرِ أَجْرًا وَعَوَضًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةً: صَانِعُهُ، وَرَامِيَهُ، وَالْمِدَّةَ لَهُ.



القاعدة السادسة والخمسون:

يُرْشِدُ الْقُرْآنُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قِيَامِ جَمِيعِ مَصَالِحِهِمْ
وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ حُصُولُهَا مِنَ الْجَمِيعِ فَلْيُسْتَغْلَبْ بِكُلِّ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِهِمْ
مَنْ يَقُومُ بِهَا وَيُؤَفِّرُ وَقْتَهُ عَلَيْهَا؛ لِتَقُومَ مَصَالِحُهُمْ،
وَتَكُونَ وَجْهَتُهُمْ جَمِيعًا وَاحِدَةً

وهذه من القواعد الجليّة، ومن السياسة الشرعيّة؛ فإن كثيراً من المصالح العامّة الكلّيّة لا يُمْكِنُ اشْتِغَالُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِهَا، وَلَا يُمْكِنُ تَقْوِيَتُهَا، فَالطَّرِيقُ إِلَى حُصُولِهَا: مَا أَرْشَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى فِي الْجِهَادِ -الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَصَالِحِ الدِّينِ- وَالْعِلْمِ: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فَأَمَرَ أَنْ يَقُومَ بِالْجِهَادِ طَائِفَةٌ كَافِيَةٌ، وَبِالْعِلْمِ طَائِفَةٌ أُخْرَى، وَأَنَّ الْقَائِمَةَ بِالْجِهَادِ تَسْتَدْرِكُ مَا فَاتَهَا مِنَ الْعِلْمِ إِذَا رَجَعَتْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرُوعَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْجَلِيلِ، وَالْقَاعِدَةِ النَّافِعَةِ.

وبِقِيَامِ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ بِمَصْلَحَةٍ مِنَ الْمَصَالِحِ تَقُومُ الْمَصَالِحُ كُلُّهَا؛ لِأَنَّ كُلَّ
فَرْدٍ مَأْمُورٌ أَنْ يُرَاعِيَ الْمَصَالِحَ الْكُلِّيَّةَ، وَيَكُونَ سَائِرًا فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ إِلَيْهَا، فَلَوْ وَفَّقَ
الْمُسْلِمُونَ لِسُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ لاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُمْ، وَصَلَحَتْ أُمُورُهُمْ، وَانْجَابَتْ
عَنْهُمْ شُرُورٌ كَثِيرَةٌ. فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

التعليق

وهكذا الأُمَّة الواحدة كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهَا تَقُومُ بِمَصْلَحَةٍ؛ لِأَنَّ قِيَامَ الْجَمِيعِ
بِوَظِيفَةٍ وَمَصْلَحَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَعَدِّرٌ؛ إِذْ لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ النَّاسَ اتَّجَهُوا جَمِيعًا لِمَصْلَحَةٍ
وَاحِدَةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَتَعَطَّلَتِ الْمَصَالِحُ الْأُخْرَى. وَتَرَكُّهُمْ لِلْمَصَالِحِ كُلِّيَّةٍ، أَيْضًا فَسَادٌ؛
وَلِذَلِكَ نَقُولُ: يُعْتَبَرُ الْمُؤْمِنُونَ -وإنْ كَانُوا أَفْرَادًا مُتَعَدِّدِينَ- كَأَنَّهُمْ جَسَدٌ وَاحِدٌ؛
فَالرَّجُلُ لِلْمَشْيِ، وَالْيَدُ لِلْبَطْشِ.

لَوْ أَنَّ أَحَدًا قَالَ: سَأَجْعَلُ الْيَدَيْنِ لِلْمَشْيِ، وَالرَّجْلَيْنِ لِلْبَطْشِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ!
طَبَعًا لَا يُمَكِّنُ، كَذَلِكَ الْأَصَابِعُ، كُلُّ أُصْبَعٍ لَهُ وَظِيفَةٌ خَاصَّةٌ يَقُومُ بِهَا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ
تَجْتَمِعَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا عَلَى وَظِيفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَخَلَّى عَنِ الْوِظَائِفِ، هَكَذَا
هُوَ الْجَسَدُ الْإِسْلَامِيُّ، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ، كُلُّ وَاحِدٍ يَسْعَى فِي مَصْلَحَةٍ
مُعَيَّنَةٍ تَلِيْقُ بِهِ.

فَمَثَلًا: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ الْجِسْمِ، الْقَوِيُّ الْفَهْمِ وَالذَّاكِرَةُ وَالْحِفْظُ، يَكُونُ طَلَبُ
الْعِلْمِ لَهُ أَفْضَلُ، وَالرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْجِسْمِ، لَكِنَّهُ بَطِيءُ الْفَهْمِ وَالْحِفْظِ، تَكَرَّرَ عَلَيْهِ
الْمَسْأَلَةُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً مَا يَحْفَظُهَا إِلَّا فِي خَمْسِينَ مَرَّةً، إِلَّا أَنَّهُ شَجَاعٌ مُقَدِّمٌ مُتَمَرِّسٌ فِي
الْجِهَادِ، فَهَذَا أَفْضَلُ لَهُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَالرَّجُلُ الْآخَرُ عِنْدَهُ حِكْمَةٌ فِي الصَّنَاعَةِ، أَوْ فِي الطَّبِّ، أَوْ فِي الزَّرَاعَةِ، نَقُولُ لَهُ: ائْتِجْ لِهَذَا؛ حَتَّى تَقُومَ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِمَقُومَاتِهَا، فَكُلُّ يَقُومُ بِمَا يُدْرِكُ وَيَتَقَنُّ وَيَخْتَصُّ بِهِ.

هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ صَحِيحٌ، وَقَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ أُدِلَّةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِيلًا شَرْعًا، أَوْ مُسْتَحِيلًا قَدَرًا وَكَوْنًا، وَأَقْلُ الْأَمْرَيْنِ أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ شَرْعًا؛ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَذْهَبُوا جَمِيعًا لِلْجِهَادِ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَبْقَى لِلْعِلْمِ، وَبَعْضُهُمْ يَذْهَبُ لِلْجِهَادِ﴾ فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴿وَزَعَّ الْجِهَادَ.

فَلَا نَقُولُ: تَخْرُجُ الْقَبِيلَةُ الْفُلَانِيَّةُ لِلْجِهَادِ، وَبَقِيَّةُ الْقَبَائِلِ يَبْقُونَ، بَلْ نَقُولُ: مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَفِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، نَأْخُذُ مِنْ بَنِي تَيْمِيمٍ، مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْ كَذَا، مِنْ كَذَا، طَائِفَةٌ؛ لِيَبْقَى طَائِفَةٌ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ.

وَإِذَا تَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَحَفِظُوا دِينَ اللَّهِ، جَاءَتِ الْفِرْقَةُ الْمُجَاهِدَةُ، فَيُنْذِرُونَ: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] وَعَلَى هَذَا: فَالْوَأُو فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ فِي الدِّينِ، تَعُودُ عَلَى الْقَاعِدِينَ.

وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ قَدْ جَعَلَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَدِيلًا لِلضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لِلتَّجَارَةِ، فَقَالَ: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ وَمَا بَعْضُهُمْ فِي الْأَرْضِ بِتَعَتُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُؤُنَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقرءوا مَا نَزَّلَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] إِلَى آخِرِهِ.

كَذَلِكَ أَيْضًا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فَقَالَ: ﴿مِنْكُمْ﴾ لَا كُلُّكُمْ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ

يَقُولُونَ: (مِنْ) بَيَانِيَّةٌ، أَيْ: وَلِتَكُونُوا عَلَى هَذَا الْوَصْفِ، أُمَّةٌ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ. لَكِنِ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ مُعْظَمُ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ أُمَّةً مُتَفَرِّغَةً لِهَذَا الشَّيْءِ؛ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ لَا بُدَّ أَنْ يَسْبِقَهَا عِلْمٌ، وَإِلَّا كَانَتْ ضَرَرًا؛ إِذْ إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَعَا بِدُونِ عِلْمٍ، صَارَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ غَالِبًا. لَا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ؛ حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.



القاعدة السابعة والخمسون:

فِي كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا عَلَى التَّوْحِيدِ
وَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ

قَدْ دَعَا اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَأَتْنَى عَلَى الْمُتَفَكِّرِينَ فِيهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّ فِيهَا آيَاتٍ وَعِبْرًا؛ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمُنْتَجِعَ لِلْمَطْلُوبِ بِأَيْسَرِ مَا يَكُونُ، وَأَوْضَحِ مَا يَكُونُ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْجَالِ أَنَّنَا إِذَا تَفَكَّرْنَا فِي هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ عَرَفْنَا أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ بِغَيْرِ مُوجِدٍ، وَلَا أُوْجَدَ نَفْسُهُ، هَذَا أَمْرٌ بَدِيهِيٌّ، فَنَقَبْنَا أَنَّ الَّذِي أُوْجَدَهُ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، كَامِلُ الْقُدْرَةِ، عَظِيمُ السُّلْطَانِ، وَاسِعُ الْعِلْمِ، وَأَنَّ إِيجَادَ الْآدَمِيِّينَ فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ لِلْجَزَاءِ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وَعَرَفْنَا بِذَلِكَ أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، ...

التفصيل

كَيْفَ عَرَفْنَا أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ؟ لِأَنَّهُ لَوْلَا حَيَاتُهُ لَمْ نُوجَدْ. وَالْقَيُّومُ عَلَى وَزْنِ الْفِعْلِ، وَهُوَ مِنْ صَيَغِ الْمُبَالَغَةِ، وَهُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ. وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ دَائِمًا تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَقُومُ عَلَيْهَا، وَلَا زِمَ هَذِهِ الْحَاجَةُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَيُّومًا عَلَيْهَا دَائِمًا ﴿لَا تَأْخُذُهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

... وَإِذَا نَظَرْنَا مَا فِيهَا مِنَ الْإِحْكَامِ، وَالْإِتْقَانِ، وَالْحُسْنِ، وَالْإِبْدَاعِ، عَرَفْنَا بِذَلِكَ كَمَالَ حِكْمَةِ اللَّهِ، وَحُسْنَ خَلْقِهِ، وَسَعَةَ عِلْمِهِ. وَإِذَا رَأَيْنَا مَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ، الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى -عَرَفْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ، عَظِيمُ الْفَضْلِ، وَالْبِرِّ، وَالْإِحْسَانِ، وَالْجُودِ، وَالْامْتِنَانِ.

وَإِذَا رَأَيْنَا مَا فِيهَا مِنَ التَّخْصِصَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ، وَتُقُودِ مَشِيئَتِهِ، وَنَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ مَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ، وَهَذَا شَأْنُهُ، هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الْمَحْبُوبُ الْمَحْمُودُ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْأَوْصَافِ الْعِظَامِ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُضَرَفُ خَالِصُ الدُّعَاءِ إِلَّا لَهُ لَا لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَرْبُوبَاتِ الْمُفْتَقِرَاتِ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهَا.

ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَيْهَا مِنْ جِهَةٍ أُتْمَا كُلُّهَا خُلِقَتْ لِمَصَالِحِنَا، وَأُتْمَا مُسَخَّرَةٌ لَنَا، وَأَنَّ عَنَاصِرَهَا، وَمَوَادَّهَا، وَأَرْوَاحَهَا، قَدْ مَكَّنَ اللَّهُ الْآدَمِيَّ مِنْ اسْتِخْرَاجِ أَصْنَافِ الْمَنَافِعِ مِنْهَا -عَرَفْنَا أَنَّ هَذِهِ الْاِخْتِرَاعَاتِ الْجَدِيدَةَ فِي الْأَوْقَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْمَنَافِعِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ فِيهَا، فَسَلَكْنَا بِذَلِكَ كُلَّ طَرِيقٍ نَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يُصْلِحُ أَحْوَالَنَا مِنْهَا بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ، وَلَمْ نُخْلِدْ إِلَى الْكَسَلِ وَالْبَطَالَةِ، أَوْ نُضَيِّفُ عِلْمَ هَذِهِ الْأُمُورِ وَاسْتِخْرَاجَهَا إِلَى عُلُومٍ بَاطِلَةٍ بِحُجَّةٍ أَنَّ الْكُفَّارَ سَبَقُوا إِلَيْهَا وَفَاقُوا فِيهَا، فَإِنَّهَا كُلُّهَا -كَمَا نَبَّهَ اللَّهُ عَلَيْهِ- دَاخِلَةٌ فِي تَسْخِيرِ اللَّهِ الْكَوْنَ لَنَا، وَأَنَّهُ يُعَلِّمُ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

التعليق

أَمَّا دَلَالَةُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَمِنْ جِهَتَيْنِ:

الأولى: أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِازْدِوَاجِ شَيْئَيْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] وَأَنَّ افْتِقَارَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ لِيَتَقَوَّمَ الْعُنَاصِرُ دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مُفْتَقِرًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

الثانية: أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ نِظَامُهَا وَاحِدٌ، لَا تَضْطَرِبُ وَلَا تَتَنَاقُضُ، وَلَوْ كَانَ لَهَا خَالِقَانِ لَكَانَ هَذَا يَخْلُقُ، أَوْ يَتَصَرَّفُ بِمَخْلُوقَاتِهِ بِشَيْءٍ يُضَادُّ تَصَرُّفَ الْآخَرِ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى انْتِظَامِ الْكَوْنِ عَلِمْنَا أَنَّ مُدَبِّرَهُ وَخَالِقَهُ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ إِنَّ الْمَوْلَفَ اسْتِطْرَدَ فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نُخْلِدَ إِلَى الْكَسَلِ وَالْحُمُولِ، وَعَدَمِ التَّأَمُّلِ، وَعَدَمِ اسْتِخْرَاجِ مَنَافِعِ الْأَرْضِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

ولكن -مع الأسف- إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَخْلَدُوا إِلَى الْكَسَلِ، وَنَامُوا، وَأَضَاعُوا أَوْقَاتَهُمْ فِي حَرْبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَقِتَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، حَتَّى سَبَقَتْهُمْ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ، مَعَ أَنَّهُمْ تَعْمَلُ هَذَا الشَّيْءَ لِلدُّنْيَا فَقَطْ! وَلَوْ وَفَّقَ الْمُسْلِمُونَ لِلْعَمَلِ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءَ لَكَانُوا يَعْمَلُونَهَا لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فهذه القاعدة مُهِمَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ النَّظَرُ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ، مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ عَلَى خَالِقِهَا، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَنْوَاعِ صِفَاتِهِ؛ كَالرَّحْمَةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْقُدْرَةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

والثاني: مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْتَعْمِلَ عُقُولَنَا وَأَفْكَارَنَا فِي اسْتِخْرَاجِ مَنَافِعِنَا مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ.

القاعدة الثامنة والخمسون:

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِظْهَارَ شَرَفِ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ بِالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ
أَرَاهُمْ نَقْصَهَا فِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَعِدِّينَ لِلْكَمَالِ

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن، منها: لما أراد إظهار شرف آدم على
الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء. ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها،
فحينئذ نبأهم آدم عنها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالى إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير، رأى الملك تلك
الرؤيا، وعرضها على كل من لديه علم ومعرفة، فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك
عبرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق
له شيء لا يمكن التعبير عنه.

التفصيل

رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر
وأخر يابسات، ولم يذكر في السنبلات الأكل؛ لأن السنبل لا يأكل بغيضه بغضا،
بخلاف البقر. فالذين يعبرون الرؤيا قالوا: لا نعرف، وقالوا: هذه أضغات أحلام.
وأما يوسف عليه السلام، فعبرها تعبيرا عجيبا، فقال لهم: ﴿تَرْعَوْنَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَا﴾
﴿كُلُّهَا رِيفٌ وَخَصْبٌ وَزَرْعٌ كَامِلٌ﴾ ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾
[يوسف: ٤٧] وإنما أرشدهم إلى إنقائه في سنبله؛ لأن الحب إذا بقي في سنبله لا يسوس.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]
 يعني: تحفظونه، وتحرزونه، وهذا يدلُّ على أَنَّ الشَّيْءَ عِنْدَهُمْ شَحِيحٌ، يتَوَاصَوْنَ
 بحِفْظِهِ وَتَحْصِينِهِ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]
 فهذه أَرْبَعَةُ عَشَرَ عَامًا.

وَأَمَّا قَالَ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ لِأَنَّهُ فَهِمَ ذَلِكَ مِنَ الْحَضَرِ،
 سَبْعٌ، وَسَبْعٌ، وَالْعَدَدُ الْمُحْصُورُ لَهُ مُنْتَهَى، فَصَارَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



وَلَمَّا عَارَضَ فِرْعَوْنُ الْآيَاتِ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا مُوسَى، وَزَعَمَ أَنَّهُ سَيَأْتِي بِسِحْرِ
 يَغْلِبُهُ، فَجَمَعَ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَمْلَكَةِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ فِي يَوْمٍ
 عِيدِهِمْ، وَأَلْقَى السَّحَرَةُ عَصِيَّتَهُمْ وَجِبَالَهُمْ، فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ، وَأَظْهَرُوا لِلنَّاسِ
 مِنْ عَجَائِبِ السَّحْرِ فـ ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾
 [الأعراف: ١١٦] فحِينَئِذٍ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ وَتَبْتَلِعُ بِمَرَأَى النَّاسِ
 جَمِيعَ جِبَالِهِمْ وَعِصِيَّتِهِمْ، فَظَهَرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكُبْرَى، وَصَارَ أَهْلُ الصَّنْعَةِ أَوَّلَ مَنْ
 خَضَعَ لَهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَلَمَّا نَكَّصَ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ نُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَمَلَّأَ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْدَائِهِ،
 وَمَكَّرُوا مَكْرَتَهُمُ الْكُبْرَى لِلْإِقْاعِ بِهِ، نَصَرَهُ اللَّهُ ذَلِكَ النَّصْرَ الْعَجِيبَ، فَإِنَّ نَصْرَ
 الْمُنْفَرِدِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِ عَدُوُّهُ الشَّدِيدُ حَرْدُهُ، الْقَوِيُّ مَكْرُهُ، الَّذِي جَمَعَ كُلَّ كَيْدِهِ لِيُوقِعَ
 بِهِ أَشَدَّ الْأَخْذَاتِ، وَأَعْظَمَ النِّكَايَاتِ، وَتَخَلَّصَهُ وَانْفِرَاجَ الْأَمْرِ لَهُ - مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ
 النَّصْرِ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْحَالَ الَّتِي عَاتَبَ بِهَا أَهْلَ الْأَرْضِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ

فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴿الآيَةُ [التوبة: ٤٠].

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا نَصْرُهُ إِيَّاهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ؛ حَيْثُ أَعْجَبَتِ النَّاسَ كَثْرَتُهُمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَثَبَّتَ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَكِينَتَهُ وَنَصْرَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْحَرَجَةِ، فَكَانَ لِهَذَا النَّصْرِ مِنَ الْمَوْقِعِ الْكَبِيرِ مَا لَا يُعْبَرُّ عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّدَائِدِ الَّتِي جَرَتْ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ، وَكَادَ أَنْ يَسْتَوِلِيَ عَلَى النَّفُوسِ الْيَأْسُ - أَنْزَلَ اللَّهُ فَرَجَهُ وَنَصْرَهُ؛ لِيَصِيرَ لَذَلِكَ مَوْقِعٌ فِي الْقُلُوبِ، وَلِيَعْرِفَ الْعِبَادُ أَلْفَافَ عِلَامِ الْغُيُوبِ.

وَيُقَارِبُ هَذَا الْمَعْنَى: إِنْزَالُهُ الْعَيْثَ عَلَى الْعِبَادِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِهِ مُبْلِسِينَ، فَيَحْصُلُ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالِاسْتِبْشَارِ بِفَضْلِهِ مَا يَمْلَأُ الْقُلُوبَ حَمْدًا وَشُكْرًا وَثَنَاءً عَلَى الْبَارِي تَعَالَى.

وَكَذَلِكَ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ بَلَفَتْ أَنْظَارُهُمْ إِلَى تَأَمُّلِ ضِدِّهَا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الآيات [الفصص: ٧١].

وَتَلَمَّحُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قِصَّةُ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ حِينَ اشْتَدَّتْ بِهِمُ الْأَزْمَةُ، وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وَقَالُوا: قَدْ ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨] ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ قَالَ: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] فِي تِلْكَ النُّعْمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالْعَيْشِ

الرَّغِيدِ، وَالْعِزِّ الْمَتِينِ، وَالْجَاهِ الْعَرِيزِ. فَتَبَارَكَ مَنْ لَا يُدْرِكُ الْعِبَادَ مِنْ أَلْطَافِهِ وَدَقِيقِ بَرِّهِ أَقْلُ الْقَلِيلِ!

وَيُنَاسِبُ هَذَا مِنْ أَلْطَافِ الْبَارِي: أَنَّ اللَّهَ يُذَكِّرُ عِبَادَهُ فِي أَثْنَاءِ الْمَصَائِبِ مَا يُقَابِلُهَا مِنْ النِّعَمِ؛ لِئَلَّا تَسْتَرْسِلَ النُّفُوسُ لِلْجَزَعِ، فَإِنَّهَا إِذَا قَابَلَتْ بَيْنَ الْمَصَائِبِ وَالنِّعَمِ خَفَّتْ عَلَيْهَا الْمَصَائِبُ، وَهَانَ عَلَيْهَا حَمْلُهَا، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ أُصِيبُوا بِأَحَدٍ مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْتَئِهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] وَأَدْخَلَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَثْنَاءِ قِصَّةِ أَحَدٍ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وَيُبَشِّرُ عَبْدَهُ بِالْمَخْرَجِ مِنْهَا حِينَ تُبَاشِرُهُ الْمَصَائِبُ؛ لِيَكُونَ هَذَا الرَّجَاءُ مُحَقِّقًا لِمَا نَزَلَ مِنَ الْبَلَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَتِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

وكَذَلِكَ رُؤْيَا يُوسُفَ إِذَا ذَكَرَهَا يَعْقُوبُ رَجَا الْفَرَجَ، وَهَبَّ عَلَى قَلْبِهِ نَسِيمَ الرَّجَاءِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْنِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى لِأُمِّ مُوسَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ لِرُسُلِهِ بِالنَّصْرِ، وَتَمَامِ الْأَمْرِ؛ هَوْنٌ عَلَيْهِمُ الْمَشَقَّاتِ، وَسَهْلٌ عَلَيْهِمُ الْكُرْهِيَّاتِ، فَتَلَقَّوْهَا بِقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وَصُدُورٍ مُنْشَرِحَةٍ، وَأَلْطَافِ الْبَارِي فَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ، أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ.

القاعدة التاسعة والخمسون:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩٠]

مَا أَعْظَمَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ وَالْأَصْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ نَصًّا صَرِيحًا، وَعَمَّمَ ذَلِكَ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ بِحَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ! فَكُلُّ حَالٍ هِيَ أَقْوَمُ فِي الْعَقَائِدِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالسِّيَاسَاتِ الْكِبَارِ، وَالصَّغَارِ، وَالصَّنَاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ - فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِي إِلَيْهَا، وَيُرْشِدُ إِلَيْهَا، وَيَأْمُرُ بِهَا، وَيَنْهَى عَنْهَا. وَمَعْنَى: ﴿أَقْوَمُ﴾ أَي: أَكْمَلُ، وَأَصْلَحُ، وَأَعْظَمُ قِيَامًا وَصَلَاحًا.

فَأَمَّا الْعَقَائِدُ: فَإِنَّ عَقَائِدَ الْقُرْآنِ هِيَ الْعَقَائِدُ النَّافِعَةُ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُ الْقُلُوبِ وَغَذَاوُهَا وَكَمَالُهَا؛ فَإِنَّهَا تَمَلَأُ الْقُلُوبَ مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَتَعْظِيماً لَهُ، وَالْوَهِيَّةَ وَإِنَابَةً. وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِأَجْلِهِ.

وَأَمَّا أَخْلَاقُهُ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا: فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى التَّحَلِّيِ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ؛ مِنَ الصَّبْرِ، وَالْحِلْمِ، وَالْعَفْوِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَالْأَدَبِ، وَجَمِيعِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَى عَنْهَا بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيُرْشِدُ إِلَيْهَا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ.

وَأَمَّا الْأَعْمَالُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي يَهْدِي إِلَيْهَا: فَهِيَ أَحْسَنُ الْأَعْمَالِ الَّتِي فِيهَا الْقِيَامُ بِحُقُوقِ اللَّهِ، وَحُقُوقِ الْعِبَادِ عَلَى أَكْمَلِ الْحَالَاتِ، وَأَجَلِّهَا، وَأَسْهَلِهَا، وَأَوْصَلِهَا إِلَى الْمَقَاصِدِ.

وَأَمَّا السِّيَاسَاتُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ: فَهُوَ يُرْشِدُ إِلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ النَّافِعَةِ فِي تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ الْكُلِّيَّةِ، وَفِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ، وَيَأْمُرُ بِالتَّشَاوُرِ عَلَى مَا لَمْ تَتَّضَحْ مَصْلَحَتُهُ، وَالْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْوَقْتَ وَالْحَالَ، حَتَّى فِي سِيَاسَةِ الْعَبْدِ مَعَ أَوْلَادِهِ، وَأَهْلِيهِ، وَخَادِمِيهِ، وَأَصْحَابِيهِ، وَمُعَامِلِيهِ؛ فَلَا يُمَكِّنُ أَنَّهُ وَجَدَ وَيُوجَدُ حَالَةً يَتَّفِقُ الْعُقَلَاءُ أَنَّهَا أَقْوَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَأَصْلَحُ إِلَّا وَالْقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَيْهَا نَصًّا، أَوْ ظَاهِرًا، أَوْ دُخُولًا تَحْتَ قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِهِ الْكُلِّيَّةِ، وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ لَا يُمَكِّنُ اسْتِيفَاؤَهُ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَالْتَفَاصِيلُ الْوَارِدَةُ فِي الْقُرْآنِ فِي السَّنَةِ مِنَ الْأَوَامِرِ النَّوَاهِي وَالْإِخْبَارَاتِ كُلُّهَا تَفْصِيلٌ لِهَذَا الْأَصْلِ الْمُحِيطِ، وَهَذَا وَغَيْرُهُ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرَدَ عِلْمٌ صَحِيحٌ، أَوْ مَعْنَى نَافِعٌ، أَوْ طَرِيقٌ صَالِحٌ يُنَافِي الْقُرْآنَ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْإِحْسَانِ.

التَّعْلِيلُ

بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ جَمِيعَ الْقَوَانِينِ الْمُعَارِضَةِ لِلْقُرْآنِ كُلُّهَا لَا خَيْرَ فِيهَا، وَأَنَّهُ إِنْ قُدِّرَ فِيهَا خَيْرٌ فَمَا فِي الْقُرْآنِ خَيْرٌ، وَأَشَدُّ، وَأَثْبَتُ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] ﴿وَلَوْ أَنَا كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ أَقْوَمَ فِي الْعَقَائِدِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْأَخْلَاقِ،

والسياسات، والمعاملات، والمتروكات، والمنهيات - فإن القرآن يهدي إليه.
ونأخذ من هذا قواعد عظيمة:

منها: إذا تعارضت مصلحتان إحداهما أنفع، أخذنا بالأنفع.
ومنها: إذا تعارضت مفسدتان إحداهما أشد، أخذنا بالأخف. وعلى هذا ففس.
فكل ما كان أقوم كان القرآن يهدي إليه، والعكس بالعكس، فكل ما كان
أعوج وأزداً وأسوأ فإن القرآن لا يهدي إليه، بل يهدي إلى ضده وعكسه.



القاعدة الستون:

مِنْ قَوَاعِدِ التَّعْلِيمِ الَّذِي أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الْقَصَصَ الْمُبْسُوطَةَ
يُجْمَلُهَا فِي كَلِمَاتٍ يَسِيرَةٍ ثُمَّ يَنْسُطُهَا وَالْأُمُورَ الْمُهَمَّةَ يَتَنَقَّلُ فِي تَقْرِيرِهَا نَفْيًا وَإِثْبَاتًا
مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى أَعْلَى أَوْ أَنْزَلَ مِنْهَا

وهذه قاعدة نافعة، فإنَّ هذا الأسلوب العجيب يصيرُ له موقعٌ كبيرٌ، وتقرَّرُ
فيه المطالبُ المهمةُ؛ وذلك أنَّه إذا أُجْمِلَتِ القِصَّةُ بكلامٍ كالأصلِ والقاعدة لها،
ثُمَّ وَقَعَ التَّفْصِيلُ بَعْدَ ذَلِكَ الْإِجْمَالِ، وَقَعَ إِضْخَاحٌ وَبَيَانٌ تَامٌّ كَامِلٌ، لَا يَقَعُ مَا يُقَارِبُهُ
لَوْ فَصَّلَتِ الْقِصَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنْ دُونِ تَقَدُّمِ إِجْمَالٍ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا النَّوعُ فِي الْقُرْآنِ فِي
مَوَاضِعَ:

مِنْهَا: فِي قِصَّةِ يُوسُفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ثُمَّ
قَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] ثُمَّ سَاقَ الْقِصَّةَ بَعْدَهَا.
وكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ لَمَّا قَالَ: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ① إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ② فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا
③ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿ [الكهف: ٩-١٢] فَهَذَا إِجْمَالُهَا
قَدْ حَوَى مَقْصُودَهَا وَزِيدَتَهَا، ثُمَّ وَقَعَ بَعْدَهُ التَّفْصِيلُ بِقَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ
بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ.

وَكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى، لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [الفصص: ٣-٦] هَذَا مُجْمَلُهَا، ثُمَّ وَقَعَ التَّفْصِيلُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُحَدِّدْ لَهُ عَزَمًا﴾ [طه: ١١٥] فَأَجْمَلَهَا، ثُمَّ وَقَعَ بَعْدَهُ التَّفْصِيلُ.

وَأَمَّا التَّنْقِيلُ فِي تَقْرِيرِ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَمْرِ إِلَى مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ، فَكَثِيرٌ:

مِنْهَا: لَمَّا أَتَا عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ وَلَدًا، قَالَ فِي إِبْطَالِ هَذَا: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] فَأَبَانَ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقَوْلَ بِلَا عِلْمٍ مِنَ الطَّرِيقِ الْبَاطِلَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ قُبْحَهُ، فَقَالَ: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] ثُمَّ ذَكَرَ مَرْتَبَةَ هَذَا الْقَوْلِ مِنَ الْبُطْلَانِ، فَقَالَ: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦] أَيْ: عِلْمُهُمْ فِيهَا عِلْمٌ ضَعِيفٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الشَّكَّ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ شَيْءٌ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] وَالْعَمَى آخِرُ مَرَاتِبِ الْحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ.

وَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَقْرِيرِ رِسَالَتِهِ عِنْدَ مَنْ كَذَّبَهُ وَزَعَمَ أَنَّهُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ: ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١] فَلَمَّا نَفَى الضَّلَالَةَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ أَثْبَتَ بَعْدَهُ الْهُدَى الْكَامِلَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١].

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ مَادَّةَ هَذَا الْهُدَى الَّذِي جِئْتُ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْهُدَى، وَمَنْبَعُهُ، وَمَادَّتُهُ، فَقَالَ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وَكَذَلِكَ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَالَ فِي تَقْرِيرِ رِسَالَةِ أَكْمَلِ الرُّسُلِ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢] فَفَنَى عَنْهُ مَا يُنَافِي الْهُدَى مِنْ كُلِّ وَجْهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ [النجم: ٤].

وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا، كَانْتِقَالِهِ مِنْ ذِكْرِ هَبَّتِهِ الْوَلَدِ لَزَكْرِيَّا إِلَى مَرِيَمَ، وَأَمْرِ الْقِبْلَةِ بَعْدَ تَعْظِيمِهِ لِلْبَيْتِ، وَغَيْرَهَا.

التعاليق

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَضَمَّنَتْ أَمْرَيْنِ:

الْإِجْمَالُ، ثُمَّ التَّفْصِيلُ. وَهَذَا مِنْ طُرُقِ الْبَلَاغَةِ؛ لِأَنَّ الْإِجْمَالَ أَقْرَبُ إِلَى الْحِفْظِ وَأَوْعَى لِلذَّهْنِ. ثُمَّ إِنَّ الْإِجْمَالَ إِذَا وَقَعَ بِقِيَّتِ النَّفْسِ مُتَشَوِّفَةً إِلَى التَّفْصِيلِ، فَيَرُدُّ عَلَيْهَا التَّفْصِيلُ وَهِيَ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ.

وَإِذَا وَرَدَ الْعِلْمُ عَلَى الْقَلْبِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، مُشْتَاقٌ إِلَيْهِ -رَسَخَ فِيهِ أَكْثَرُ، وَثَبَتَ فِيهِ وَتَمَكَّنَ. هَذَا مِنْ فَوَائِدِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، وَإِلَّا فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَا يُذَكَّرُ الشَّيْءُ مُفَصَّلًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ؟ نَقُولُ: لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَفَاتَنَّا هَذَانِ الْأَمْرَانِ، وَهُمَا: أَنَّ التَّفْصِيلَ بَعْدَ الْإِجْمَالِ أَثْبَتُ فِي الْقَلْبِ؛ لِأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ وَهُوَ مُتَشَوِّفٌ لَهُ، وَلِأَنَّ الْاِخْتِصَارَ وَالْإِجْمَالَ أَوْعَى لِلذَّهْنِ، وَأَقْرَبُ لِلْحِفْظِ.

وَأَمَّا الْإِنْتِقَالُ مِنْ حَالٍ إِلَى أُخْرَى، فَهَذَا أَيْضًا ظَاهِرٌ؛ لِئَلَّا تَرَدَّ الْمَعَانِي عَلَى الْقُلُوبِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا تَرَدُّ عَلَيْهَا مُتَنَقِّلَةً مَرَّحَلَةً مَرَّحَلَةً. وَمِنْ هَذَا أَيْضًا الْأَحْكَامُ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أَنْ يَأْتُواهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً، يَجْعَلُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرْتَبَةً شَيْئًا فَشَيْئًا.

فَمِنْ الْمَأْمُورَاتِ: الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالزَّكَاةُ، كُلُّهَا لَهَا مَرَاتِبٌ؛ فَفِي الصَّلَاةِ: كَانَ فِي الْأَوَّلِ يُصَلُّونَهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا، ثُمَّ صَارَتْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ. وَفِي الزَّكَاةِ: كَانُوا يُؤْمَرُونَ بِأَنْ يُؤْتُوا الْمَالَ حَقَّهُ ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ. يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] بِدُونِ تَقْدِيرٍ، ثُمَّ قُدِّرَتْ. وَفِي الصِّيَامِ: كَانَ بِالْأَوَّلِ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ افْتَدَى، ثُمَّ تَعَيَّنَ الصِّيَامُ.

وَفِي الْمَنْهِيَّاتِ نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَصْعَبُ الْإِمْتِنَاعُ عَنْهَا مَرَّةً وَاحِدَةً يَجْعَلُهَا مُرْتَبَةً، مِثْلَ الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا قَدْ عَاشُوا عَلَيْهَا، فَيَصْعَبُ أَوْ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْعَوْهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَجَعَلَ الْأَمْرَ مُرْتَبًا، يَنْتَقِلُونَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؛ لَيْسَ هَلْ عَلَيْهِمُ التَّنْفِيزُ وَالْفِعْلُ، أَوْ التَّرْكُ.



القاعدة العادية والستون:

مَعْرِفَةُ الْأَوْقَاتِ وَضَبْطُهَا حَتَّى اللَّهُ عَلَيْهِ حَيْثُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ
حُكْمٌ عَامٌّ أَوْ حُكْمٌ خَاصٌّ

وذلك أن الله رَتَّبَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَلَى مُدَدٍ وَأَزْمَنَةٍ تَتَوَقَّفُ
الْأَحْكَامُ عَمَلًا وَتَنْفِيزًا عَلَى ضَبْطِ تِلْكَ الْمُدَّةِ وَإِحْصَائِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وَقَوْلُهُ: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يَدْخُلُ
فِيهِ مَوَاقِيتُ الصَّلَوَاتِ، وَالصِّيَامِ، وَالزَّكَاةِ، وَخَصَّ الْحَجَّ بِالذِّكْرِ؛ لِكَثْرَةِ مَا يَتَرْتَّبُ
عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْقَاتِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَكَذَلِكَ مَوَاقِيتُ الْعِدَّةِ، وَالذِّيُونِ، وَالْإِجَارَاتِ
وغيرها.

وَقَالَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْعِدَّةَ: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] وَقَوْلُهُ فِي
الصِّيَامِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَعَثْتَهُمْ لِنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى
لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وَذَلِكَ لِمَعْرِفَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي إِفَاقَتِهِمْ، فَلَوْ اسْتَمَرُّوا عَلَى
نَوْمِهِمْ لَمْ يَخْضَلِ الْإِطْلَاعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قِصَّتِهِمْ. فَمَتَى تَرْتَّبَ عَلَى ضَبْطِ
الْحِسَابِ، وَإِحْصَاءِ الْمُدَّةِ، مَصْلَحَةٌ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الدُّنْيَا - كَانَ بِمَا حَثَّ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ
الْقُرْآنُ.

وَيُقَارَبُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾

إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ [البقرة: ٢٥٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] وَنَحْوُهَا مِنَ الْآيَاتِ.

التعاليق

فِي ضَبْطِ الْأُمُورِ وَالْأَوْقَاتِ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ أَيْضًا، سِوَى مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَرِطُ عَلَيْهِ وَقْتُهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَطْلَقَ نَفْسَهُ وَأَهْمَلَهَا انْفَرَطَ عَلَيْهِ الْوَقْتُ. لَكِنْ إِذَا رَتَّبَ وَقْتَهُ، حَفِظَ وَقْتَهُ وَضَبَطَهُ، وَلَمْ يَضَعِ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

فَمَثَلًا: لَوْ قَالَ: إِذَا صَلَّيْتُ الْفَجْرَ رَتَّبْتُ نَفْسِي، فَفَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَبَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، وَفِي الْيَوْمِ الْفُلَانِي: أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَذْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»^(١) حَتَّى لَا يَصِيرَ الْإِنْسَانُ مُنْفَرِطًا فِي شُغْلِهِ، فَيَضِيعَ عَلَيْهِ الْوَقْتُ.

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ مِنْ حَالٍ مَنْ أَغْفَلَ اللَّهُ ذِكْرَهُ عَنْ قَلْبِهِ: ﴿وَلَا تُطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨] فَالَّذِي يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنْ تَضْبِطَ وَقْتَكَ. وَكُلُّ وَقْتٍ لَهُ عَمَلٌ مُعَيَّنٌ، حَتَّى لَا تَتَدَاخَلَ الْأَعْمَالُ، وَلَا يَضِيعَ عَلَيْكَ الْوَقْتُ بِلا فَائِدَةٍ. وَذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أُمُثْلَةً مِنْ هَذَا تَدُلُّ عَلَى ضَبْطِ الْوَقْتِ، وَعَلَى حِفْظِهِ وَحِمَايَتِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، (٧٨٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

القاعدةُ الثانيةُ والستونُ:

الصَّبْرُ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَالْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ عِلْمًا وَخَبْرًا
هُوَ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ

وهذه القاعدةُ عَظِيمَةُ النِّفْعِ، قَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا صَرِيحًا وَظَاهِرًا فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أَي: اسْتَعِينُوا عَلَى جَمِيعِ الْمَطَالِبِ، وَفِي جَمِيعِ شُؤُونِكُمْ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ يُسَهِّلُ عَلَى الْعَبْدِ الْقِيَامَ بِوَظِيفَةِ الطَّاعَاتِ، وَأَدَاءِ حُقُوقِ اللَّهِ، وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، وَبِالصَّبْرِ يَسَهِّلُ عَلَيْهِ تَرْكُ مَا تَهَوَّاهُ نَفْسُهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَيَنْهَاهَا عَنْ هَوَاهَا حَذَرَ شَقَاهَا، وَطَلَبًا لِرِضَى مَوْلَاهَا، وَبِالصَّبْرِ تَخَفُّ عَلَيْهِ الْكَرِهَاتِ، وَلَكِنْ هَذَا الصَّبْرُ وَسِيلَتُهُ وَالَّتِي يَنْبَنِي عَلَيْهَا وَلَا يُمَكِّنُ وَجُودَهُ بِدُونِهَا هُوَ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ الْمَصْبُورِ عَلَيْهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ.

فَمَتَى عَرَفَ الْعَبْدُ مَا فِي الطَّاعَاتِ مِنْ صَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَزِيَادَةِ الْإِيمَانِ، وَاسْتِكْمَالِ الْفَضَائِلِ، وَمَا تُثْمِرُهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، وَمَا فِي الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الضَّرَرِ وَالرَّذَائِلِ، وَمَا تُوجِبُهُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَعَلِمَ مَا فِي أَقْدَارِ اللَّهِ مِنَ الْبَرَكَاتِ، وَمَا لَنْ قَامَ بِوَظِيفَتِهِ فِيهَا مِنَ الْأَجُورِ - هَانَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ.

وبهذا يُعْلَمُ فَضْلُ الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ أَصْلُ الْعَمَلِ وَالْفَضَائِلِ كُلِّهَا؛ وَلِهَذَا كَثِيرًا يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الْمُتَحَرِّفِينَ فِي الْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ إِنَّمَا ذَلِكَ لِقُصُورِ عِلْمِهِمْ وَعَدَمِ إِحَاطَتِهِمْ

التَّامَّةَ بِهَا، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧] لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا ذُنُوبٌ وَسُوءٌ، إِنَّمَا قَصَرَ عِلْمُهُمْ وَخَبَرَتُهُمْ بِمَا تُوجِبُهُ الذُّنُوبُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْمَضَرَّاتِ، وَزَوَالِ الْمَنَافِعِ.

وَقَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ مُتَقَرَّرٌ أَنَّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَا يَخْتَوِي عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ الصَّبْرُ، فَقَالَ عَنِ الْحَضَرِ لَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ لِيَتَعَلَّمَ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ⑦ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴿[الكهف: ٦٧-٦٨] فَعَدِمَ إِحَاطَتَهُ بِهِ خَبْرًا يَمْتَنِعُ مَعَهُ الصَّبْرُ، وَلَوْ تَجَلَّدَ مَا تَجَلَّدَ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يُعَالَ صَبْرُهُ.

وَقَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا عَظَمَةَ الْقُرْآنِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَلَالَةِ وَالصِّدْقِ الْكَامِلِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] فَأَبَانَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ إِنَّمَا تَكْذِيبُهُمْ بِهِ؛ لِعَدَمِ إِحَاطَتِهِمْ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَدْرَكُوهُ كَمَا هُوَ لَأَجْلَأَهُمْ وَاضْطَرَّهُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ وَالِإِذْعَانِ، فَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ الْحُجَّةُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوهُ الْفِقْهُ الَّذِي يُطَابِقُ مَعْنَاهُ، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ بَانَ لَهُمْ عِلْمُهُ، وَخَبَرُوا صِدْقَهُ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ عَلَى أُمُورِهِمْ بِمُلَازِمَةِ الصَّبْرِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ الصَّبْرِ بِالنَّظَرِ إِلَى الْأُمُورِ، وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْفَضَائِلِ أَوْ الرِّذَائِلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعاقب

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى أُمُورٍ:

الأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الصَّبْرَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَبَرَ عَلَى الشَّيْءِ كَانَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُ عَلَى إِدْرَاكِهِ. وَيُذَكِّرُ أَنَّ الْكِسَائِيَّ، وَهُوَ إِمَامُ الْكُوفِيِّينَ فِي النَّحْوِ، صَارَ يَتَعَلَّمُ النَّحْوَ، فَعَجَزَ عَنْهُ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ رَأَى نَمْلَةً تَحْمِلُ قِطْعَةً مِنْ تَمْرَةٍ لِيَتَّصِدَ بِهَا الْجِدَارَ، فَكُلَّمَا صَعِدَتْ بِهِذِهِ التَّمْرَةُ ثَقُلَتْ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَقَطَتْ وَإِيَّاهَا إِلَى الْأَرْضِ! وَهَكَذَا عِدَّةٌ مَرَّاتٍ، حَتَّى صَعِدَتْ بِهَا، فَقَالَ: هَذِهِ النَّمْلَةُ صَابِرَتْ هَذَا الصَّبْرَ، حَتَّى حَصَلَ لَهَا مَقْصُودُهَا، فِي غِذَاءِ جِسْمِي، فَلِمَاذَا لَا أَصْبِرُ حَتَّى أَتَالَ مَقْصُودِي فِي تَعَلُّمِ النَّحْوِ؟! فَصَارَ يَتَعَلَّمُ، حَتَّى صَارَ إِمَامًا فِي النَّحْوِ.

وَهَكَذَا يَنْبَغِي لَطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَأَنْ لَا يَيَاسَ وَيَقُولَ: هَذَا صَعْبٌ عَلَيَّ! قَدْ يَضَعُبُ عَلَيْكَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَسْهُلُ عَلَيْكَ، وَتَصِيرُ تَقْرَأُ الشَّيْءَ وَكَأَنَّهُ مَشْرُوحٌ لَكَ مِنْ قَبْلُ.

وَالصَّبْرُ يَخْتِاجُ إِلَى مَا يُعِينُكَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا لِلْمُضْبُورِ عَلَيْهِ، أَوْ لِلْمُضْبُورِ عَنْهُ مِنَ النَّتَائِجِ، فَإِنْ كَانَ شَيْئًا مَطْلُوبًا حُصُولُهُ، فَاعْلَمْ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْمَنَافِعِ، وَالْمَصَالِحِ، وَإِنْ كَانَ مَطْلُوبًا تَرْكُهُ فَاعْلَمْ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشُّرُورِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَهَذَا يُعِينُكَ عَلَى الصَّبْرِ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: مِمَّا يُعِينُكَ عَلَى الصَّبْرِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبَاتِ أَنْ تَقُولَ لِنَفْسِكَ: أَنْتِ الْآنَ قَطَعْتَ شَوْطًا بَعِيدًا لِلْوُصُولِ إِلَى الْغَايَةِ، وَرُجُوعِكَ مِنْ أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ مَعْنَاهُ إِضَاعَةُ الْوَقْتِ، وَخَسَارُهُ مَا اكْتَسَبْتَ. بَعْضُ النَّاسِ -مَثَلًا- يَحْفَظُ أَلْفِيَّةَ ابْنِ مَالِكٍ،

فَإِذَا انْتَصَفَ بِهَا، قَالَ: هَذِهِ صَعْبَةٌ! وَبَقِيَ عَلَى نِصْفِهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا. فَمَاذَا حَصَلَ؟
ضَيَّعَ عَلَى نَفْسِهِ الْفُرْصَةَ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ سَفَهٌ.

فِمَّا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ مَعْرِفَةُ الْمَصْبُورِ عَلَيْهِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّتَائِجِ
وَالْعَوَاقِبِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا تَخَلَّى عَنِ الصَّبْرِ أَضَاعَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا كَثِيرًا اكْتَسَبَهُ.

أَمَّا الْأَمْرُ الثَّالِثُ: مِمَّا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ أَنْ يَرْجُو الْإِنْسَانُ بِصَبْرِهِ ثَوَابَ اللَّهِ
عَزَّجَلَّ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وَيَقُولُ: ﴿إِنَّمَا
يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فَإِذَا عَرَفَ مَا فِي الصَّبْرِ -بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ
الْمَصْبُورِ عَلَيْهِ- مِنَ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ، فَإِنَّهُ يَسْتَمِرُّ عَلَى صَبْرِهِ وَيَتَحَمَّلُ.

وَالْأَمْرُ الرَّابِعُ: مِمَّا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ أَنْ الْإِنْسَانَ إِذَا صَبَرَ عَلَى الشَّيْءِ، صَارَ هَذَا
الشَّيْءُ كَأَنَّهُ غَرِيزَةٌ فِي نَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَخَلَّى إِذَا فَقَدَهُ. وَانْظُرْ نَفْسَكَ أَهْيَا الطَّالِبُ،
فِي أَوَّلِ السَّنَةِ الدَّرَاسِيَّةِ، أَوَّلِ يَوْمٍ، يَوْمَيْنِ، ثَلَاثَةِ، مَجِدُ نَفْسِكَ مُتَعَبًا، مَا لَا مِنْ طُولِ
الدَّرُوسِ، فَإِذَا تَمَرَّنْتَ عَلَيْهَا، سَهَّلَ عَلَيْكَ وَهَانَ، حَتَّى إِنَّكَ تَفْقِدُ الدَّرُوسَ عِنْدَ
حُلُولِ الْإِجَازَةِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأُمُورِ تُعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَى الصَّبْرِ
وَالْتَحَمُّلِ، وَعَدَمِ النُّكُوصِ عَلَى الْعَقَبَيْنِ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي شَيْءٍ
فَلْيَلْزِمَهُ»^(١) هَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ! فَلَا تَكُنْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَكَ رَأْيٌ وَنَظَرٌ؛ فَإِنَّ هَذَا يُذْهِبُ
عَلَيْكَ الْوَقْتَ.



(١) انظر: البيان والتحصيل لابن رشد (١٧/٥٤٢)، الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/٢٩٢).

القاعدة الثالثة والستون:

يُرْشِدُ الْقُرْآنُ إِلَى أَنَّ الْعِبْرَةَ بِحُسْنِ حَالِ الْإِنْسَانِ: إِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ
وَأَنَّ الِاسْتِذْلَالَ عَلَى ذَلِكَ بِالِدَّعَاوَى الْمُجَرَّدَةِ أَوْ بِإِعْطَاءِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ مِنَ الدُّنْيَا
أَوْ بِالرِّيَّاسَاتِ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ طُرُقِ الْمُنْحَرِفِينَ

وَالْقُرْآنُ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُهُ تَفْصِيلًا لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى فِي عِدَّةِ آيَاتٍ.

وَأَمَّا حِكَايَةُ الْمَعْنَى الْآخِرِ عَنِ الْمُنْحَرِفِينَ: فَقَالَ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿وَقَالُوا
لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] ثُمَّ ذَكَرَ الْبُرْهَانَ الَّذِي مَنْ أَتَى بِهِ فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ
لِلْجَنَّةِ، فَقَالَ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ
بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نُنَالِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وَنَحْوُهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا الْكُفَّارُ

عَلَى حُسْنِ حَالِهِمْ بِتَفَوُّقِهِمْ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالرِّيَاسَاتِ، وَيَذُمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى بُطْلَانِ دِينِهِمْ بِنَقْصِهِمْ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ!! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ مَوَاضِعِ الْفِتَنِ.

التعاليق

هُنَا ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

الأوّل: إيمان الإنسان وعمله الصّالح، وهذا هو المقياس للرجل، وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا أَنَا كُمْ مَنْ تَرْضُونَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ»^(١) هَذَا هُوَ الْمِقْيَاسُ الْأَوَّلُ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا عَامِلًا بِالصَّالِحَاتِ. هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى كَمَالِ حَالِهِ، وَحُسْنِ حَالِهِ.

الثاني: دَعَاوَى مُجَرَّدَةٌ يَدَّعِيهَا الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ، وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهَذِهِ لَا تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ حَالِهِ، وَحُسْنِ حَالِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّعِيَ الْكَمَالَ. وَلَكِنْ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حَالِهِ إِذَا هُوَ مُفَارِقٌ لِلْكَمَالِ! لَا نَقْبَلُ مِنْهُ.

وَمِنْ هَذَا دَعَاوَى أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَحِبَّاءُ اللَّهِ، مِثْلُ مَا يَدَّعِي أَوْلِيَاكَ الْمُخَرَّفُونَ، الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْوِلَايَةَ لِنَفْسِهِمْ، أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؛ لِيَجْذِبُوا النَّاسَ إِلَيْهِمْ.

الثالث: إعطاء الله الإنسان المالَ والرَّئاسَةَ والجاهَ والسُّمعةَ، هَلْ تَدُلُّ هَذِهِ عَلَى كَمَالِهِ؟ لَا يَلْزَمُ؛ قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ! قَدْ يُعْطَى الْإِنْسَانُ هَذِهِ الْأُمُورَ؛ ابْتِلَاءً

(١) أخرجه الترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فوزجوه، رقم (١٠٨٤)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب الأكفاء، رقم (١٩٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَامْتِحَانًا لَهُ، فَيَتَوَلَّى عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونُ لَهُ جَاهٌ عِنْدَهُمْ وَرِئَاسَةٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ حَالِهِ حَقِيقَةً.

فهذه أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ. وَمِيزَانُ هَذِهِ الْأُمُورِ هُوَ: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ؛ فَكَمَالُ الْإِنْسَانِ هُوَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَقَطْ. أَمَّا الرِّئَاسَاتُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ، فَهَذِهِ لَا تَدُلُّ عَلَى حُسْنِ حَالِهِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] لَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ هَذِهِ الدَّعَاوَى؛ وَلِهَذَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

أَيْضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] لَا يَقُولُونَ: لَا نُؤْمِنُ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فَيَقْدَحُونَ فِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

وَعَلَى هَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى حَالِ الْإِنْسَانِ، لَا إِلَى دَعْوَاهُ الْبَاطِلَةِ، وَلَا إِلَى مَا أُوتِيَ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ وَرِئَاسَةٍ وَجَاهٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.



القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالسُّتُونُ:

الْأُمُورُ الْعَارِضَةُ النَّبِيِّ لَا قَرَارَ لَهَا بِسَبَبِ الْمُزْعِجَاتِ
أَوْ الشُّبُهَاتِ قَدْ تَرَدُّ عَلَى الْحَقِّ وَالْأُمُورِ الْيَقِينِيَّةِ
وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا تَضْمَحِلُّ وَتَزُولُ

وهذه قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ جَلِيلَةٌ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَمَنْ لَمْ يُحْكَمْهَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْعَلَاطِ فِي فَهْمِ بَعْضِ الْآيَاتِ مَا أَوْجَبَ الْخُرُوجَ عَنْ ظَاهِرِ النَّصِّ، وَمَنْ عَرَفَ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي وُرُودِهَا عَلَى الْحَقِّ الصَّرِيحِ لَأَسْبَابِ مُزْعِجَةٍ تَذْفَعُهَا، أَوْ لِشُبُهَةٍ قَوِيَّةٍ تُحْدِثُهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا إِذَا رَجَعَ إِلَى الْيَقِينِ، وَالْحَقِّ الصَّرِيحِ، وَتَقَابَلَ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، فَزَهَقَ الْبَاطِلُ، وَثَبَتَ الْحَقُّ - حَصَلَتِ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ، وَزِيَادَةُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ التَّقْدِيرِ حِكْمٌ بِالْغَةِ، وَأَيَادٍ سَابِغَةٌ، وَلِنُمُثْلِ لِهَذَا أُمُثْلَةٌ:

فَمِنْهَا: أَنَّ الرُّسُلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَكْمَلَ الْخَلْقِ إِيْمَانًا وَبَقِينًا، وَتَصَدِّقًا بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّمِ أَنْ يَعْتَقِدُوا فِي الرُّسُلِ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا ذِرْوَتَهُ الْعُلْيَا، وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ضِدِّهِ، وَلَكِنْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّهُ قَدْ يَغْرُسُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُزْعِجَةِ الْمُنَافِيَةِ حَسًّا لِمَا عَلِمَ يَقِينًا مَا يُوجِبُ لَهُوْلَاءِ الْكَمَلِ أَنْ يَسْتَبْطِنُوا مَعَهُ النَّصْرَ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَتَى نَصَرَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٤] وَقَدْ يَقَعُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ عَلَى الْقُلُوبِ شَيْءٌ مِنْ عَوَارِضِ الْيَأْسِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْوَارِدَاتِ، وَتَأْثِيرِهَا فِي الْقُلُوبِ،

ثُمَّ فِي أَسْرَعٍ وَقْتٍ تَنْجَلِي هَذِهِ الْحَالُ، وَيَصِيرُ لِنَصْرِ اللَّهِ وَصِدْقِ مَوْعُودِهِ مِنَ الْوَقْعِ
وَالْبَشَارَةِ وَالْآثَارِ الْعَجِيبَةِ أَمْرٌ كَبِيرٌ لَا يَخْصُلُ بِدُونِ هَذِهِ الْحَالَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّى إِذَا
أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] فَهَذَا الْوَارِدُ
الَّذِي لَا قَرَارَ لَهُ -وَلَمَّا حَقَّتْ الْحَقَائِقُ اضْمَحَلَّ وَتَلَاشَى- لَا يُنْكِرُ وَيُطْلَبُ لِلآيَاتِ
تَأْوِيلَاتٌ مُخَالَفَةٌ لظَاهِرِهَا.

التعليق

هَذِهِ الْآيَةُ أَشْكَلَتْ عَلَى الْعُلَمَاءِ: ﴿حَتَّى إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ
كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ وَفِيهَا قِرَاءَةٌ سَبْعِيَّةٌ: ﴿وَزَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ فَعَلَى قِرَاءَةِ
التَّشْدِيدِ؛ الْأَمْرُ فِيهَا وَاضِحٌ، يَعْنِي: تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا، فَأَيُّسُوا مِنَ التَّصْدِيقِ
﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ١١٠].

لَكِنِ الْإِشْكَالُ فِي قِرَاءَةِ: ﴿كُذِّبُوا﴾ ظَاهِرُ كَلَامِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ وَرَدَ
عَلَى قُلُوبِهِمْ أَنَّ وَعْدَهُمْ بِالنَّصْرِ لَيْسَ صَحِيحًا! وَلَكِنْ يَقُولُ الشَّيْخُ: إِنَّ هَذَا وَارِدٌ
يُضْمَحَلُّ وَيَتَلَاشَى، وَإِنَّمَا لِقُوَّةُ الْوَارِدَاتِ عَلَى الْقُلُوبِ، يَنْسَوْنَ صِدْقَ الْوَعْدِ،
فَيُظَنُّونَ هَذَا الظَّنَّ، هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ إِذْ قَالَ: كُذِّبُوا، أَي: قَدْ كُذِّبُوا
بِوَعْدِ النَّصْرِ، وَمَعْنَى ﴿كُذِّبُوا﴾: أَخْبِرُوا بِالْكَذِبِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «صَدَقَكَ
وَهُوَ كَذُوبٌ»^(١) وَهَذِهِ لَوْ بَقِيَتْ لَكَانَتْ مَطْعَنًا فِي الرُّسُلِ أَنْ يُظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمْ
فَكَذَّبَهُمْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازاه الموكل، رقم
(٢١٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن شَيْخُنَا يَقُولُ: إِنَّ هَذَا وَارِدٌ يَرِدُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَيَتَلَاشَى بِسُرْعَةٍ، وَسَبَبُ وُرُودِهِ عَلَى الْقَلْبِ قُوَّةُ الْوَارِدَاتِ الَّتِي تُوجِبُ مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ، وَيَقُولُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ هَذَا أَحْسَنُ مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَاتِ بِوُجُوهِ بَعِيدَةٍ.

وَعِنْدِي أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا قَالَ شَيْخُنَا - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي هَذَا، وَأَنَّ مَعْنَى ﴿قَدْ كَذَبُوا﴾ أَي: كَذَبَهُمْ أَقْوَامُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّا مُؤْمِنُونَ؛ لَا أَنَّهُمْ لَوْ صَدَقُوا فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّمَا مُؤْمِنُونَ لَجَاءَهُمُ النَّصْرُ؛ فَيُظَنُّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا، لَيْسَ بِخَبَرِ اللَّهِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ كَذَبَهُمْ حِينَ أَخْبَرَهُمُ بِالنَّصْرِ، وَلَكِنْ قَدْ كَذَبُوا، أَي: كَذَبَهُمْ أَقْوَامُهُمْ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّا مُؤْمِنُونَ، وَأَنَّهُ تَخَلَّفَ النَّصْرُ لِعَدَمِ إِيْمَانِ قَوْمِهِمْ.

وَحِينَئِذٍ لَيْسَ فِي الْآيَةِ مُشْكِلٌ، تَبْقَى الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا بِدُونِ إِشْكَالٍ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ يَعْنِي: اسْتَبَعَدُوا نَصَرَ اللَّهِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا مِنْ أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا مُؤْمِنُونَ، وَإِنَّا مَعَكُمْ - جَاءَهُمْ نَصْرُنَا.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّهُ أَحْسَنُ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَالْوَارِدَاتُ بِلَا شَكٍّ تَرِدُ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَيَغْفُلُ وَيَنْسَى الْحَقِيقَةَ الَّتِي هِيَ الْوَاقِعُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَسَفَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِرْعَا يُظَنُّ أَنَّهَا السَّاعَةُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ^(١)، وَكَيْفَ يَظُنُّ أَنَّهَا السَّاعَةُ، وَالسَّاعَةُ لَهَا أَشْرَاطٌ، وَلَهَا عِلَامَاتٌ لَمْ تَأْتِ؟ لَكِنْ لِقُوَّةِ الْوَارِدِ الَّذِي وَرَدَ عَلَى قَلْبِهِ نَسِيَ أَنْ يَكُونَ لِلسَّاعَةِ أَشْرَاطٌ تَتَقَدَّمُهَا.



(١) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف، رقم (٩١٢)، من حديث أبي موسى رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ، بَلْ مِنْ صَرِيحِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] أَيْ: يُلْقِي مِنَ الشُّبْهِ مَا يُعَارِضُ الْيَقِينَ. ثُمَّ ذَكَرَ الْحُكْمَ الْعَظِيمَةَ الْمُتَرْتِبَةَ عَلَى هَذَا الْإِلْقَاءِ، وَأَنَّ نِهَايَةَ الْأَمْرِ وَعَاقِبَتُهُ أَنَّ اللَّهَ يُبْطِلُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

فَقَدْ أَخْبَرَ بِوُقُوعِ هَذَا الْأَمْرِ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ لِهَذِهِ الْحُكْمِ الَّتِي ذَكَرَهَا، فَمَنْ أَنْكَرَ وَفُوعَ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ لَا رَيْبَ وَلَا شَكَّ مَعْصُومُونَ، وَظَنَّ أَنَّ هَذَا يُنَافِي الْعِصْمَةَ فَقَدْ غَلَطَ أَكْبَرَ غَلَطٍ، وَلَوْ فَهِمَ أَنَّ الْأُمُورَ الْعَارِضَةَ لَا تُؤَثِّرُ فِي الْأُمُورِ الثَّابِتَةِ لَمْ يَقُلْ قَوْلًا خَالَفَ فِيهِ الْوَاقِعَ، وَخَالَفَ نَصَّ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ.

التفصيل

وَمِنْ هَذَا عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْمُفْسِّرِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[الحج: ٥٢-٥٤] هَذِهِ الْآيَةُ تَنَازَعُ النَّاسُ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا تَنَازَعًا كَبِيرًا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الرُّسُولَ ﷺ لَمَّا قَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَلَلَّتْ وَانْعَزَى﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى ﴿[النجم: ١٩-٢٠] قَالَ حِينَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنُوءَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى﴾: تِلْكَ الْعَرَائِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شِفَاعَتَهُنَّ لَتَرْجَى! فَسَمِعَ الْمُشْرِكُونَ هَذَا الْكَلَامَ مِنَ الرُّسُولِ ﷺ وَسَجَدُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي آخِرِ السُّورَةِ. فَقَدْ سَجَدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ

الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْحِنُّ وَالْإِنْسُ^(١).

وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا، وَقَالَ: لَا يُمَكِّنُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُثْنِيَ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَيَقُولَ: تِلْكَ الْغَرَائِقُ الْعُلَى! وَأَنْكَرُوا إِنْكَارًا عَظِيمًا لِلْآثَارِ الْوَارِدَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى^(٢).

وَلَكِنْ عِنْدَ التَّامِّلِ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذَا الَّذِي سُمِعَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، لَيْسَ هُوَ قَوْلُ الرَّسُولِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلُ الشَّيْطَانِ، أَلْقَاهُ، فَسَمِعَهُ النَّاسُ، فَظَنُّوا أَنَّهُ قَوْلُ الرَّسُولِ، فَقَالُوا: هَكَذَا أَثْنَى عَلَى أَصْنَامِنَا، وَعَلَى آلِهَتِنَا! وَهُوَ - فِي الْوَاقِعِ - لَيْسَ كَلَامَ الرَّسُولِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ * فَلَعَلَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ. وَحِينَئِذٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نُبْطِلَ هَذِهِ الْآثَارَ الْوَارِدَةَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ التَّمَنِّيَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ * هُوَ أُمْنِيَّةُ الْقَلْبِ، وَلَيْسَ الْقِرَاءَةُ، يَعْنِي: أَنَّ الرَّسُولَ أَوْ النَّبِيَّ يَتَمَنَّى، وَلَكِنْ الشَّيْطَانُ يُفْسِدُ عَلَيْهِ أُمْنِيَّتَهُ، وَيَحْوِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَهَذَا ضَعِيفٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ * أَيُّ: قَرَأَ، أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، بَاعْتِبَارِ مَنْ سَمِعُوا هَذِهِ الْقِرَاءَةَ، فَيُلْقِي فِي قُلُوبِ أَنْاسٍ شَكًّا وَشُبْهَةً، وَيُلْقِي فِي قُلُوبِ الْآخَرِينَ يَقِينًا وَثَبَاتًا ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(١) أخرجه البخاري: أبواب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرِك نجس ليس له وضوء، رقم (١٠٧١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرج قصة الغرائق البزار (٥٠٩٦)، والطبري (٦٠٧/١٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/٥٣ رقم ١٢٤٥٠)، والضياء في المختارة (٨٩/١٠ رقم ٨٤)، من حديث ابن عباس

حَكِيمٌ ﴿ فَيَكُونُ هَذَا الْإِلْقَاءُ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ السَّامِعِ مِنْ شُبُهَاتٍ حَوْلَ الْقُرْآنِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ.

لكن سِياقُ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ قَوْلٌ يُسْمَعُ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ الْقُرْآنُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْسَخُ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلَ، وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهُ، وَيُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ. وَالنَّسْخُ مَعْنَاهُ هُنَا: أَنْ يُنْسِيَهُمْ إِيَّاهُ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ، وَيَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَأَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلَيْسَ صَوَابًا.

وَقَدْ رُوِيَ قِصَّةُ الْغَرَانِيقِ بِطُرُقٍ ضَعِيفَةٍ، وَبَعْضُهُمْ يُنْكِرُهَا إِنْكَارًا عَظِيمًا، حَتَّى عَنَوْنَ بَعْضُهُمْ فِي الْكُتُبِ الَّتِي أَلْفَهَا (نَضَبُ الْمَجَانِيقِ فِي نَسْفِ قِصَّةِ الْغَرَانِيقِ). وَنَحْنُ نَقُولُ: وَلَيْكُنْ هَذَا ضَعِيفًا، لَكِنْ الشَّيْطَانُ يُلْقِي فِي الْقِرَاءَةِ، سَوَاءَ الْغَرَانِيقِ أَوْ غَيْرِهَا. وَالَّذِينَ ضَعَّفُوهُ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ، بَلْ يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ بِصَوْتِ الشَّيْطَانِ، مُقَلِّدًا لِمِصْرَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: هِيَ لَا تَضُرُّ، سَوَاءَ صَحَّتْ أَوْ لَمْ تَصَحَّ، مَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ يَنْسَخُ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ، وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ، فَلَيْسَ فِيهِ إِشْكَالٌ. ثُمَّ إِنَّ الْآيَةَ صَرِيحَةٌ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُلْقِيهَا، وَلَيْسَ الرَّسُولُ يَتْلُوهَا، مَا قَالَ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى قَالَ فِي أُمْنِيَّتِهِ كَذَا وَكَذَا، بَلْ قَالَ: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.



وَمِنْ هَذَا - عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْمُفَسِّرِينَ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وَأَنَّهُ ظَنَّ عَرَضٌ فِي الْحَالِ ثُمَّ زَالَ، نَظِيرُ الْوَسَاوِسِ الْعَارِضَةِ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ الَّتِي يَكْرَهُهَا الْعَبْدُ حِينَ تَرِدُ قَلْبَهُ، وَلَكِنْ إِيْمَانُهُ وَيَقِينُهُ يُزِيلُهَا وَيُذْهِبُهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ عِنْدَمَا شَكَى إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي أَفْلَقَتْهُمْ مُبَشِّرًا لَهُمْ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ»^(١).

وَيُشَبِّهُ هَذَا: الْعَوَارِضُ الَّتِي تَعْرِضُ فِي إِرَادَاتِ الْإِيمَانِ لِقُوَّةٍ وَارِدٍ مِنْ شَهْوَةٍ، أَوْ غَضَبٍ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ كَامِلَ الْإِيمَانِ قَدْ يَرِدُ فِي قَلْبِهِ هَمٌّ وَإِرَادَةٌ لِفِعْلِ بَعْضِ الْمَعَاصِي الَّتِي تُنَافِي الْإِيمَانَ الْوَاجِبَ، ثُمَّ يَأْتِي بِرُهَانِ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةٍ مَا مَعَ الْعَبْدِ مِنَ الْإِنَابَةِ التَّامَّةِ، فَيَدْفَعُ هَذَا الْعَارِضَ. وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَنَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤] وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَمُرَاقَبَةِ اللَّهِ، وَخَوْفِهِ، وَرَجَائِهِ -دَفَعَ عَنْهُ هَذَا الْهَمَّ، وَاضْمَحَلَّ، وَصَارَتْ إِرَادَتُهُ التَّامَّةَ فِيمَا يُرِضِي رَبَّهُ؛ وَلِهَذَا بَعْدَ الْمُعَاجِزَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ مِنَ الْخَلْقِ، قَالَ ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ الْآيَةُ [يوسف: ٣٣].

وَكَانَ أَحَدَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ^(٢)...

(١) أخرجه أبو داود: أبواب النوم، باب في رد الوسوسة، حديث رقم (٥١١٢)، وأحمد (١/ ٢٣٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التعاقب

هَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الصَّوَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ
بِئْسَ وَهَمٌ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ مُدَلَّلَةٌ، امْرَأَةُ الْمَلِكِ، عَلَيْهَا مِنَ الْحِلِّيِّ وَالثِّيَابِ
وَالجَمَاهِلِ وَالْبَهَاءِ، مَا يُوجِبُ تَعَلُّقَ النَّفْسِ بِهَا، فَدَعَتْهُ فِي مَوْضِعٍ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِمَا إِلَّا اللَّهُ؛
لِأَنَّهَا أَغْلَقَتِ الْأَبْوَابَ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا هَذِهِ الْمَرْأَةُ، دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا وَهُوَ شَابٌّ فِيهِ
مَا فِي الرِّجَالِ، ف﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِئْسَ وَهَمٌ بِهَا﴾ أَيْضًا، لَكِنْ مَنَعَهُ أَنَّهُ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ،
رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَرَأَى مَا مَعَهُ مِنَ الْيَقِينِ، وَنُورِ الْإِيمَانِ، فَامْتَنَعَ.

وَهَذَا لَا يَضُرُّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا رُتْبَةً وَفَضْلًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي
هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي وُجِدَ السَّبَبُ فِيهَا وَانْتَهَى الْمَانِعُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهُ اللَّهُ -صَارَ أَعْظَمَ
مَنْزِلَةً وَأَعْلَى دَرَجَةٍ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَمٌّ بِهَا، فَهُوَ إِذَا لَمْ يَهَمَّ بِهَا لَمْ يَكْتَرِثْ، لَكِنْ إِذَا
هَمَّ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعَ وَتَرَكَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، صَارَ هَذَا أَعْظَمَ، فَهَذَا مَذْحٌ وَثَنَاءٌ
لِيُوسُفَ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: لِأَنَّ مَعْنَى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أَيْ: بَصُرَ بِهَا، فَهَذَا مِنْ أَفْسَادِ الْأَقْوَالِ؛
لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ ضَرْبُهَا حَقًّا، فَإِنَّ بُرْهَانَ رَبِّهِ لَا يَضُرُّهُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَمَعْنَى
ذَلِكَ أَنَّهَا فَعَلَتْ مَا لَا تَسْتَحِقُّ الضَّرْبَ عَلَيْهِ، فَهَذَا التَّفْسِيرُ، لَا شَكَّ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَأَنَّ
الْمَعْنَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا، وَكَذَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ حَقِيقِيٌّ.

وَهَذَا الْبُرْهَانُ الَّذِي رَأَاهُ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ رَأَى أَبَاهُ يَعْقُوبَ يَعْضُ يَدَيْهِ
وَأَنَامِلَهُ، يَقُولُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ! ^(١) وَهَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْأَبَ لَا يُسَمَّى بُرْهَانًا،

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ٩٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن البرهان ما معه من الإيمان والعلم بالله سبحانه وتعالى والخوف منه، وهذا هو الذي منعه.

والحاصل: أن مثل هذه العوارض - كما قال شيخنا رحمه الله تعالى - لا تؤثر على الأمور الثوابت الراسخة؛ لأنها عوارض تأتي وتزول. قد يعرض على القلب، ولا سيما قلوب المؤمنين، شيء من الشك والجحود والكفر، ولكن كل هذا يزول مع الإيمان. حتى إنه يصور للرجل إذا قام يصلي كأنها يصلي لأبيه، أو لأخيه، أو لعلمه، أو ما أشبه ذلك، ولكن هذا كله يزول بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والانتهاء عنه.



... وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] يشمل الطائفة الذي يعرض في أصل الإيمان، والذي يعرض في إرادته، فإذا مَسَّهُمْ تَذَكَّرُوا مَا يَجِبُ مِنْ يَقِينِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ وَاجِبَاتِهِ، فَأَبْصَرُوا، فَرَجَعَ الشَّيْطَانُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَعَلَّ مِنْ هَذَا قَوْلُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوْءَاوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(١) يَعْنِي: وَهُوَ اللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، لَكِنْ غَلَبَ عَلَىٰ لُوطٍ ﷺ تِلْكَ الْحَالُ الْحَرِجَةُ، وَالنَّظَرُ لِلْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ، فَقَالَ مَا قَالَ، مَعَ عِلْمِهِ التَّامِّ بِقُوَّةِ ذِي الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿وَيَنْتَهُم عَنْ صَفِيفٍ إِيْتَاهِمَ﴾، رقم ٣٣٧٢، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب، رقم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التعاليق

لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]
 يعني: إِلَى قَوْمٍ يَمْنَعُونَنِي وَيَعْصِمُونَنِي وَيُعِينُونَنِي. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
 «رَحِمَ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»^(١) وَهُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، لَكِنَّهُ فِي تِلْكَ
 الْحَالِ الْحَرِجَةِ - كَمَا قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ - غَابَ عَنْهُ مَا سِوَى الْأَسْبَابِ الْحَسَنَةِ، وَهُمْ
 الْقَرَابَةُ وَالْقَوْمُ الَّذِينَ يَحْمُونُهُ وَيَمْنَعُونُهُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب، رقم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القاعدة الخامسة والستون:

قَدْ أَرْشَدَ الْقُرْآنُ إِلَى مَنَعِ الْأَمْرِ الْمُبَاحِ إِذَا كَانَ يُفْضِي إِلَى مُحَرَّمَ
أَوْ تَرْكِ وَاجِبٍ

وهذه القاعدة وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَهِيَ مِنْ قَاعِدَةٍ: «الْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ».

التفصيل

إِذَا كَانَ الْمُبَاحُ يُفْضِي إِلَى الْمُحَرَّمَ كَانَ حَرَامًا، وَإِذَا كَانَ يُفْضِي إِلَى وَاجِبٍ كَانَ وَاجِبًا، فَتَجَرِي فِيهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسَةُ. وَيَقُولُ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ مِنْ قَاعِدَةٍ: «الْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ» يَعْنِي: مَا كَانَ وَسِيلَةً لِلشَّيْءِ فَلَهُ حُكْمُ ذَلِكَ الشَّيْءِ، فَالْوَسِيلَةُ لِلوَاجِبِ وَاجِبَةٌ، وَمِثَالُهُ: الْوُضُوءُ لِلصَّلَاةِ وَاجِبٌ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ الْوُضُوءُ إِلَّا بِشِرَاءِ الْمَاءِ، كَانَ شِرَاءُ الْمَاءِ وَاجِبًا. وَمَا كَانَ وَسِيلَةً لِلْمُحَرَّمَ كَانَ حَرَامًا؛ مِثَالُهُ: لَوْ أَنَّ شَخْصًا جَاءَ يَشْتَرِي وِعَاءً لِلخَمْرِ، قُلْنَا: الْبَيْعُ عَلَيْهِ حَرَامٌ.

وَالْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: «مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ» لَكِنْ قَاعِدَةٌ: «الْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ» أَعَمُّ. وَعَلَى هَذَا تَكُونُ هِيَ الْقَاعِدَةُ الْمُعْتَبَرَةُ.

فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

وَقَدْ وَرَدَ بَعْضُ آيَاتِ تَذَلُّ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْكَبِيرِ؛ فَلَا مُؤَرَّ الْمُبَاحَةُ هِيَ بِحَسَبِ مَا يُتَوَسَّلُ بِهَا إِلَيْهِ، إِنْ تُوسَّلَ بِهَا إِلَى فِعْلٍ وَاجِبٍ أَوْ مَسْنُونٍ كَانَتْ مَأْمُورًا بِهَا، وَإِنْ تُوسَّلَ بِهَا إِلَى فِعْلٍ مُحَرَّمٍ أَوْ تَرْكِ وَاجِبٍ كَانَتْ مُحَرَّمَةً مِنْهَا عَنْهَا، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَالْغَائِيَّةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

التفصيل

الْأُمُثْلَةُ وَاضِحَةٌ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الْأَصْلُ فِي سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ الْإِبَاحَةُ، بَلْ قَدْ يَجِبُ، فَإِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى سَبِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ جَلَّوَعَلَا -بِخِلَافِ آلِهَتِهِمْ- كَانَ مُحَرَّمًا.

وَالضَّرْبُ بِالرَّجْلِ، الْأَصْلُ فِيهِ الْإِبَاحَةُ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَضْرِبُ بِرِجْلِهَا لِيُعْلَمَ مَا تُخْفِي مِنْ زِينَتِهَا صَارَ حَرَامًا، فَلَا يَحُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُبْدِيَ شَيْئًا مِنْ حُلِيِّهَا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ مَعَ أَنَّهَا تُعْلَمُ وَلَا تُرَى. فَكَيْفَ إِذَا لَبَسَتِ الْمَرْأَةُ حُلِيًّا جَذَابًا، فِي ذِرَاعَيْهَا، أَوْ فِي سَاقَيْهَا، وَأَخْرَجَتْ ذَلِكَ لِلنَّاسِ؟! فَإِنَّهُ يَكُونُ أَشَدَّ تَحْرِيمًا.

ثَالِثًا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ والأصل في البيع والشراء أَنَّهُ حَلَالٌ مُبَاحٌ، فَإِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ وَاجِبٍ - وَهُوَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ - كَانَ حَرَامًا، فَقَدْ بَيَّنَّ بَاطِلُ؛ لِأَنَّهُ مِنْهُيٌّ عَنْهُ بِخُصُوصِهِ بَعْدَ الْأَذَانِ الثَّانِي، الَّذِي عِنْدَ مَجِيءِ الْإِمَامِ لَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَعْرُوفُ الْمَعْهُودُ عِنْدَ نَزُولِ الْآيَةِ، فَتَحَمَّلُ الْآيَةُ عَلَيْهِ، وَهَلْ يَنْطَلُ سَائِرُ الْعُقُودِ كَالنِّكَاحِ؟

يَقُولُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ لَا يَنْطَلُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَعًا، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا إِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبَيْعِ. وَلَكِنْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبَيْعِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَكْثَرُ وَالْمُعْتَادُ، وَلِأَنَّهُ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ الصَّحَابَةَ يَخْرُجُونَ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ ﷺ لِيَتَلَقَّوْا هَذِهِ التِّجَارَةَ، فَيَكُونُ ذِكْرُ الْبَيْعِ لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّخْصِيسِ، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْغَالِبِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا أَلْهَى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَعَنْ حُضُورِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ يَقَعُ بَاطِلًا.

وَقَدْ يَتَرَجَّحُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ التَّخْصِيسُ بِالْبَيْعِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَدْ يَرِدُ غَالِبًا، لَوْ أَنَّكَ فَكَّرْتَ فِي مُعَامَلَاتِ النَّاسِ لَوَجَدْتَ الْبَيْعَ يَقَعُ كَثِيرًا فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَعَقْدُ النِّكَاحِ قَلِيلٌ نَادِرٌ، وَالْأَقْرَبُ بَيِّنًا يَكُونُ الْإِنْشَغَالُ بِعَقْدِ النِّكَاحِ أَشَدَّ مِنَ الْإِنْشَغَالِ بِالْبَيْعِ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: الْأَمْرُ فِيهِ سَعَةٌ. نَقُولُ: بَدَلُ أَنْ يَعْقِدَ فِي هَذَا الْوَقْتِ فَلْيُؤَخِّرْ، وَالْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ: يَصِحُّ النِّكَاحُ وَسَائِرُ الْعُقُودِ مَا عَدَا الْبَيْعَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ كَالْإِجَارَةِ. أَمَّا النِّكَاحُ وَبَقِيَّةُ الْعُقُودِ فَتَصَحُّ. وَعَلَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّهَا نَادِرَةٌ، وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ.

وفيه وجه آخر في المذهب: أَنَّ النِّكَاحَ وَسَائِرَ الْعُقُودِ لَا تَصَحُّ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ الْمَوْجُودَةَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْبَيْعِ مَوْجُودَةٌ فِي هَذِهِ الْعُقُودِ^(١).

(١) المغني (٣/ ١٦٤).

القاعدة السادسة والستون:

مِنْ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَسْتَدِلُّ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ عَلَى مَا صَدَرَتْ عَنْهُ
مِنْ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ

وهذه قاعدة جليّة، فإن أكثر الناس يقصّر نظره على نفس اللفظ الدال على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت صدور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلى الأمرين، ويعرف أن هذا لهذا، وهذا ملازم لهذا، وقد تقدّم ما يقارب هذا المعنى الجليل، ولكن لشدّة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر، فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ [الفرقان: ٦٣] وذلك صادر عن وقارهم، وسكيتهم، وخشوعهم، وعن حلمهم الواسع، وخلقهم الكامل، وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين.

ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ آلَيْنٍ وَٱلْأَنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] يدلّ مع ذلك على حسن إدارة الملك، وكمال السياسة، وحسن النظام...

التعاليق

يعني: كلّ في عمله الخاص، وهذا لا شك دليل على حسن إدارة الملك؛ لأننا لو جعلنا الأعمال كلّها عند طائفة واحدة، أو عند شخص واحد، لانهارت أعصابه،

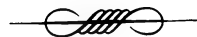
وَعَجَزَ عَنْ تَذْيِيرِ الْمُلْكِ، فَإِذَا وُزِعَتْ، وَقَالَ: هَذَا عَلَى الْمَالِ، وَهَذَا عَلَى السِّيَاسَةِ، وَهَذَا عَلَى كَذَا، فَهُوَ خَيْرٌ.



... وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيْنَ﴾ [القصص: ٥٥] يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَنَزَاهَةِ النَّفْسِ عَنِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَعَلَى سَعَةِ عُقُولِهِمْ، وَقُوَّةِ جِلْمِهِمْ وَاحْتِمَالِهِمْ. وَمِثْلُ الْإِخْبَارِ عَنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بِتَقْتِيلِ أَوْلَادِهِمْ خَشْيَةَ الْفَقْرِ، أَوْ مِنَ الْإِمْلَاقِ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ هَلَعِهِمْ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بَرَبِّهِمْ، وَعَدَمِ ثِقَتِهِمْ بِكَفَايَتِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَنْ أَعْدَاءِ رَسُولِهِ: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧] يَدُلُّ عَلَى سُوءِ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ، وَلَا يُتِمُّ كَلِمَتَهُ. وَأُمُثْلُهُ هَذَا الْأَصْلُ كَثِيرَةٌ وَاضِحَةٌ لِكُلِّ صَاحِبِ فِكْرَةٍ حَسَنَةٍ.

التعاليق

مَعْنَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الْأَفْعَالَ وَالْأَقْوَالَ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ شَخْصٍ اسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى حَالِهِ، كَمَا لَا كَانَ أَوْ نَقْصًا. فَإِذَا وَجَدْنَا هَذَا الرَّجُلَ -مَثَلًا- مُتَأَنِّيًا فِي أُمُورِهِ، مُتَدَبِّرًا لِمَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ، اسْتَدَلَّلْنَا بِذَلِكَ عَلَى كَمَالِ عَقْلِهِ، وَوُفُورِ ذَهْنِهِ. وَإِذَا رَأَيْنَا الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ، اسْتَدَلَّلْنَا عَلَى سُوءِ عَقْلِهِ وَتَذْيِيرِهِ، فَيُسْتَدَلُّ بِالْآثَارِ عَلَى الْمُؤَثِّرِ. هَذَا هُوَ الْخُلَاصَةُ: أَنَارُ الشَّيْءِ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مُؤَثِّرِهَا.



القاعدة السابعة والستون:

يُرْشِدُ الْقُرْآنُ إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْأَمْرِ الْمَعْلُومِ الْمَحَقَّقِ
عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَالتَّوَهُّمَاتِ

وهذه قاعدة جليلة يُعَبَّرُ عَنْهَا: «أَنَّ الْمَوْهُومَ لَا يَدْفَعُ الْمَعْلُومَ، وَأَنَّ الْمَجْهُولَ لَا يُعَارِضُ الْمُتَيَقَّنَ» وَنَحْوَهَا مِنَ الْعِبَارَاتِ. وَقَدْ أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، وَأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ فِي الْمُسْتَبْهَاتِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. فَالْأُمُورُ الْمُحْكَمَةُ الْمَعْلُومَةُ يَتَعَيَّنُ أَنْ يُرْجَعَ إِلَيْهَا الْأُمُورُ الْمُسْتَبْهَةُ الْمَظْنُونَةُ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي رَجْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْقَدَحِ فِي إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] فَأَمَرَهُمُ بِالرَّجُوعِ إِلَى مَا عَلِمَ مِنْ إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ، وَأَنْ يَعْتَبِرُوا هَذَا الْأَصْلَ الْمَعْلُومَ، وَلَا يَعْتَبِرُوا كَلَامَ مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يُنَاقِضُهُ وَيَقْدَحُ فِيهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩] فَوَجَّاهْتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَدْفَعُ عَنْهُ وَتُبْرِئُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ قَالَهُ فِيهِ مَنْ آذَاهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ وَجِيهاً عِنْدَ رَبِّهِ حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ جَمِيعِ الْمُنْقِصَاتِ، وَيَتَحَلَّى بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ اللَّائِقَةِ بِأَمثَالِهِ مِنْ أُولِي الْعِزِّمِ، فَيُحَدِّثُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ

يَسْلُكُوا مَسْلَكَ مَنْ آذَى مُوسَىٰ مَعَ وَجَاهَتِهِ، فَيُؤْذُوا أَكْثَرَ الرُّسُلِ جَاهًا عِنْدَ اللَّهِ،
وَأَرْفَعَهُمْ مَقَامًا وَدَرَجَةً. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]
﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبا: ٦].



القاعدة الثامنة والستون:

ذَكَرَ الْأَوْصَافِ الْمُتَقَابِلَاتِ يُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْمُفَاضَلَةِ
إِذَا كَانَ الْفَرْقُ مَعْلُومًا

وهذه القاعدة في القرآن كثير، يذكرها في المقامات المهمة، كالمقابلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وبين إلهيته الحق وإلهية ما سواه، فيذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة متفاوت بينها، ويدع التصريح بالمفاضلة إلى العقلاء، قال تعالى: ﴿أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٥٩] ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والآيات التي بعدها [النمل: ٥٩-٦٠] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنَادُونَ أَمْرٌ آلَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاقْبَلُوا ذِكْرَ اللَّهِ وَلْيُنَاسِخْهُ بَشِيرٌ أَوْ نَذِيرٌ﴾ [الزمر: ٩] وقال تَفَرُّوْكَ ﴿[يونس: ٥٩] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال مِثْلَهَا: ﴿أَمِنْ هُوَ فَنِتْ إِتَاءَ الْإِلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة لعلمه من المقام؛ فقولُه: ﴿أَمِنْ هُوَ فَنِتْ إِتَاءَ الْإِلِّ﴾ [الزمر: ٩] إلى آخرها، يعني: كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب، كقولِه: ﴿أَمِنْ يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وَلَمَّا ذَكَرَ أَوْصَافَ الرَّسُولِ الدَّاعِي، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَأَعْظَمَ النَّاسِ مُعَارَضَةً لَهُ
 قَالَ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحُسْنٍ
 ٥ بِأَيْتِكُمُ الْفَتْحُونَ﴾ [القلم: ٥-٦] ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾
 [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]
 وذلك أَنَّهُ إِذَا مُيزَتِ الْأَشْيَاءُ تَمْيِيزًا تَمَامًا، وَعُرِفَتْ مَرَاتِبُهَا فِي الْحَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْكَمَالِ
 وَالنَّقْصِ - صَارَ التَّضَرُّيْحُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْتَّفْضِيلِ لَا مَعْنَى لَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التعليق

السُّؤَالُ عَنِ الشَّيْءِ الْمَعْلُومِ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يُجَابَ عَنْهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
 مَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ خَيْرٌ! ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] إِلَى آخِرِهِ. وَهَكَذَا، فَالشَّيْءُ الْمَعْلُومُ
 لَوْ ذُكِرَ لَكَانَ الْكَلَامُ فِيهِ لَعَوًّا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا
 يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يَعْنِي: كَمَنْ هُوَ غَافِلٌ، لَا يَقْنُتُ فِي اللَّيْلِ وَلَا فِي النَّهَارِ،
 عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَهَكَذَا، فَإِنَّ الشَّيْءَ الْمَعْلُومَ يُغْنِي عَنْهُ ذِكْرُ
 مَا يُقَابِلُهُ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ أَنَّهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ.



القاعدة التاسعة والستون:

مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة:

فَمِنْهَا: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا أوطَانَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَحْبَابَهُمْ لِلَّهِ، فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ الرِّزْقَ الْوَاسِعَ فِي الدُّنْيَا، وَالْعِزَّ وَالتَّمَكِينَ. وَإِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمَّا اعْتَزَلَ قَوْمَهُ وَأَبَاهُ، وَمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَالدَّرِّيَّةَ الصَّالِحِينَ. وَسُلَيْمَانَ ﷺ لَمَّا أَلْهَتْهُ الْحَيْلُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَاتَّلَفَهَا عَوَّضَهُ اللَّهُ: ﴿الرَّيْحَ يَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [ص: ٣٦] ﴿وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ [ص: ٣٧].

وَأَهْلَ الْكَهْفِ لَمَّا اعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبَ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَيَّا لَهُمْ أَسْبَابَ التَّوْفِيقِ وَالرَّاحَةِ، وَجَعَلَهُمْ هِدَايَةً لِلضَّالِّينَ.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وَمَنْ تَرَكَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى، عَوَّضَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ مَا يَفُوقُ جَمِيعَ لَذَاتِ الدُّنْيَا.

التفصيل

هَذَا شَيْءٌ مُشَاهِدٌ؛ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَرَكَ حَافِظَ اللَّهِ عَزَّجَلْ، خَوْفًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ فِي قَلْبِهِ لَذَّةً وَحَلَاوَةً، وَحُبًّا لِلْخَيْرِ، لَا يُمَكِّنُ

أَنْ يُوصَفَ. وَإِذَا انْغَمَسَ الْإِنْسَانُ فِي شَهَوَاتِهِ، وَفِي لَهْوِهِ وَغَفْلَتِهِ، صَارَتْ هَذِهِ الشَّهَوَاتُ وَالْغَفْلَةُ - وَاللَّهُ - حَسْرَةً عَلَيْهِ، وَتَجِدُهُ يَكُونُ مُتَقَبِّضًا، إِذَا فَارَقَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ طَرَفَةً عَيْنٍ.

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا اسْتَسَلَّمَ لِدَبْحِ ابْنِهِ، وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَرَثَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا الْخُلَّةَ، فَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا.

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] قَالَ الْعُلَمَاءُ وَالْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ صَارَ يَضْرِبُ رِقَابَهَا وَأَرْجُلَهَا. السُّوقُ: جَمْعُ سَاقٍ، وَالْأَعْنَاقُ وَاضِحَةٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ غَضِبَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، عَلَى نَفْسِهِ، وَحَرَّمَ نَفْسَهُ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي أَلْهَتْهُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَإِتْلَافُ الْمَالِ لِلْمَصْلَحَةِ جَائِزٌ، مِثَالُهُ: إِتْلَافُ الْمَالِ لِلنِّكَاحِيَّةِ، فَالْغَالُ مِنَ الْغَنِيمَةِ يُحْرِقُ رَحْلُهُ! وَلَا يُجْعَلُ مَعَ الْغَنِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ أَتَكَى. وَإِلَّا لَقُلْنَا: كُلُّ الْعُقُوبَةِ بِالْمَالِ تُنْسَخُ! وَلَكِنْ نَقُولُ: مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى إِتْلَافِهِ مِنَ الْمَصَالِحِ أَكْثَرُ مِنْ كَوْنِهِ مَالًا.

وَلَكِنْ هَلْ مِنَ الْمَشْرُوعِ لَنَا إِذَا أَلْهَانَا شَيْءٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَنْ تُتْلَفَ؟ نَعَمْ، لَا مَانِعَ أَنْ تُتْلَفَ لِأَجْلِ تَغْزِيرِ النَّفْسِ وَرَدِّعِهَا، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ؛ لِأَنَّ ضَرَرَهَا عَلَيْكَ.

وَالزَّوْجَةُ إِذَا أَلْهَتْهُ عَنِ الصَّلَاةِ هَلْ يُشْرَعُ أَنْ يُطَلَّقَهَا؟

يُنْظَرُ فِي هَذَا، وَإِلَّا لَا شَكَّ أَنَّهَا إِذَا أَلْهَتْهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ أَنَّ هَذَا مِنْ شُؤْمِ الْمَرْأَةِ، أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِإِلْهَاءِ الْإِنْسَانِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا اللَّذِيكَ ءَامِنُوا

إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴿١٤﴾ [التغابن: ١٤] فَبَيَّنَ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ مِنْ أَزْوَاجِنَا مَنْ يَكُونُ عَدُوًّا لَنَا، وَيُحَذِّرُنَا مِنْ ذَلِكَ.

وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، تَحْذِرُ بَعْضُ النِّسَاءِ تَطَلُّبُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَذْهَبَ بِهَا إِلَى السِّينِمَا،
وَأَنْ يُسَافِرَ بِهَا إِلَى الْخَارِجِ، وَأَنْ يُمَكِّنَهَا مِنْ رُؤْيَا النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ،
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَبَعْضُ النَّاسِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لَيْسَ لَهُ إِلَّا الشَّهْوَةُ فَقَطْ، فَهَذِهِ الْمَرْأَةُ
مَحَلُّ شَهْوَتِهِ، لَا يُهِمُّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِكُلِّ مَا تُرِيدُ، فَيَبْطِلُ رُجُولَتُهُ عِنْدَ وُجُودِ شَهْوَتِهِ.



القاعدة السبعون:

القرآن كِفِيلٌ بِمُقَاوَمَةِ جَمِيعِ الْمُفْسِدِينَ وَلَا يَعْصِمُ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ إِلَّا التَّمَسُّكُ بِأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ

قَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْكَبِيرِ فِي دَعْوَةِ الْقُرْآنِ إِلَى الْإِصْلَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَفِي طَرِيقَتِهِ فِي مَحَاجَّةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، وَفِي سِيَاسَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ - مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، وَيُعَرِّفُ الْخَلْقَ أَنَّ الْعِصْمَةَ مِنَ الشُّرُورِ كُلِّهَا التَّمَسُّكُ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَأُصُولِهِ، وَعَقَائِدِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَآدَابِهِ، وَأَعْمَالِهِ.

ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشرِّ والفسادِ نوعان:

أحدهما: الْمُبْطِلُونَ فِي عَقَائِدِهِمْ، وَأَدْيَانِهِمْ، وَمَذَاهِبِهِمْ، الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَيْهَا، ففِي الْقُرْآنِ مِنَ الْاِخْتِجَاجِ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى فَسَادِ أَقْوَالِهِمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ، لَا يَأْتِي مُبْطِلٌ بِقَوْلٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ بَيَانُهُ بِالْحَقِّ الْوَاضِحِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ؛ ففِيهِ الرَّدُّ عَلَى جَمِيعِ الْمُبْطِلِينَ مِنَ الدَّهْرِيِّينَ، وَالْمَادِّيِّينَ، وَالْمُعْطَلِينَ، وَالْمُشْرِكِينَ، وَالْمُتَمَسِّكِينَ بِالْأَدْيَانِ الْمُبْدَلَةِ وَالْمُنْسُوخَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْأُمِّيِّينَ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] يَذْكُرُ اللَّهُ حُجَجَ هَؤُلَاءِ وَيَنْقُضُهَا، وَيُبْذِرُ مِنَ الْأَسَالِبِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي إِفْسَادِهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ. وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ.

النَّوعُ الثَّانِي مِنَ الْمُقَاوِمِينَ لِلْأَدْيَانِ، وَالْدُّنْيَا، وَالسِّيَاسِيَّاتِ، وَالْحَقُوقِ: الشُّيُوعِيُّونَ

الَّذِينَ انْتَشَرَ شَرُّهُمْ، وَتَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ، وَسَرَتْ دَعَائِيَّتُهُمْ فِي طَبَقَاتِ الْخَلْقِ سَرِيانَ النَّارِ فِي الْعُشْبِ الْهَشِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مَا يَرُدُّ صَوْلَتَهُمْ، وَيَقْمَعُ شَرَّهُمْ، وَإِنَّمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأُصُولِ، وَالْعَقَائِدِ، وَالْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَاتِ مَا يُمَكِّنُ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ فَسَادُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ.

ولكن -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَالذِّينُ الْقَوِيمُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِمُقَاوَمَةِ هَؤُلَاءِ، كَمَا تَكَفَّلَ بِمُقَاوَمَةِ غَيْرِهِمْ، وَفِيهِ مِنَ الْأُصُولِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ الرَّاقِيَةِ مَا يَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْهَزِمِينَ، فَمَا فِيهِ مِنَ الْعَدْلِ، وَوُجُوبِ الْحُقُوقِ الْعَادِلَةِ بَيْنَ طَبَقَاتِ النَّاسِ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ، وَمَا فِيهِ مِنْ إِجْبَابِ الزَّكَاةِ، وَالْإِلْزَامِ بِهَا، وَدَفْعِ حَاجَاتِ الْفُقَرَاءِ وَالْمُضْطَرِّينَ، وَوُجُوبِ الْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ، وَوُجُوبِ حِفْظِ الْأَمْلاكِ وَالْحُقُوقِ -كُلُّ هَذَا أَعْظَمُ سَدٍّ، وَأَحْكَمُ حِصْنٍ، لِلِوَقَايَةِ مِنْ شُرُورِ هَؤُلَاءِ الْمَفْسِدِينَ.

وكَذَلِكَ مَا حَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ لُزُومِ الْآدَابِ الْعَالِيَةِ، وَالْأَخْلَاقِ السَّامِيَةِ، وَالْأُخُوَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَالرَّابِطَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ -يَمْنَعُ مِنْ تَغْلُغْلِ شُرُورِهِمُ الَّتِي طَرِيقُهَا الْأَقْوَمُ تَحْلِيلُ الْأَخْلَاقِ، وَانْحِلَالُ الْآدَابِ، وَتَحُلُّلُ الرِّوَابِطِ النَّافِعَةِ، وَالثَّوْرَةُ الْعَامَّةُ عَلَى الرَّأْسَالِيِّينَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ وَيَمْنَعُونَ.

فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية، والتسلط على العباد بالقهر، والاستعباد، والطمع، والجشع -فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج، المخرب، المدمر ما مرَّ عليه؛ فما معهم سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تُجابه قوتهم؛ لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العِصْمَةُ والقُوَّةُ المَعْنَوِيَّةُ، والصَّلاحُ والإِصلاحُ،

وَالْعَدْلُ، وَدَفْعُ الظُّلْمِ، وَالْآدَابُ وَالْأَخْلَاقُ الْعَالِيَةُ الَّتِي لَا تُزْعَزِعُهَا عَوَاصِفُ
الْخَرَابِ؛ بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، فَتَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، فَإِذَا جَاءَ هَؤُلَاءِ
الْمُفْسِدُونَ بِالتَّعْطِيلِ الْمَحْضِ، وَالْإِنْكَارِ الصَّرْفِ أَبْدَى الْقُرْآنُ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ
عَلَى وُجُودِ اللَّهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِهِ وَصِدْقٍ مَنْ جَاءَ بِهِ مَا تَصَدَّقَ لَهُ
الْجِبَالُ، وَتَخَضَّعَ لَهُ فُحُولُ الرِّجَالِ.

وَإِذَا تَسَرَّبَ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ بِتَوَسُّطِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَانْجِلَالِ الْآدَابِ
الْجَمِيلَةِ، وَوَجَدُوا مَسْلَكًا فِي هَذَا الطَّرِيقِ يُعِينُهُمْ عَلَى تَنْفِيزِ بَاطِلِهِمْ -جَاءَهُمْ هَذَا
الْقُرْآنُ بِالْحَثِّ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْآدَابِ الْجَمِيلَةِ، الَّتِي
لَا تَدْعُ لِلشَّرِّ عَلَى صَاحِبِهَا سَبِيلًا.

وَإِذَا صَالُوا بِالْفَقْرِ وَالْفُقَرَاءِ، وَوُجُوبِ الْمُسَاوَاةِ، وَاحْتَجُّوا عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ
بِالْاِخْتِكَارِ وَالسَّيْطَرَةِ، وَاسْتِعْبَادِهِمْ لِلْعِبَادِ، وَاسْتِبْدَادِهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَمْوَالِ، وَلَمْ
يَجِدْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ بِهِمْ طَاقَةٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ -تَصَدَّى هَذَا الْقُرْآنُ
الْعَظِيمُ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ، وَإِجَابِهِ الْحَقُوقَ الْمُتَنَوِّعَةَ -الدَّافِعَةَ لِلْحَاجَاتِ كُلِّهَا بَعْدَ قِيَامِهَا
بِالضَّرُورَاتِ -لِصَدِّهِمْ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ، وَإِبْطَالِ كُلِّ مَا بِهِ يَصُولُونَ وَيَجُولُونَ.

ثُمَّ إِذَا بَرَزَ بِصَلَاحِهِ وَإِصْلَاحِهِ الْعَظِيمِ، وَنِظَامِهِ الْحَكِيمِ، وَهَدْيِهِ الْقَوِيمِ،
وَحَثَّهُ عَلَى سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَنُورِهِ السَّاطِعِ، وَحُجَجِهِ الْقَوَاطِعِ -لَمْ يَبْقَ فِي
وَجْهِهِ بَاطِلٌ إِلَّا مُحَقَّقُهُ، وَلَا شَرٌّ إِلَّا سَحَقُهُ، وَلَا بَقِيَّةٌ مَن قَصَدَهُ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ إِلَّا
اخْتَارَهُ وَاعْتَنَقَهُ، وَلَا تَأَمَّلَهُ صَاحِبُ عَقْلٍ وَرَأْيٍ إِلَّا خَضَعَ لَهُ، فَهُوَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ
مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ، وَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ مَنْ قَاوَمَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ.

القاعدة الحادية والسبعون:

في اشتغال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود في وضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك التي ترجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها، فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الكريم، فإن كثيرا منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا.

ولنمثل لهذا النوع أمثلة، ونذكر أنموذجا منه:

فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]
 ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾
 [الرحمن: ٦٠] ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ الآية
 [النحل: ٩٠] ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] ﴿مَنْ
 عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
 بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾
 وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَّحْدُوهُ
 عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّثَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران:٣٠] ﴿وَالصِّلِحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار:١٩] ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢] ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ﴿فَانْفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨] ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] ﴿وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥] ﴿فَأَسْتَفِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود:١١٢] ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥] ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود:١١٤] ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:٨٠] ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد:٢١] ﴿وَجَزَّوْا سَنِيَّةً سَنِيَّةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل:١٢٦] ﴿فَمَنْ أَعَدَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١] ﴿وَيُحْدِلُ لَهُمُ الطَّيِّبَتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦] ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

[الأحزاب: ٤] ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فهذه الآيات الكريمة وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كبير، تحتوي على معانٍ كثيرة، وقد تقدّم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه، والله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وقد يسّر الله ما منّا علينا بجمعه، فجاء - والله الحمد - على اختصاره ووجازته ووضوحه كتاباً يسر الناظرين، ويعين على فهم كلام رب العالمين، ويؤدي لأهل البصائر والعلم من المآخذ والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يحده مجموعاً في محل واحد، ومخبر الكتاب يغني عن وصفه، وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مقرباً لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه، وقارئه، والناظر فيه، وجميع المسلمين بمنه وكرمه وجوده وإحسانه، وهو خير الراحمين، وصلى الله على محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قَالَ ذَلِكَ وَكَتَبَهُ جَامِعُهُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ الْعَبْدِ اللَّهِ السَّعْدِيُّ، وَقَدْ تَمَّ ذَلِكَ فِي ٦ شَوَّالِ سَنَةِ ١٣٦٥ هـ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

التعاليق

انتهينَا مِنْ دُرُوسِ الْقِرَاءَةِ فِي كِتَابِ شَيْخِنَا الْعَلَامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ
السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ قَدْ اسْتَفَدْنَا، وَالْكِتَابُ جَدِيرٌ بِالْعِنَايَةِ
وَالشَّرْحِ الْوَافِي؛ لِمَا فِيهِ مِنْ فَائِدَةٍ كَبِيرَةٍ لَطُلَّابِ الْعِلْمِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ.

مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينُ



فهرس الأحاديث

الحدیث	الصفحة
أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ	٢٧٤
إِذَا أَنَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ	٢٨٠
إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ	٢٤٩
إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا	٢٤٩
أَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ	١٢٤
أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي	٨١
إِنْ أَجْرَكَ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكَ	٢٤٣
إِنْ فِي الْمَدِينَةِ لَأَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا أَوْ قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا هُمْ مَعَكُمْ	٢٥٠
انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ	١٩٨
إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ	١٨١
إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ	١٧١
أَهُوَ الَّذِي قَالَ كَذًا؟	١٩٥
بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ	١١٦
تِلْكَ الْغَرَائِبُ الْعُلَى وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لَتُرْجَى	٢٨٥
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ	٢٨٨
دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ	١٢٤
رَحِمَ اللَّهُ لَوْطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ	٢٩٠

- صَدَقَهُ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ ١٣٦
- صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ٢٨٣
- فَهُوَ بَيْنَتِهِ، فَهَمَّا بِالْأَجْرِ سَوَاءٌ ٢٥٠
- كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ ٦١
- لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ ٢٤٧
- مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ ١٢٨
- مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ ٢٥٢
- مَكَانَكُمْ ٢٠٥
- مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ٢٥٣
- النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ ١٣٥
- وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ٨٣
- وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ ٢٣٩
- يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ٨٨
- يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ١٥٦



فهرس الموضوعات

المَوْضُوعُ	الصفحة
تقديم	٥
نبذة مختصرة عن فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين	٧
نص محرر عن الكتاب للشيخ محمد بن صالح العثيمين بخطه	١٧
مقدمة القواعد الحسان بخط فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي	١٨
خاتمة الكتاب محررة بقلم فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي	١٩
مقدمة فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين	٢٠
مقدمة المؤلف رحمه الله	٢١
التعليق: القصد من ثناء المؤلف على كتابه	٢٢
القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير	٢٤
التعليق: معرفة الطريقة التي توصلنا إلى القرآن والاهتداء به	٢٦
القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب	٢٧
التعليق: الأصل أن العام شامل لجميع أفرادِهِ إمّا بالعموم اللفظي أو العموم المعنوي ..	٢٧
القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلَةُ على الأوصاف وأسماء الأجناس تُفيد	
الاستغراق بحسب ما دخلت عليه	٣٠
التعليق: الحكم إذا علّق على وصف ازداد بزيادة ذلك الوصف ونقص بنقصه	٣٠
مثال: اسم الجنس	٣١
اعتبار هذه القاعدة في الأسماء الحسنى	٣١

- التَّعْلِيْقُ: الْأَحْكَامُ شَرْعِيَّةٌ وَكَوْنِيَّةٌ ٣٢
- التَّعْلِيْقُ: عِلْمُ اللَّهِ بِالْمُسْتَحِيلَاتِ وَمِثَالُهُ ٣٢
- الْفَائِدَةُ مِنْ اعْتِبَارِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَى ٣٣
- أَمِثْلَةُ لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ: فِي الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ٣٣
- التَّعْلِيْقُ: أَنَّ الْمَفْرَدَ الْمُحَلَّى بِ(أَل) يَعُمُّ، سَوَاءً دَخَلَ عَلَى وَصْفٍ أَوْ اسْمٍ جِنْسٍ ٣٤
- الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِذَا وَقَعَتِ النِّكَرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، أَوِ النَّهْيِ، أَوِ الشَّرْطِ، أَوِ الِاسْتِفْهَامِ،
دَلَّتْ عَلَى الْعُمُومِ ٣٥
- الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: الْمَفْرَدُ الْمُضَافُ يُفِيدُ الْعُمُومَ، كَمَا يُفِيدُ ذَلِكَ اسْمُ الْجَمْعِ ٣٧
- التَّعْلِيْقُ: أَنَّ الْأُمَّ وَالْبِنْتَ وَالْحَالَةَ وَالْعَمَّةَ لِلْإِنْسَانِ شَامِلَةٌ لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٣٧
- التَّعْلِيْقُ: الْجَمْعُ الْمُضَافُ يُفِيدُ الْعُمُومَ بِصِيغَتِهِ وَإِضَافَتِهِ وَالْمَفْرَدُ يُفِيدُ الْعُمُومَ بِالِإِضَافَةِ
فَقَطْ ٣٩
- الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: فِي طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ ضِدِّهِ ٤٠
- التَّعْلِيْقُ: أَهَمِّيَّةُ هَذَا الْمَبْحَثِ ٤٠
- لَمْ يُنْكَرْ أَحَدٌ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ النَّزَاعُ فِي تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ٤٠
- تَقْرِيرُ الْمُؤَلَّفِ لِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ٤١
- الْعَلَاقَةُ بَيْنَ أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ ٤٣
- الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ: فِي طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ٤٤
- الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ: طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ الْمَعَادِ ٤٧
- التَّعْلِيْقُ: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ أَنْ يُقَسِّمَ فِي ثَلَاثِ مَوَاضِعَ أَنْ يُقَسِّمَ عَلَى صِدْقِ الْبَعْثِ ٤٧
- اللَّهُ عَزَّجَلَّ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِسَبَبَيْنِ ٤٩

- القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ: فِي طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخِطَابِهِمْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ٥٠
- التَّعْلِيلُ: وَجْهٌ خِطَابِهِ تَعَالَى عِبَادَهُ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ ٥١
- القَاعِدَةُ الْعَاشِرَةُ: فِي الطَّرِيقِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ لِدَعْوَةِ الْكُفَّارِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ ٥٣
- القَاعِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فِي مُرَاعَاةِ دَلَالَةِ الْإِلْتِزَامِ ٥٥
- التَّعْلِيلُ: أَنْوَاعُ الدَّلَالَاتِ وَأَهْمِيَّتُهَا ٥٥
- تَعْلِيلُ الشَّيْخِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ٥٧
- أَمَثَلَةُ الْإِلْتِزَامِ ٥٨
- قَاعِدَةٌ: مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ هِيَ مِنْ بَابِ الْاسْتِدْلَالِ بِاللَّازِمِ ٥٨
- التَّعْلِيلُ: أَهْلُ الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ ٥٩
- لَا يَجُوزُ أَنْ تَسْتَفْتِيَ إِلَّا مَنْ تَعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ ٥٩
- ثَنَاءُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى دَقَّةِ فَهْمِ شَيْخِهِ ابْنِ سَعْدِي ٦١
- بَيَانُ قَاعِدَةٍ: الْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ ٦٢
- حُكْمُ اسْتِعْمَالِ الْمُسَجَّلِ فِي الْأَذَانِ وَغَيْرِهِ ٦٢
- حُصْلَاةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّ دَلَالََةَ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ ٦٤
- القَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَاتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ ٦٥
- إِلْحَاقُ ذُرِّيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَبَائِهِمْ فِي الدَّرَجَاتِ زِيَادَةً فَضْلٍ وَكَرَمٍ ٦٦
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْبِرِّ وَالْإِقْسَاطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ الْآيَةَ ... ٦٨
- التَّعْلِيلُ: الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَذْهَبُونَ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ النُّصُوصِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ ... ٧٠
- قَاعِدَةٌ: الْقُرْآنُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَعَارَضَ نُصُوصُهُ ٧١

- القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي الْحِجَاجِ وَالْمُجَادَلَةِ مَعَ الْمُبْطِلِينَ ٧٢
- التَّعْلِيْقُ: الْاِعْتِرَافُ بِالنَّعْمِ الَّتِي أَمَدَّكَ اللَّهُ بِهَا تَوْجِبُ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ ٧٢
- مِنْ وَجْهِ الْإِلْزَامِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ مَعْرِفَةُ حَالِ الْإِلَهَةِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنَّهَا نَاقِصَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ٧٣
- مَعْنَى الْمُبَاهَلَةِ ٧٥
- بَيَانُ مُجَادَلَةِ الْقُرْآنِ وَمُحَاجَّتِهِ لِلْمُخَالِفِينَ ٧٥
- الطَّرِيقُ لِلْوُصُولِ إِلَى إِفْحَامِ الْحُصْمِ ٧٦
- القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: حَذْفُ الْمُتَعَلِّقِ يُفِيدُ الْعُمُومَ ٧٧
- التَّعْلِيْقُ: الْحُسْرُ مُحِيطٌ بِالْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ ٧٩
- الْحُكْمُ الْمُعَلَّقُ بِوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَصْفِ ٨٠
- القَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْأَسْبَابَ لِلْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ مُبَشِّرَاتٍ لِيَتَطَمِّنَ الْقُلُوبَ ٨٢
- التَّعْلِيْقُ: مَتَى تَكُونُ النَّعْمُ اسْتِدْرَاجًا؟ ٨٣
- القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: حَذْفُ جَوَابِ الشَّرْطِ يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ الْأَمْرِ فِي مَقَامِ الْوَعِيدِ ٨٤
- التَّعْلِيْقُ: حَذْفُ الشَّيْءِ فِي مَقَامِ التَّعْظِيمِ أَوْ إِبْهَامُهُ وَإِجْمَالُهُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ ٨٤
- القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: فِي تَنْوِيعِ دَلَالَتِ بَعْضِ الْأَسْمَاءِ فِي حَالِ الْإِفْرَادِ وَالْاِقْتِرَانِ بِغَيْرِهِ ٨٥
- التَّعْلِيْقُ: إِذَا اجْتَمَعَ افْتِرَاقًا وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا ٨٥
- القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ: فِي الْآيَاتِ الْمُخْبِرَةِ بِتَعَلُّقِ الْهِدَايَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرِّزْقِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَالْآيَاتِ الَّتِي تَذَكِّرُ لَذَلِكَ بَعْضَ الْأَسْبَابِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعَبْدِ ٨٨
- التَّعْلِيْقُ: حَقِيقَةُ مَنْ يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ ٩٠

- القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ: حَتْمُ الْآيَاتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ
 لَهُ تَعَلُّقٌ بِذَلِكَ الْأِسْمِ ٩٢
- التَّعْلِيلُ: الْحِكْمَةُ فِي إِقْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى لِلنَّاسِ فِي أَنْ يُصَلُّوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلَ الْأَمْرِ ٩٤
- فَائِدَةٌ: إِذَا جَاءَ اسْمُ اللَّهِ السَّمِيعِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ ٩٥
- التَّعْلِيلُ: هَذِهِ الْقَاعِدَةُ لَهَا وَجْهَانِ: ٩٩
- فَائِدَةٌ: الْمَعْرِفُ بِ(أَل) ١٠٠
- القَاعِدَةُ الْعِشْرُونَ: فِي إِحْكَامِ الْقُرْآنِ وَتَشَابُهِهِ ١٠١
- التَّعْلِيلُ: الْقُرْآنُ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ جَامِعٌ بَيْنَهُمَا ١٠٣
- الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ ١٠٥
- القَاعِدَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي أَنَّ الْقُرْآنَ يُجْرِي فِي إِرْشَادَاتِهِ مَعَ الزَّمَانِ وَالْأَحْوَالِ،
 فِي أَحْكَامِهِ الرَّاجِعَةِ لِلْعُرْفِ وَالْعَوَائِدِ ١٠٦
- التَّعْلِيلُ: حَدُّ الْمُتَعَارَفِ فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ ١٠٧
- القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي مَقَاصِدِ أَمْثَلَةِ الْقُرْآنِ ١١٠
- عَمَلُ الْوَحْيِ وَالْعِلْمِ فِي الْقُلُوبِ كَعَمَلِ الْغَيْثِ وَالْمَطَرِ ١١١
- مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ١١٥
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا عَلِمَ الْحَقَّ أَنْ يُبَادِرَ إِلَيْهِ وَلَا فَرْبًا يُحَرِّمُ الْحَقَّ ١١٥
- الْجَوَابُ عَلَى مَنْ قَسَمَ الدِّينَ إِلَى أَصُولٍ وَقُرُوعٍ ١١٦
- هَلْ فِي الدِّينِ قُشُورٌ؟ ١١٦
- بَيَانُ الْقُرْآنِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ١١٧
- القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنْوَاعُ إِرْشَادَاتِ الْقُرْآنِ ١١٩

- التَّعْلِيقُ: إِرْشَادُ اللَّهِ لِلنَّاسِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى قِسْمَيْنِ ١٢١
- القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي حَثِّ الْقُرْآنِ عَلَى التَّوَسُّطِ وَذَمِّهِ الْغُلُوَّ وَالتَّقْصِيرَ ١٢٢
- التَّعْلِيقُ: الْقُرْآنُ يَأْمُرُ بِالْإِعْتِدَالِ فِي الْأُمُورِ ١٢٤
- الْحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ١٢٥
- القَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي أَمْرِ اللَّهِ بِحِفْظِ حَدُودِهِ وَنَهْيِهِ عَنْ تَعَدِّيِّهَا وَقُرْبَانِهَا .. ١٢٦
- الْمَحْرَمَاتُ يُقَالُ فِيهَا: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ وَأَمَّا الْمَأْمُورَاتُ فَيُقَالُ فِيهَا: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾. ١٢٧
- القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا قِيُودٌ لَا تَنْبُتُ أَحْكَامُهَا إِلَّا بِقِيُودِهَا ١٢٩
- التَّعْلِيقُ: مَعْنَى الْقَيْدِ الَّذِي يُقَالُ غَيْرُ مُرَادٍ ١٣٠
- الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَّيْبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ ١٣٠
- مَتَى يَلْزَمُ الرَّهْنُ؟ وَاسْتِذْرَاكُ الشَّيْخِ ابْنِ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ ١٣٢
- الشُّهُودُ فِي الْأَمْوَالِ ١٣٣
- خِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي الْقَيْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ ١٣٤
- اخْتِيَارُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ ١٣٥
- الْمَرِيضُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتِمَّمَ سَوَاءً وَجَدَ الْمَاءَ أَمْ لَمْ يَجِدْهُ ١٣٦
- مَا زَادَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ١٣٧
- الْأَصْلُ فِي الْقِيُودِ وَالشُّرُوطِ أَنَّهَا مُقَيَّدَةٌ ١٣٨
- القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي أَنَّ الْمُحْتَزَّاتِ فِي الْقُرْآنِ تَقَعُ فِي كُلِّ الْمَوَاضِعِ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ١٤٠
- القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: فِي ذِكْرِ الْأَوْصَافِ الْجَامِعَةِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنَ .. ١٤٣

- التعليق: الخطاب بالإيمان ينقسم إلى قسمين ١٤٣
- القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجنبها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن ١٤٧
- التعليق: العلم بالله وبأسمائه وصفاته أعلى أنواع العلوم ١٤٧
- العبارة في قصص الرسل من وجهين ١٤٨
- خلاصة هذه القاعدة ١٥١
- القاعدة الثلاثون: في أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ١٥٢
- التعليق: خلاصة هذه القاعدة ١٥٢
- القاعدة الحادية والثلاثون: ربوبية الله في القرآن على نوعين ١٥٤
- التعليق: الربوبية على نوعين وكذلك العبودية ١٥٥
- القاعدة الثانية والثلاثون: في أن أمر الله بالشيء يستلزم النهي عنه ضده والعكس، وأن نفي النقص عن حقه تعالى وحق أوليائه يستلزم ثبوت كمال ضده ١٥٧
- التعليق: هذه القاعدة ليست على عمومها ١٥٨
- ما من صفة نفاها الله عن نفسه إلا وتتضمن ثبوت مقابل لهذا النفي ١٥٩
- القاعدة الثالثة والثلاثون: في مرضى الشهور والشبهات ١٦٠
- التعليق: خلاصة هذه القاعدة أن مرض القلوب ينقسم إلى قسمين ١٦١
- القاعدة الرابعة والثلاثون: دل القرآن على أن من ترك الاشتغال بما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره ١٦٣
- التعليق: استشهد الشيخ رحمه الله ببيت لابن القيم في النونية ١٦٣
- القاعدة الخامسة والثلاثون: في دلالة القرآن على تحصيل أعلى المصلحتين وارتكاب أخف الضررين ١٦٥

- التَّعْلِيْقُ: حُكْمُ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ ١٦٦
- فَائِدَةٌ: ١٦٧
- القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي إِبَاحَةِ الْاِقْتِصَاصِ مِنَ الْمُعْتَدِي، وَالنَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ،
وَالنَّدْبِ إِلَى الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ ١٦٨
- التَّعْلِيْقُ: اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ عَلَى ثَلَاثِ حَالَاتٍ ١٦٨
- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لُولِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ شَامِلُ السُّلْطَانِ الشَّرْعِيِّ وَالْكُونِيِّ ١٦٩
- القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي اعْتِبَارِ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ فِي تَرْتُّبِ الْأَحْكَامِ عَلَى أَعْمَالِ
الْعِبَادِ ١٧١
- الفَائِدَةُ: ثَوَابُ الْآخِرَةِ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالنِّيَّةِ الْخَالِصَةِ ١٧١
- القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي إِرْشَادِ الْقُرْآنِ إِلَى جَبْرِ خَاطِرِ الْمُنْكَسِرِ قَلْبُهُ ١٧٣
- التَّعْلِيْقُ: تَعْلِيْقٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَوْأَمَتُهُمْ هَبْطٌ مُخْمَلَةٌ﴾ ١٧٣
- تَعْلِيْقٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ ١٧٤
- بَعْضُ الْأَدَابِ الَّتِي تُقَالُ عِنْدَ تَعْرِيزَةِ الْمَصَابِ ١٧٥
- القَاعِدَةُ الثَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ: فِي طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي أَحْوَالِ السِّيَاسَةِ الدَّخْلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ ١٧٦
- التَّعْلِيْقُ: أَهْمِيَّةُ الشُّورَى لِلأُمَّةِ ١٧٨
- إِعْدَادُ النَّاسِ جَمِيعًا عَلَى الْاِعْتِرَازِ بِأَنْفُسِهِمْ ١٧٩
- أَهْمِيَّةُ إِعْدَادِ الْقُوَّةِ لِلْأَعْدَاءِ ١٨٠
- هَلْ يُشْتَرَطُ الْمِثْلُ فِي السَّلَاحِ؟ ١٨١
- السِّيَاسَةُ فِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ ١٨٢
- قَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «يَجِبُ تَوَلِيَّةُ الْأَمَثِلِ فَالْأَمَثِلِ» ١٨٣

- طَاعَةُ وَلَاةِ الْأَمْرِ تَبِعَ لَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ١٨٤
- غَلَطُ بَعْضِ الْجُهَالِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَنْظِمَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مُحَالَفَةُ شَرْعِيَّةٌ ١٨٥
- الشُّرُورُ وَالْفَسَادُ الَّذِي يَخْضُلُ بِالخُرُوجِ عَلَى وَلَاةِ الْأَمْرِ ١٨٥
- الْحُرِّيَّةُ الْكَامِلَةُ هِيَ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٨٨
- السِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ السِّيَاسَةُ الْحَقَّةُ ١٨٩
- الْقَاعِدَةُ الْأَرْبَعُونَ: فِي دَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى أُصُولِ الطَّبِّ ١٩٠
- التَّعْلِيلُ: الْقُرْآنُ أَرْسَدَ إِلَى أُصُولِ الطَّبِّ الثَّلَاثَةِ ١٩١
- الْقَاعِدَةُ الْحَادِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: فِي إِزْشَادِ الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ إِلَى قَضْرِ النَّظَرِ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا، وَمِنْ جِهَةِ التَّرْغِيبِ فِيهِ وَالتَّرْهِيبِ مِنْ ضِدِّهِ: إِلَى مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ، وَمِنْ جِهَةِ النَّعَمِ: إِلَى النَّظَرِ إِلَى ضِدِّهَا ١٩٢
- التَّعْلِيلُ: بَعْضُ النَّاسِ يُفَرِّطُونَ فِي الْعَمَلِ مِنْ وَجْهَيْنِ ١٩٣
- نَصِيحَةُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْرَأَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ ١٩٥
- كُلُّ عَدُوٍّ لَكَ يُعَانِي مِثْلَمَا تُعَانِي مِنْهُ ١٩٧
- الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: فِي حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ رَسُولِهِ ﷺ الْخَاصَّةِ وَالْمُشْتَرَكَةِ .. ١٩٩
- التَّعْلِيلُ: خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّ الْحُقُوقَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٢٠٠
- إِضَافَةُ حَقٍّ رَابِعٍ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ٢٠١
- الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: فِي الْأَمْرِ بِالتَّسَبُّتِ وَالْحَثِّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ فِي أُمُورِ الْحَيْرِ ٢٠٣
- التَّعْلِيلُ: أَهَمِّيَّةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَتَقْسِيمُهَا إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ٢٠٤
- الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: عِنْدَ مِيلَانِ النَّفْسِ إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي يُذَكِّرُهَا اللَّهُ مَا يَفُوتُهَا مِنَ الْحَيْرِ، وَمَا يَخْضُلُ لَهَا مِنَ الضَّرَرِ ٢٠٦

- التَّعْلِيْقُ: الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي لَا تَكْفِي فِي اسْتِقَامَةِ الْعَبْدِ ٢٠٧
- فَقِيرُ النَّصَارَى لَا حَصَلَ دِينًا وَلَا دُنْيَا ٢٠٨
- الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: حَثُّ الشَّارِعِ عَلَى الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ ٢٠٩
- التَّعْلِيْقُ: الْأَفْصَحُ أَنْ يُقَالَ: يَكَادُ يَكُونُ ٢٠٩
- مَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمُصْلِحِينَ ٢١٠
- الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ ٢١٠
- خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ٢١٢
- مَا يَسْلُكُهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي الْوِشَايَةِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ٢١٢
- الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِذَا رَأَوْا تَصَدُّعًا فِيمَا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ٢١٣
- الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: فِي الْفَرْقِ بَيْنَ تَوَجُّهِ الْأَمْرِ لِمَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَبَيْنَ تَوَجُّهِهِ إِلَى مَنْ دَخَلَ فِيهِ ٢١٥
- التَّعْلِيْقُ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ﴾ ٢١٥
- قَاعِدَةُ فِي تَكْمِيلٍ وَتَحْسِينٍ مَا نَقَصَ مِنَ الْعَمَلِ ٢١٦
- الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: إِذَا كَانَ سِيَاقُ الْآيَاتِ فِي أُمُورٍ خَاصَّةٍ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهَا وَذَلِكَ الْحُكْمُ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِهَا جَاءَ اللَّهُ بِالْحُكْمِ الْعَامِّ ٢١٨
- التَّعْلِيْقُ: الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ يُفِيدُ الْحُكْمَ بِالْعُمُومِ ٢١٨
- فَائِدَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ٢١٩
- الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: إِذَا عَلَّقَ اللَّهُ عِلْمَهُ بِالْأُمُورِ بَعْدَ وُجُودِهَا كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْعِلْمِ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ ٢٢٠
- التَّعْلِيْقُ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ عِلْمٌ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ جَزَاءٌ وَعِلْمٌ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ جَزَاءٌ ٢٢١

- تَوْضِيحٌ لِقَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِلَّا لَنَعْلَمُ عِلْمَ ظُهُورِ ٢٢١
- الْقَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: إِذَا مَنَعَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَتَحَ بَابًا أَنْفَعَ لَهُمْ مِنْهُ. ٢٢٢
- التَّعْلِيلُ: إِذَا مَنَعَ اللَّهُ الْعِبَادَ شَيْئًا فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابًا خَيْرًا مِنْهُ ٢٢٢
- الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ تَتَمَنَّى مِثْلَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ وَأَنْ تَتَمَنَّى مَا فَضَّلَ اللَّهُ ٢٢٣
- الْفَائِدَةُ مِنَ النَّسْخِ ٢٢٣
- قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ ٢٢٤
- الْقَاعِدَةُ الْخَمْسُونَ: فِي الْفَرْقِ بَيْنَ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَ مَا يَقْتَرِحُهُ أَهْلُ التَّعَتُّاتِ ٢٢٦
- التَّعْلِيلُ: بَيَانُ مُرَادِ الْمُؤَلِّفِ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ٢٢٧
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ٢٢٨
- مُنَازَعَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ وَالْأَحْكَامِ ٢٢٩
- الْقَاعِدَةُ الْحَادِيَةُ وَالْخَمْسُونَ: فِي أَنَّ الدُّعَاءَ فِي الْقُرْآنِ يَشْمَلُ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ وَدُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ ٢٣١
- وَجْهٌ كَوْنِ الْعِبَادَةِ دُعَاءً ٢٣٢
- حُكْمُ مَنْ طَلَبَ مِنْ مَخْلُوقٍ شَيْئًا ٢٣٣
- الْعُذْرُ بِالْجَهْلِ ٢٣٣
- مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ٢٣٤
- خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ٢٣٦
- الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالْخَمْسُونَ: إِذَا وَضَحَ الْحَقُّ وَبَانَ لَمْ يَبْقَ لِلْمُعَارَضَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مَحَلٌّ ٢٣٧
- التَّعْلِيلُ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ٢٣٧

- ٢٣٩ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾
- ٢٤٠ مَتَى تَكُونُ الْمُجَادَلَةُ مَذْمُومَةً؟
- ٢٤١ الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالْخَمْسُونَ: فِي أَنَّ الْأَجَرَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ
- ٢٤٣ التَّعْلِيلُ: خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ
- ٢٤٣ تَسْهِيلُ الطَّاعَاتِ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ
- ٢٤٥ الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ: نَفْيُ الشَّيْءِ لَانْتِفَاءِ ذَاتِهِ وَثَمَرَتِهِ
- التَّعْلِيلُ: خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَنْفِي الشَّيْءَ لَانْتِفَاءِ ثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ ٢٤٧
- الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ وَالْخَمْسُونَ: فِي أَنَّهُ يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ عَمَلُهُ الَّذِي بِأَشْرِهِ، وَيُكْمَلُ مَا شَرَعَ فِيهِ وَعَجَزَ عَنْ إِمْتَامِهِ
- ٢٤٩ التَّعْلِيلُ: الْأَقْسَامُ الَّتِي يَحْصُلُ لِأَصْحَابِهَا الْأَجْرُ
- ٢٥١ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ وَالْمَرِيضِ فِي حُصُولِ الْأَجْرِ
- ٢٥٢ الْإِنْسَانُ يُكْتَبُ لَهُ آثَارُ عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْهَا
- ٢٥٣ الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ وَالْخَمْسُونَ: فِي حَثِّ الْقُرْآنِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقِيَامِ بِمَصَالِحِهِمْ
- ٢٥٥ التَّعْلِيلُ: يَجِبُ أَنْ يَسْعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَصْلَحَةٍ مُعَيَّنَةٍ تَلِيْقُ بِهِ
- ٢٥٦ الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ: فِي كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ
- ٢٥٩ التَّعْلِيلُ: مَعْنَى الْقِيَوْمِ
- ٢٥٩ دَلَالَةُ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ مِنْ وَجْهَيْنِ
- ٢٦٠ الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالْخَمْسُونَ: فِي طَرِيقَةِ إِظْهَارِ اللَّهِ تَعَالَى شَرَفَ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ
- ٢٦٢

- التعليق: تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا الملك ٢٦٢
- القاعدة التاسعة والخمسون: في أن القرآن يهدي للتي هي أقوم ٢٦٦
- التعليق: القرآن لا يأتي إلا بما هو أقوم في جميع الأقوال والأعمال ٢٦٧
- القاعدة الستون: في بعض قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه ٢٦٩
- التعليق: ما تضمنته هذه القاعدة ٢٧١
- فائدة: التفصيل بعد الإجمال ٢٧١
- القاعدة الحادية والستون: في حث الشارع على معرفة الأوقات وضبطها إذا كان يرتب على ذلك حكم عام أو خاص ٢٧٣
- التعليق: أهمية ضبط الوقت وحفظه ٢٧٤
- القاعدة الثانية والستون: في أثر الصبر وما يعين عليه ٢٧٥
- التعليق: هذه القاعدة اشتملت على أمور: ٢٧٧
- الأمر الأول: أن الصبر أكبر عون على الأمور ٢٧٧
- الأمر الثاني: معرفة المصبور عليه ٢٧٧
- الأمر الثالث: أن يرجو الإنسان بصيره ثواب الله عز وجل ٢٧٨
- الأمر الرابع: أن الإنسان إذا صبر على الشيء صار كأنه غريزة ٢٧٨
- القاعدة الثالثة والستون: في أن قيمة الإنسان في إيمانه وعمله الصالح ٢٧٩
- التعليق: الرئاسات وما يتعلق بها من دعاوى باطلة ٢٨١
- القاعدة الرابعة والستون: في بعض ما يعرض للحق والأمور اليعينية ٢٨٢
- التعليق: الإشكال في قراءة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يَكُونُونَ﴾ واختيار الشيخ ٢٨٣
- ابن عثيمين رحمه الله معنى آخر غير ما ذكره المؤلف رحمه الله ٢٨٣

- أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ٢٨٥
- جَوَابُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى قِصَّةِ الْغَرَانِيقِ ٢٨٦
- اخْتِيَارُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا﴾ ٢٨٩
- مَعْنَى قَوْلِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوْءَاوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ٢٩١
- الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ وَالسُّتُونَ: فِي الْمَنْعِ مِنَ الْمُبَاحِ إِذَا كَانَ يُفْضِي إِلَىٰ ارْتِكَابِ مَحْظُورٍ
أَوْ تَرْكِ مَأْمُورٍ ٢٩٢
- التَّعْلِيلُ: قَاعِدَةٌ: الْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ قَاعِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ ٢٩٢
- الْأَمَثِلَةُ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَتَوْضِيحُهَا ٢٩٣
- هَلْ تُقَاسُ الْعُقُودُ الْأُخْرَىٰ عَلَىٰ حُكْمِ الْبَيْعِ بَعْدَ النَّدَاءِ الثَّانِي؟ ٢٩٤
- الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ وَالسُّتُونَ: اسْتِدْلَالُ الْقُرْآنِ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ عَلَىٰ مَا صَدَرَتْ
عَنْهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ ٢٩٥
- التَّعْلِيلُ: حُسْنُ إِدَارَةِ الْمُلْكِ تَكُونُ بِتَوَزِيعِ الْأَعْمَالِ وَتَرْتِيبِهَا ٢٩٥
- خُلَاصَةُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: آثَارُ الشَّيْءِ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ مُؤَثِّرِهَا ٢٩٦
- الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ وَالسُّتُونَ: فِي الرُّجُوعِ إِلَى الْمُتَيَقِّنِ حَالَ الْاِشْتِبَاهِ ٢٩٧
- الْقَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالسُّتُونَ: فِي أَنَّ ذِكْرَ الْأَوْصَافِ الْمُتَقَابِلَاتِ يُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ
بِالْمُفَاضَلَةِ إِذَا كَانَ الْفَرْقُ مَعْلُومًا ٢٩٩
- التَّعْلِيلُ: السُّؤَالُ عَنِ الشَّيْءِ الْمَعْلُومِ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ أَنْ يُجَابَ عَنْهُ ٣٠٠
- الْقَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالسُّتُونَ: مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ ٣٠١
- التَّعْلِيلُ: مَا فَعَلَهُ سُلَيْمَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَيْلِ عِنْدَمَا أَلْهَمَتْهُ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ ٣٠٢
- إِتْلَافُ الْمَالِ لِلْمَصْلَحَةِ جَائِزٌ ٣٠٢

٣٠٢	حُكْمُ تَطْلِيقِ الزَّوْجَةِ إِذَا أَلْهَتْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ
٣٠٤	القَاعِدَةُ السَّبْعُونَ: فِي مُقَاوَمَةِ الْقُرْآنِ جَمِيعِ الْمُفْسِدِينَ
٣٠٧ ...	القَاعِدَةُ الْحَادِيَةُ وَالسَّبْعُونَ: فِي اسْتِمَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْفَاطِ الْقُرْآنِ عَلَى جَوَامِعِ الْمَعَانِي
٣١٠	تَعْلِيقُ لِلشَّيْخِ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي نِهَايَةِ الْكِتَابِ عَلَى أَهْمِّيَّتِهِ وَأَنَّهُ جَدِيرٌ بِالْعِنَايَةِ وَالشَّرْحِ
٣١١	فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ
٣١٣	فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

